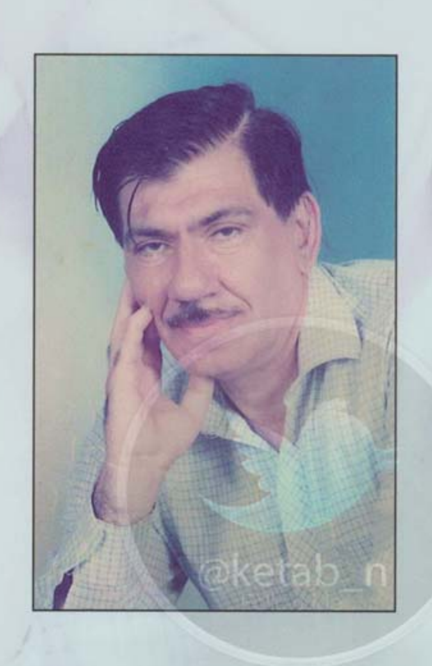




الرجس



منشورات الجمل

رواية

سمير نقّاش

الرجس



منشورات الجمل

سمير نقّاش: الرجس، رواية

سمير نقّاش (وُلد عام ١٩٣٨ في بغداد – البتاوين، وتوفّي عام ٢٠٠٤ في إسرائيل) هُجّر عام ١٩٥١ من العراق إلى إسرائيل. تنقّل بين إسرائيل، الهند ، إيران وبريطانيا. نشر العديد من الروايات والقصص والمسرحيات، منها: **أنا وهؤلاء والفصام**، قصص عراقية ١٩٧٨؛ **نُزُولَه وخيط الشيطان**، رواية عراقية، ١٩٨٦؛ **فوّة يا دم**، نوبيلا عراقية، ١٩٨٧؛ **الرجس**، رواية، ١٩٨٧؛ **المقرورون**، مسرحية، ١٩٩٠؛ صدر له عن منشورات الجمل: **عورة الملائكة**، رواية، ١٩٩١؛ **شلومو الكردي وأنا والزمن**، رواية، ٢٠٠٤؛ **فوّة يا دم**، نوبيلا عراقية، ٢٠١١؛ **نُزُولَه وخيط الشيطان**، رواية عراقية، ٢٠١١.

سمير نقّاش: **الرجس**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل الأول

الصمت. . الظلام. . العاصفة. . والبرد. . أما النور فكان موضع شك عميق. . منذ أن دفعونا إلى هذا السرداب العتم، فرضت هذه الأشياء وجودها. إن المرء يمكن أن يضيع في دهاليز هذا السرداب. متاهة. . متاهة حقيقية. سجن ولا سجن. والضوء الشاحب المطل برأسه من السقف لا يمكن أن يخلق نوراً حقيقياً. كل ما يمكن أن يصنعه هذا الضوء، هو تحويل تلك الموجودات الخامدة إلى أشباح شبه مخيفة.

كان ثمة مقصورات قاتمة ضيقة، أقرب بأبوابها القضبانية إلى الزنزانات. ولما كانت هذه الأبواب مفتوحة على مصراعيها، فإن الإحساس بمعنى الزنزانة قد خفت وطأته. وكان من العبث أن نطلق أسماءً على هذه الأقبية القاتمة العفنة. إنها مجرد خلايا. قناطر تربط بين ماضٍ ميت ومستقبل يحيق به الضباب. وبين ذلك كان على المرء أن يحيا لحظته في داخلها بغموض قاتل، يحياها معانياً، مواجهاً تجربة من تجارب الألم الحادة. إن كل ما بوسع هذه الخلايا أن تفعله، هو أن تضع الإنسان في مواجهة نفسه برهة من الوقت، بعد أن تحيل هذه النفس إلى فتيل قابل للاحتراق، أو إلى سيجارة مهملة احتك بطرفها عود ثقاب مشتعل، فلا تملك إلا أن تنفث الدخان في تلقائية مخزية، وتكدسه غمامات غمامات مهمتها الأساسية أن تحجب صفاء الأشياء وأن تنشر الغشاوة في لا عمدية قذرة.

وكان علينا أن نختار، بين صمت مطبق، واحدة من هذه الخلايا أو المقصورات أو الزنزانات، كي نمضي فيها ليلتنا. فقد أنزلونا إلى السرداب ثم اختفوا. قالوا من غير أن ينبسوا بحرف واحد، إن هذا السرداب، هذه المتاهة هي بين أيديكم. وإنكم أحرار بداخلها، وأنتم من ثم تملكون الاختيار. غير أنني منذ أن تجولت بين أرجاء السرداب، مقت هذه الحرية التي فرضوها علينا فرضاً. فهذا الامتياز المسمى بالاختيار الذي أعطي لنا بسخاء، لم يكن فيه ما يجدي. كانت الخلايا متشابهة كلها، باردة كلها، عفنة كلها، مظلمة كلها، خاوية كلها. وكانت مهمة الاختيار في هذه الحالة عقيمة ولا تعدو أن تكون نوعاً من خداع النفس. تمزقت من ثم، بين إحساسين متضاربين. . بين أن أدين لهؤلاء على الحرية التي وهبوها لنا بعد أن أشرفنا على نسيانها لطول أمد الحرمان، أو أن أحقد عليهم، لأنهم وضعونا أمام هذه المهمة الشاقة. فقد كنت أفضل لو أنقذونا من حيرتنا وحددوا لنا الخلية التي سنمضي فيها ليلتنا تلك.

وكان منظرنا كما تخيلته، قد اكتسب هو الآخر بعد أن أصبح جزءاً من موجودات هذا السرداب الكاشفة عن ذاتها من خلال ضوئه الخافت، كثيراً من الشبحية المخيفة. ورغم أن وقتاً طويلاً قد مضى علينا دون أن نواجه مظهرنا من خلال المرآة، فقد كان يكفي أن نلمس وجوهنا لندرك، أن شعور ذقوننا قد بلغت من الطول ما يضاهي شعور رؤوسنا التي كانوا يجتثونها كل شهر تقريباً. بيد أن هذه اللمسة كان يمكن الاستغناء عنها كذلك. فبمجرد أن أحدنا كان يلقي نظرة إلى وجه الآخر، فإن صورته ذاته كانت تنطبع في مخيلته قبل أن تتجه أبصاره إلى شيء آخر جديد. كانت الأمنية الوحيدة التي يمكن أن تراودنا في هذا السرداب، هي أن نبقى في منأى عن أعين الناس. إذ لم يكن ثمة من شك في أن من سيرانا سيشعر بالنفور والتقزز. وإلى جانب هذا، فإن

الصرتين اللتين كانتا تضمان ثيابنا الداخلية، اللتين تعودنا في الآونة الأخيرة أن نحملها خلال تجوالنا المضني واللانهائي، وراء ظهورنا ممسكين بعقدتيهما من فوق أكتافنا، قد ساعدتا أيضاً على تشويه صورنا، فقد كنا نبدو ونحن نحمل هذه الصرر الحقيرة وكأننا متسولان أو مجرمان.

وجدنا أنفسنا بعدئذٍ، ومن غير أن نتبادل كلمة واحدة، في أقرب مقصورة إلى المرحاض. فقد تعمدوا إضاءة المرحاض إضاءة كاملة، وكان بحد ذاته نظيفاً ولا تنبعث منه رائحة كريهة بحيث يمكن الظن أن عامل التنظيف قد فرغ من غسله قبل وصولنا إلى هنا بوقت قصير. وثمة مغسل بدون مرآة. فالمرآة يمكن تحويلها بسهولة إلى آلة حادة تساعد على ارتكاب جريمة، ولهذا فهم يتجنبون مثل هذه الأشياء بدقة عجيبة.

كنا الآن في ضمن تلك الأشياء مجتمعة. ما أن دخلنا المقصورة وارتمينا على الدكة الإسمنتية، حتى فتحت لنا أذرعها. عانقتنا بشيء أكبر من الحرارة.. شيء كاد أن يكون اعتصاراً جامحاً. استشففنا من خلال ذلك الشيء روحاً عدوانية صارخة. كانت جميع تلك الأشياء حرة.. متحدية ومقتحمة. قد يخيل للمرء في لحظة عابرة أنها مثلنا في حريتها الطائشة، ثم لا يلبث أن يكتشف أن كل ما كان من حريتنا المزعومة، قد وقع في قبضة هذه الأشياء المعتوهة. لقد كنا ضحاياها. وأوشكنا أن نعتقد أنهم أطلقوها في وجوهنا بقصدية خبيثة بعد أن مسخوها إلى شياطين مرعبة وخلقوا لها أنياباً ومخالب وسحنات دميمة.. بعد أن صيروها عصارة الرعب. وكان البرد ذروة هذا الرعب. لم أستطع أن أتخيل كيف يمكن أن تسقط الحرارة حتى الدرك الأسفل كي تخلي مكانها لهذا البعبع. البرد في هذه المقصورة كان بعبعاً بالفعل. وكان الوحيد من بين تلك الأشياء الذي لم يكتف باعتصارنا. إذ سرعان ما أدركنا أنه شيء مكتسح. كانت مخالبه النافذة تخترق

لحومنا وعظامنا وتستقر عميقاً في المح. دودة تنخر داخل العظام بلا رحمة. وانكمشنا على هذه الدودة. ولم يكن ثمة فائدة.. والأرض العراء تنفث سمومها الصقيعية المخترقة كالشعاع. لا شيء يعترض سبيل هذا الشيطان.. لا شيء يقف في طريقه. وضع كل منا صرته وجلس عليها. وتجمدت الصرتان وتجمدت معها المؤخرتان، وتجمد في الوقت ذاته كل شيء. وكان قريبي يصر على الصمت. حاولت استدراجه إلى الكلام عبثاً. حدقت في وجهه على انعكاسات النور الميت، فتحطم بداخلي بعض الجمود. فزعت.. ظننت على ضوء تجربة ماضية أن صمته من ذلك النوع الخبيث المتستر على معاول شيطانية ترتفع إلى قرص الشمس كي تدمره. واقترب الليل وتفاقم الصقيع. والشمس لم يعد لها أثر. إنها الآن وراء الأفق.. دائماً كانت هذه الشمس ضائعة وراء الأفق أو خلف السقوف.. منذ ستة شهور وهي ضائعة، ولكنها رغم هذا كانت في مخيلة هذا التافه موجودة. وامتزجت رعدتا البرد والفزع، فلو حطم هذه الشمس، فإن الأشياء كلها ستموت. كانت هذه الفكرة غائبة عن الوعي. الآن تعود وتنتفخ وتستحيل إلى جوزة صلبة، لتهتز بين أشداق الصمت والبرد، وتتذبذب تحت أنياب تحاول أن تطبق عليها كالكماشة، ثم لا تلبث أن تفلت من أسارها، بيضاوية، فولاذية، مغضرفة.. منتصرة.

قمت فتجولت قليلاً خارج المقصورة. أوقفني البرد اللانهائي عند حاجزه المنيع. حاولت أن لا أكون قطعة منه. بشتى الطرق حاولت. ارتفعت ياقة الرداء إلى العنق وتطبقت الأزرار وتقلص الجسد.. كل شيء فقد مفعوله إلا سحنة ذلك القريب والفكرة المدمرة. وعدت إليه. ومرة أخرى حاولت جره إلى النطق. في الآونة الأخيرة عادت إليّ مشاعري الطيبة نحوه. فذاكرتي كانت تعاني من داء خبيث. كان ثمة إصبعان تهيمنان على هذه الذاكرة.. إصبعان خرافيتان إلّهيتان. إحداهما

تنقش كل ما دعوته إحسانا.. تحفره عميقاً كأنما على لوحة من الصخر، والأخرى تمحق السيئات. تمتصها كما تمتص الإسفنجة الماء.

الآن، ولأول مرة اعتصرت هذه الإسفنجة. كان الماء قد جف، بيد أن بعض القطرات رشحت من الإسفنجة. وكانت هذه القطرات هي الثقة.. الثقة التي هوت ذات يوم.. وأيقنت في هذه اللحظة أنها لا تختلف عن القطعة من الفخار. وبحلقت في عينيه وأنا مبتلع مثله في جليد المحيط القطبي، فتفسخت قطعة أخرى من هذا الجليد. عيناه الكبيرتان كانتا تعكسان هذه الثقة الضبابية المشوهة وتعيدان للشك أطرافه ورأسه وساقيه.

وصرخت:

ـ «إنك تحدق بي كما لو كنت أنا السبب».

قال هامساً:

ـ «إنه البرد. شيء فظيع هذا البرد».

ـ «وأنا؟.. أتعتقد أنني أتمتع ضده بالحصانة؟..».

فهتف كمن لا يشعر برغبة في الكلام.

ـ «دعني.. دعني وشأني أرجوك».

كلا. إنه واجم وأنا لم أعد أثق بوجومه. منذ أن بدأ يخفي عني الرسائل التي تصله من شقيقه، بدأ الشك. ومنذ ذلك الحين أخذ يساوره الوجوم. لم أكن بعد أعلم بما يضمره هذا الوجوم. ولكنه في تلك الليلة، عندما حاول أن يرتكب فعلته القذرة تحول الشك إلى يقين.

ـ «أتراك تفكر في خنقي ثانية؟!...».

اقتلعه هذا السؤال من وجومه وخموده، وشتت أفكاره التي رهبتها. قام فجأة. عيناه الواسعتان فقدتا ذلك الشعاع من الرعب وأصبحتا خابيتين. صوبهما إلى وجهي في محاولة شبه يائسة ليتقيأ عن

طريقهما الأحاسيس التي أثارها في نفسه هذا السؤال. وعندما أيقن أن محاولته قد أخفقت، اعتراه نوع من الغيظ المتخاذل. قال أخيراً وهو يهبط بعينيه إلى الأرض الإسمنتية الباردة:

ـ «إنك تهذي.. لا ريب أن روعة المكان تجعلك تهذي. يا للملاعين.!!»

وخطوت خطوتين ثم توقفت.

ـ «كلا.. إنه ليس الهذيان.. بل هي الأعراض التي توسمتها فيك قبل أن تحاول خنقي». لاحظت على وجهه صرخة من الألم، فأوشكت على التراجع. لم أكن أنوي تعذيبه. كنت في أمس الحاجة إليه وإلى «كلامه». لقد كان ينبغي أن نحارب الشياطين التي تحاصرنا من كل جانب. وكان سلاحنا الوحيد هو الثرثرة. أما إصراره على الوجوم والصمت فقد كان يقذف به إلى الطرف المضاد ويجعله حليفاً لهذه الشياطين الدميمة. وكان عليّ أن أدافع عن نفسي.. أن أنقذها من وحدتها على الأقل.. أن أقاوم العدم والرعب والألم في همة تكاد أن تكون استماتة، وفي ظرف لاقت فيه الأشياء حتفها.. ماتت كي ترقص على أشلائها الأشباح. لم يكن ثمة غير اللحظة القادمة. وكان يخيل إليّ أنها تسقط في جب. تتأخر عن ميعادها في لا إرادة تعسة. وكنت أفكر في وسيلة تمكن من انتشالها من هذا الجب، كي تواصل مسيرتها على خط الزمن جارة في أعقابها المزيد من اللحظات الموحشة الباردة. وعدت أنظر إليه. وكان يعود فيرتمي على صرته المتجلدة ويدفن رأسه بين يديه ويسلم ذاته لمخالب البرد.

ـ «ما زلت تصر على الصمت».

ـ «لا شيء يوحي بالكلام».

وقاومت رعشة فكي وأنا أقول:

ـ «سنموت لو لم نتحدث.. لن ينقضي الليل على هذه الحال».

فرفع رأسه إليّ وكان حزيناً.

ـ «إنك لا تتكلم إلا عن تلك الحادثة».

رغم كل ما بي استطعت أن أقهقه. رجعت قليلاً إلى الأشياء الميتة. شاهدت وأنا أقطع المقصورة الضيقة جيئة وذهاباً في شبه وعي، قبضة خشنة متصلبة تتحرك في الظلام.. تبحث عن شيء ما.. وعندما تعثر عليه تنبسط.. والأنامل تتحول إلى أذرع أخطبوطية وتحاول أن تلتف حول الفريسة. صرخة يعقبها جلبة. عشرات من الجثث الخامدة تدب فيها الحياة.. تنتصب واقفة على أقدامها. والظلام ينقلب نوراً.. لقد أفلتت اللحظة من الجب ومرقت، ترى متى تأتي اللحظة القادمة؟!!.

قادتني خطوتي التالية إليه. أمسكت بكتفيه اللتين تراءتا بلا رأس، وهززتهما بعصبية.

ـ «كيف تجرأت على ذلك؟.. قل لي كيف تجرأت.؟!».

وعاد الرأس وتوسط كتفيه. ولاحظت أنه يحاول الإفلات بعينيه إلى أي شيء من أجل أن يهرب من شيء واحد. وكان هذا الشيء وجهي الذي غضنته الأشباح المريدة. وكان مضغوطاً بين دفتين قويتين غير مرئيتين.

ـ «ألف مرة قلت لك إنني كنت أحمق ومغفلاً».

تركت كتفيه وتراجعت أما عيوني فلم تكف عن النظر إليه.

التافه.. إنه لا يختلف عن الكثيرين في التمويه وخداع النفس. لقد كان مستعداً لأن يلصق بنفسه تهمة الحمق والغفلة. أما الحقيقة فكانت أقسى وأمر. السنتان اللتان تفصلان بيننا لم يكن فيهما ما يغير هذه الحقيقة. لقد اكتشفتها حين كنت ألاحقه في المقاهي لأجده متلبساً بهذه التفاهة. كم من مرة انتزعت من بين شفاهه الكأس الدموية وقذفت بها إلى الأرض؟!.. كان يطرق وهو يرى الشراب الأحمر يضيع في ذرات

التراب، يسكر الأرض المكلومة بشظايا الكأس المهشمة. أما أوراق اللعب فكانت تتناثر بعصبية.. ووهج القطع المعدنية يعود ليتوارى في جيبه. وهو موزع بين إغراء وهج النقود المتضائلة وإنقاذه من الغواية. دائماً كان يبهره الوميض.. تألق الأشياء كان يسرق شخصيته.. يحيله إلى قطعة من ذلك الوهج الزائف الدنس. وتتابعت الآن الخطوات الطائشة.. وقهقهة أخرى تفضح الحقيقة.

ـ «كلا.. إنك ضعيف ومندفع.. والرسائل كانت تنفث السموم. لقد تشربت بهذه السموم.. كنت ستمسي جريمة.. حتى العاقبة لم تحسب لها حساباً..».

ـ «كفى.. كفى».

ـ «والكلمات المثيرة تفتك بشخصيتك.. تجعلك تتنكر للحقيقة وتثور على المقدسات.. تغدو عدواً لنفسك..».

ـ «قلت لك كفى».

ـ «إنك لا تفرق بين الوهج الحقيقي ووهج الزيف».

ـ «سأقتل نفسي إذا لم تكف».

تناهى إليّ صوت نشيجه فتخاذلت. الآن لم يكن التراجع مجرد محاولة. قربت صرّتي منه وجلست إلى جانبه.

ـ «إنني آسف.. كنت مضطراً.. في هذه الشهور الستة دفنا في أعماقنا أكثر من شيء واحد. والكثير من الأشياء التي لم تمت بعد، ما زال يحتضر بداخلنا. وما يحيط بنا فظ وبشع.. ولا ينبغي أن نستسلم أبداً».

ـ «البرد يشل أفكاري ويقبض على لساني».

ـ «لا بد أن نتكلم. سنضيع لو تمسكت بهذا الصمت. بأي شكل من الأشكال سنضيع».

ـ «كم الساعة يا ترى؟».

ـ «منذ أخذوا ساعاتنا لم يعد ثمة زمن».

ـ «أتعتقد أنهم سيعيدونها لنا؟..».

ـ «قد تكون معطلة في أحد الأدراج أو ربما التفت حول معاصمهم سرعان ما أوليناهم ظهرنا».

قال بسخط شديد:

ـ «الملاعين».

ـ «كلا.. ثمة أمور أهم بكثير».

ـ «لا يهمني غير أن ينقضي الوقت بسرعة».

ـ «أما أنا فأشعر بالجوع».

رمقني بنظرة استغراب واحتجاج. كانت نظرته تجاهر بجنوني. اكتفيت طوال الشهور الماضية بأسوأ أنواع الخبز. وعندما اجتاح جسدي الجفاف اضطررت إلى مشاطرته نقود أخيه التي كانت تتحول إلى طعام. أما هو فكان يلتهم كل شيء. طعام السجن العفن المليء بالسوس، والطعام الذي كان يشتريه بنقود شقيقه.. وحتى الطعام الذي كان يمنّ به علينا بعض النزلاء. الآن تنكفئ الأمور على رأسها وتستحيل نقيضاً.

قال رغماً عنه:

ـ «ما زال لدينا بعض طعام الصباح».

ـ «أفضل الانتظار. فقد يقدمون لنا عشاء، ومهما يكن فلن ننام ببطون خاوية». لأول مرة انتزع ضحكة، أغلب الظن أنها زائفة وقال:

ـ «ذلك، إذا استطعنا النوم في هذا الجحيم البارد».

كانت مؤخرتاي تستحيلان إلى قطع زجاجية وتفقدان الحس. وكان لا بدّ من حركة. استندت براحتي على الأرض وقفزت. أما هو فكان يفضل الاستسلام. راقبته وهو يعود فيحشر رأسه بين ساقيه ويغطيه بذراعيه ثم ينكمش ويرتعد كل ما فيه. ولم أجد رغبة في وضعه أمام نفسه مرة أخرى. فتحاشيت مجابهته بدهشتي من استسلامه المطلق

الذي لم يعرف حداً، واقتربت من جدار المقصورة. كان على الجدار كلمات محفورة بالأظافر تسب الحكومة. وثمة كلمات ثوروية فقدت قابليتها على بث الدفء في الأوصال المقرورة. قرأتها من أجل أن أتخلص من لحظة أخرى. وإذا بصوته يتناهى إليّ:

ـ «إنهم يفتحون الباب.. قد تكون أمنيتك في الطعام قد تحققت».

ارتد اهتمامي إلى تلك الناحية بسرعة فأدركت الصرير المتراجع للباب قبل أن يطبق ثانية. ثم سمعت صوت استدارة المفتاح داخل القفل في دورتين متعاقبتين. ترامى إليّ من ثم، قرع أقدام تهبط السلم بتؤدة. كانت النبرة التي يحدثها وقع الأقدام على السلم خافتة، متباطئة، وخاملة. شيئاً يثير الفضول والأعصاب معاً. لقد كان من السهل جداً أن تثور الأعصاب لأقل حركة في وضع تفتت فيه الاستقرار وتفسخ. اتجهت إلى فتحة المقصورة وحولت اهتمامي يساراً في اتجاه السلم. وكان وقع الأقدام يتوقف ثم يواصل الاقتراب. وأخيراً، ومن خلال الظلام النصفي.. وجدتهما.

ـ «الطعام؟..».

كان وعيي الآن موزعاً بين الرد على سؤاله ومتابعتها، لأن الآخر لم يكن يمشي. مجرد طفل رضيع تحمله على كتفها، واتضحت معالم وجهها وهي تقترب تحت الضوء الميت رويداً رويداً. لاحظت أنها لا تمر بتجربة الاختيار المضنية التي قاسينا منها قبل أن نعثر على مكاننا، ولا تعاني من التخبط. كانت قدماها تقودانها في خط مستقيم إلى المقصورة المقابلة لمقصورتنا.

فكرت في أنها ربما تكون واثقة من نفسها أو يائسة تماماً. وعندما كانت في محاذاة المرحاض انبلجت طلعتها تماماً. شابة جميلة تنتشر على محياها ظلال حزينة. وفضلاً عن ذلك فهي فارعة الطول، ثيابها

أيضاً طويلة، زي أغلب الظن أنه قروي محلي، أسمال شبه نظيفة أو هي نظيفة فعلاً. وعندما اجتازت المرحاض رأيت جديلة غليظة من شعر فاحم كث، تهبط إلى أردافها. خاملة مثلها، لا تكاد تتجاوب مع خطواتها البطيئة، فلا تهتز. وكان على المرء أن يبذل مجهوداً عنيفاً كي يكتشف ذبذباتها التي تشبه إلى حد ما تموجات النسيم الراكد.

ـ «أنظر.. هذا هو الطعام.!».

اقتلع رأسه من بين ساقيه وشرع يتتبعها. تتبعتها معه في برهة لم يعد فيها للبرد أثر. لاحقتها وإياه حتى استقرت على الدكة الإسمنتية في المقصورة المقابلة، وجلست. حينئذ بدا لي أن كل شيء في هذا السرداب غريب ومذهل. كانت تلقي الطفل في حضنها أما الباب المفتوح فلا تعيره اهتماماً. أربكتني تلك التلقائية الخرساء التي كانت تتحكم في تصرفات المرأة الشابة. وللحظة عابرة بدا لي أنها لا تشعر بوجودنا أو تتجاهلنا. كانت كالجرعة الجديدة من الصمت المخيم على هذا المكان. كل شيء فيها كان صامتاً. وكانت تقاطيع وجهها تشير إلى ذروة هذا الصمت. تملكتني رغبة في أن يصرخ رضيعها كي يأتي رد الفعل ويحطم ذلك الصمت. بيد أن الطفل ظل هو الآخر غائباً في سكون مخيف. والتفت إلى قريبي فجأة فتصلب ارتباكي في داخلي وقبع كالعبء الباهظ. أدهشني أن المرأة لم تفلح في تشتبث وجومه فثمة غشاوة من تجهم ما عتمت تنسدل على عينيه. في الماضي كانت صورة المرأة توقد هاتين العينين.. تحيلهما إلى كرتين ملتهبتين برغبة وحشية مخبولة ثم فجأة فقد تلك الصورة كما فقدتها. شهور طويلة ماتت فيها المرأة مع الأشياء برمتها. الآن، تعود في ظروف تكاد غرابتها تكون جنوناً.. حقيقة لا يفصلها عنا غير خطوات ثلاث. حقيقة تجعلها الخلوة والحرية قريبة المنال.. تماماً في متناول اليد. وجن شيء في أعماقي.

ـ «كيف يفعلون هذا؟!! . .».

اصطكت أسنانه وهو يغمغم.

ـ «الملاعين. . الملاعين. .».

لاحظت أنه لا يكف عن ترديد هذه الكلمة. أزعجني حقده عليهم إلى هذا الحد. كنت أتوقع أن يعاملونا بشكل أكثر قسوة ولكنهم لم يفرقوا بيننا وبين أبناء هذا البلد الذين يصلون لسبب ما إلى هذه الأمكنة. هذا رغم أننا من «الجانب الآخر» وموسومون بالكلمة المغضوب عليها «الأعداء». ولم يكن في ضراوة هذه الليلة ما ينال من حقيقة أنهم عاملونا برفق، ربما لصغر سنينا، أو لأن كلمة «العداء» لم يكن تأثيرها على إنسانيتهم تأثيراً حقيقياً. قال لي أحدهم يوماً إنهم لا يكنون للذين هناك أي حقد أو عداء، ثم سألني كما لو كنت نبياً، عن حقيقة مشاعر الطرف الآخر. قلت وأنا أواصل النظر إلى التاج الذهبي المتألق على كتفه: «إنهم لا يكنون لكم إلا المشاعر الطيبة». ثم بعدها غرقت في الالتباس. فكرت طويلاً في مسألة مستعصية على المنطق: «إذا كان الطرفان متفقين حقاً على أن العداء كلمة جوفاء، فعلام إذن تسفك الدماء وتزهق أرواح البشر؟!!».

انتبهت إلى وجود الشخص الثالث فانقشعت الهواجس في أقل مما تستغرقه اللمحة العابرة. كان الشيء المجنون في قرارتي يهتك ضباب الذكريات السخيفة، يسقطني وراء اللحظة التالية دون أن يكف عن المقاومة. ثمة عوائق كان يجب أن تتلاشى من أجل أن يصبح هذا الجنون مطلقاً. ورغم أن البرد أخذ يتفاقم، فقد خيل لي أن قريبي هو أول تلك العوائق. ارتددت قليلاً ثم قذفت وعيي في اتجاهها لقد كنت أريد أن «أعدمه» عن قصد كي تبقى وحدها. واستفزني شيء فيها نضح في جنوني عاصفة من الجبروت. كانت ثدياً مشرعاً. أما أنا فغدوت قطعة من شهوة عرمة طائشة. مزقتني الدوامة. في الداخل كانت تحتدم

بعنف همجي. أما في الخارج فكان الجمود ما فتئ يزيف الأشياء. حاولت أن أعثر على حركة.. حركة من الخارج غير دفقات القلوب وترجيع الأنفاس واعتلاج القرارات. قدرت أن مثل هذه الحركة لا بدّ وأن تكون موجودة هناك عند الثدي. فمن المؤكد أن شفتي الطفل كانتا في حركة انقباض وانبساط مستمرة حول الحلمة التي تطبقان عليها بشراهة. ومن المؤكد أيضاً أن سائلاً أبيض كان ينساب من الحلمة الضائعة في الفم الصغير مع كل انقباضة شفة، ثم يسقط هذا السائل في الجوف الصغير كما يسقط رذاذ المطر. وفجأة أحسست بالانتصار. ثمة قطرات خاثرة طفحت من الفم الصغير، وأحاطت حول خاتم الفم والثدي ثم تكاثفت وهوت على الأرض. لقد وجدت الحركة أخيراً. وكان يمكن لقريبي أن يشهد الآن لو رفع من بصره، حركة أخرى على مقربة منه. وكان بمقدوره لو استعان بقليل من الذكاء أن يميز بين رعشة البرد وهذه الرعشة ولكنه لم يكن موجوداً بالمرة. كنت موقناً من أنه يدفن وجوده إما في ماضٍ وهمي أو في مستقبل خرافي، ليغيب في طيات أسطورة ماردية تكتم إدراكه وتفقده تأثير قوة الأشياء الموجودة. تملكني الغيظ من إدمانه على تعشق البريق المكنون في اللاشيء. الشهور الأخيرة أصلت هذه الداء فيه وجعلته مستعصياً. فجأة تراجعت عن فكرة «إعدامه». إذ لم يعد يهمني أن تكون «المراقبة» قدر ما كان يهمني أن أعيده إلى نفسه. عاودتني الرغبة في أن يتحدث. الآن كنت أريد أن يشاطرني الحديث عنها فالجنون كان عملاقاً.. رعباً مدمراً.. وتشابك كل شيء.. الثدي.. الشهوة.. الأشياء الميتة والمحتضرة.. وكذلك الأشياء التي ولدت حديثاً. والتفت إليه وخيط متين يشدني إليها. وعدت أتساءل:

ـ «كيف يفعلون هذا؟!.. كيف يفعلونه؟..».

فقال بحنق ارتسم في عينيه:

ـ «مثلما تركونا تحت رحمة هذا الانجماد، دون فراش، دون غطاء، دون وقاية..».

ـ «ليس حالنا أسوأ من حالها.. والرضيع المسكين أعجب كيف يقاوم؟».

ـ «لا يهمني الآخرون».

ـ «لا فائدة طالما انغلقت على أنانيتك».

ـ «ماذا تراهم سيفعلون بنا بعد هذه الليلة الفظيعة؟».

دمرني الحنق. حدجته بنظرة محتقرة. لقد كان يخوض في متاهات الزمن ليستكشف خرافة المستقبل. اتضح الآن أنه كان منطوياً على أنانيته وعلى ذلك الشيء الخرافي البعيد. أوشكت أن أصدق أن من العبث استدراجه إلى هذه اللحظة، فحين يفكر الإنسان في مصيره المكنون عبر الزمن، يفقد الأشياء الكائنة. أما أنا فقد كنت مقتنصاً في حبائل اللحظة الكاشفة عن ذاتها. تطاير النظر مرة أخرى إلى تلك الناحية. كان الطفل قد كف عن الرضاعة وتحول إلى أحضانها من جديد. وسكوته الخارق للعرف يثير شكوكاً غامضة. إذ لا يمكن أن يتبارى الأطفال مع الوقت على الصمت بمثل هذه الإرادة العجيبة. تناهت إلى رأسي على حين غرة خواطر مخيفة. هل يكون الطفل مجرد جسد بلا روح؟.. هل يكون دمية.. دمية من المطاط مهمتها التضليل؟.. ولكن الأموات والدمى لا ترضع. الآن كان ثمة حقيقة جديدة تخترق الأفكار المخيفة وتثقبها. الثدي.. كان لا يزال مشرعاً، منتفخاً، بضاً، رغم انتهاء مهمته. رغم أن الطفل قد نام أو مات أو تحول إلى دمية. ولم أفهم من هذه المعميات شيئاً. كل ما أدركته أنني أوشك في هذه اللحظة على أن أغرق في جنوني الداخلي. لقد كان يغلي.. يطفح.. يفيض داخل الرأس فيتوارى تحت لجته العاتية، الصواب.

ـ «من تكون؟!!».

ـ «عاهرة على الأرجح».

ـ «ماذا تفعل العاهرات في أقبية الأمن العام؟!!».

وصمتُ فعادت بي الذكريات من جديد عبر شهور خالية..

.. محكمة..!!.

وقال الصوت الجليل المهيب برزانة:

.. حكمت المحكمة العسكرية في..

ـ «ماذا تراهم سيفعلون بنا؟».

ـ «لا تستبق الأحداث، كل شيء. سيقع في حينه.»..

.. على كل من..

ـ «لا أستطيع.. لقد سئمت كل شيء. أريد أن أعلم ماذا سيصنعون بنا» وضقت به ذرعاً فهتفت:

ـ «أنت تعلم وأنا لا أعلم أكثر مما تعلمه أنت.. فماذا تريد مني؟».

.. بالسجن مدة ستة أشهر ثم تسليمهما إلى الأمن العام..

ـ «بماذا تفكر إذن؟».

ـ «ماذا تصنع العاهرات في سراديب الأمن العام؟!!..».

فصاح بجنون:

ـ «أنت ما زلت تفكر بها».

ـ «لن تستطيع التخلص منها إذا كنت تعيش لحظتك حقاً».

ـ «دع الليلة تمر بسلام».

ـ «إنها حقيقة ونحن أحرار».

ـ «لا.. هي شرك أعدوه لنا لنسقط في أحابيله ولا نخرج من الهوة أبداً».

ـ «إنك مهووس».

ـ «ماذا تريد أن تفعل؟ . . ».
ـ «كل ما أستطيعه كي أحارب الجوع».
ـ «لدينا بقية من طعام الصباح».
ـ «الطعام. . المرأة. كلاهما واحد. وهي لم تعد وهماً يمضغه الخيال. إنها حقيقة. . حقيقة».
ـ «أمنعك من أن ترتكب حماقة».
ـ «لا تستطيع أن تتحدث عن الحماقات بعد أن ألصقتها بنفسك».
ـ «بكل ثمن سأمنعك».

تهاويت إلى جانبه بعد أن عدلت عن جداله. نظرة أخرى أفلتت ناحيتها. الوضع لم يتغير والثدي البارز يثير المزيد من الجنون. حملقت في واجهة الصنم البشري. الصورة الجميلة المتجمدة التي تحرث كل خبايا النفس. لقد كانت لغزاً لا يمكن اقتحامه. في هذه المرة لم يقنعني على التراجع. كل ما في الأمر أنني تحاشيت الدخول في مشادة حقيقية. كنت واثقاً من أن شيئاً ما سيحدث لا محالة. فالدوافع كانت متوفرة بأسرها. وامتزج ألم حاد بالجنون العاصف وأنا أتراجع إلى الأضرحة القديمة والحديثة معاً كي أنتزع منها الحوافز المقنعة. توقفت عند موت الأب. حدث ذلك منذ سنة. كلا بل منذ سنة ونصف. الشهور الستة الأخيرة تسقط عن الحسبان دائماً. ولكن الجرح كان عميقاً ومتقيحاً. لم يكن بي رغبة إلى استعراض التفاصيل. اللون الغامق طغى على التفاصيل وسرى إلى الأحداث التالية سريان النار في الهشيم. يومها كنت كالزق الذي سكبوا ما فيه وتركوه خاوياً فتمسكت به. . بقريبي هذا تمسكت تمسك الغريق بالقشة. كثير من الأمور القائمة المعقدة لم تستطع أن تحول دون صداقتنا. كان لا بدّ من ملء الفراغ ولو بخيوط العناكب. الحديث عنهن كان يلتهم أوقاتنا. وفي الخامسة عشرة أو السادسة عشرة يكون الإنسان في أوج سني المراهقة

أما هو فأكبر مني بسنتين ولذا فقد كان في شؤونهن أكثر واقعية. كان يقتنص الواحدة تلو الأخرى. شهوان بالوراثة. لا يقابلهن إلا في الظلام والخلاء. وما أن يقابل إحداهن حتى ترتفع أنامله إلى صدرها ثم تهبط إلى أسفل بشكل ارتجالي. بعد ذلك حدثني عن الصبية التي اصطفاها وأحبها. يوماً يوماً كانا يتقابلان قبل الفجر. في الرابعة صباحاً على وجه التحديد. وتحت ظلال شجرة اكلبتوس وارفة، كان ينزعها ثيابها ويدفن رأسه بين ثدييها ثم تأتي البقية. حملقت من جديد بالثدي المشرع إلى قلبي كالمدية. خشيت من أن أفقده. وعندما تأكدت من وجوده عدت إلى نبش القبور.

تخيلتها.. تلك التي أحببتها دون أن نتبادل كلمة. ضاعت مع الأشياء بأسرها. تزوجت. طفلة زوجوها من كهل. وتلك أمور تحدث دائماً. المؤلم حقاً أننا لم نتبادل إلا النظرات. كنت ألاحقها بنظراتي ليل نهار. وكانت هي الأخرى لا تبخل بالنظرات. حتى حين كان يتأبطها ذلك العجوز الذي غدا فيما بعد زوجاً لها كانت لا تستطيع زجر لحظها عني. ومع ذلك كان من الصعب تغيير الأوضاع. قالوا لي إنك ما زلت فجاً. مجرد مراهق. ثمرة غير ناضجة في عرفهم على الأقل. والثمار الغير ناضجة تبقى معلقة على الأغصان دون أن تثير الاهتمام.

الآن خطوت خطوة مصيرية فوق الأشلاء. موزعاً بين الثدي والرغبة والألم. أما قريبي فكان يبعث على الغثيان بأنانيته وجبنه ووساوسه السخيفة. حافزاً جديداً من حوافز الجنون الملتهب. لم يكن هنالك أدنى شك في أنه يريد ولكنه يجبن. وهذا الجبن كان يهرب به إلى أشياء لا وجود لها كي ينسج منها الأكفان. يعدها لهذه الأشياء الموجودة التي أصر على أن يحكم عليها بالإعدام. وكان ينبغي أن أواجهه مجدداً بالأشياء الميتة كي يفرق بينها وبين الأشياء الحية. وتثاقلت الأنفاس وتخثرت وسمعت ترديدها الرصاصي يتتابع

كالحشرجة. وأوشكت على حين غرة أن أنتزع من رأسه فكرة «الخنق» التي تملأه بأن أطبق على عنقه في قهرية مطلقة. وتحولت الكلمات إلى قبضة معتوهة. ونفث الجنون نبراته في القهقهة الساخرة. وهبت زوبعة عمياء مزجت في داخلها كل شيء.

ـ «حاول أن تمنعني إن استطعت».

ـ «حاول أن تفعل شيئاً وسترى».

ـ «إنني حر ولن تخيفني تهديداتك».

ـ «لست حراً في جرّي معك إلى التهلكة».

ـ «إذا كان ثمة تهلكة فستكون من نصيبي وحدي».

ـ «حاول إذن.. حاول وسترى».

ـ «لن أحاول بل سأفعل».

فقال بتحد:

ـ «إنك لا تستطيع أن تفعل وإلا لكنت فعلت».

ـ «ليس قبل أن أذكرك بأمور ستصيبك بالرعب والإشمئزاز من نفسك».

ـ «أي أمور؟!!..».

ـ «إنك جبان».

ـ «لا يهمني ذلك ولكني سأمنعك بكل ثمن».

ـ «لا مفر من الإحساس بالجثث الباهظة.. القابعة على النفس والتي تحاول تجاهلها».

ركن رأسه وظل ساهماً.

ـ «لا.. إرفع رأسك ودعني أذكرك».

تجاهل دعوتي، فركلته بقدمي. شيء من العدوان تحفز بداخله، لكن تخاذله منعه من كل حركة.

ـ «ستة شهور لم نر لها شكلاً».

ـ «فكر في المستقبل».

ـ «.. كنا نجترها في مخيلاتنا.. نخلق لها في كل لحظة صورة جديدة..».

ـ «غداً أو بعد غد ستعود الأمور إلى طبيعتها».

ـ «.. في جنون المتضورين الذين يحلمون بشتى صنوف الأطعمة..».

ـ «لهذا لا أريد أن تقع مضاعفات».

ـ «.. كنت أتعمد النوم على ظهري كي أشاهدها في الأحلام».

ـ «أعرف نواياك.. تريد أن نفلت شهوتي من محبسها ولكنني سأصم عنك أذني».

ـ «.. كانت من ذلك النوع الملائكي الذي يهبط فجأة من عالم آخر..».

ـ «كفى.. كفى..».

ـ «من الزهرة أو المريخ أو من كوكب مجهول. لم أكن أتبين طلعتها، بيد أنني كنت أحس بجمالها إحساساً متمكناً».

طأطأ. بدا أكثر شحوباً وانهياراً. كانت إرادته تتحطم ومعارضته تتلاشى.

وتبلعتُ ريقي بصعوبة. الدبابيس كانت تخزني من الداخل. والمرأة الشابة مشرعة الثدي صامتة. لم يكن يهمني أن تنصب كلماتي المسمومة في أذنيها مثلما تنصب في رأس هذا الأحمق وتفعمه.

ـ «كنا نفعل كل ما تقدر الأحلام على ابتداعه. وعندما أمر بيدي على ذلك الموضوع ينقطع الشريط».

سمعته ينفخ. كان يقوم من على صرته ويتجول في المقصورة. لمحته يسترق النظر من المقصورة المقابلة في هلع اللصوص الذين يجربون السطو لأول مرة.

ـ «.. ثم استيقظ مذعوراً. للوهلة الأولى كان يخيل إليّ أنني بلت في سراويلي. ثم حين ألمس الرغوة اللزجة أدرك كل شيء».

توقف واتقدت عيناه. هتف بشيء وشى بسوء الطوية.

ـ «أنت مجرم».

ـ «.. كان ذلك غالباً ما يحدث مرتين في الأسبوع. وكان كالدواء المر الذي يغمر الإنسان برغبة قطف أحشائه خارجاً. ولكن ما حدث بعد ذلك صيره شراباً كالشهد».

شحب لونه أكثر وأكثر. لولا أنه كان خائراً لانطلق إليّ وسد فمي. لم يستطع حتى أن يوجه إليّ المزيد من تهم الإجرام.

ـ «ليلتها كل شيء كان حاداً وغامقاً.. كنت أطوق الجسد وألثم الشفاه. وفجأة هبطت أناملي إلى أسفل. كان يجب أن تغور في الزبدة الهشة. ولكن ما وقع كان فظيعاً ومروعاً..».

أوشكت على التداعي. تماسكت وأنا أشاهد شحوب وجهي على طلعته وارتعاشتي المدومة في سكناته.

ـ «.. شيء كالوتد صدّ كفي وانغرز بين أصابعي. استعدت وعيي بسرعة البرق. انتزعت ذراعيّ وشفتي ونهضت وعندما وعيت الحقيقة جف صوابي».

سقط قريبي ثانية على الأرض. الكلمات كانت تقبض على أنفاسي. كان يجب أن أتحرر منها رغم أنها كانت تفحمه وتصهرني. والصوت كان يرتفع ويضحى دوياً حقيقياً.

ـ «عندها انطلقت كالمجنون في الظلام. لم أع كم من الأجساد النائمة وطأتها بقدمي. كان يخيل إليّ أنني سأجد خلاصي في الحمّام. اغتسلت بلا فائدة. بصقت ألف بصقة ثم تقيأت. ولكن ذلك لم ينقذني من كراهيتي لكل الأشياء. ساعتها احتقرت هذه الأشياء إلى حد الموت. ولأول مرة شدتني إليها الثغرة الكبيرة. ذلك الخرق الذي كان

يفضي من الحمّام إلى الخارج. فكرت في أن أنفذ منه وأهرب. وعندما تأملت العواقب سقطت في أحضان اليأس. كنت أجهل مسالك القرية ولم أكن أملك نقوداً. أيقنت من ثم أنني ضائع تماماً. من الداخل والخارج.. عدت إلى مرقدي وتداعيت. وفي الصباح اكتشفت أنك أحط مما كنت أتصور».

كان يحاول انتزاع الغضب من أشداق التداعي. بدت محاولته نوعاً من العبث. وعندما حاول أن يصك أسنانه استوقفه البرد والانفعال. أخيراً غمغم بنبرة مرتجفة:

ـ «لم أكن أتصور أن تقودك امرأة مومس إلى مثل هذه البركة الطافحة بالقاذورات».

ضحكة ساخرة اختنقت أصداؤها بين الجدران الثلاثة. أما شظاياها فأغلب الظن أنها نفذت إليها عبر الباب المفتوح.

ـ «أرغمتني أنت على ذلك كي أنتشلك من عالم الوهم وأعيدك إلى عالم الحقيقة».

تساءل فجأة:

ـ «وماذا لو استغاثت؟.. لا تنس أنهم فوق هذا السقف».

ـ «استغاثتها لن تكون أعتى من عواء الجوارح المعذبة في الأحشاء».

ـ «لن يقنعني هراؤك فكن عاقلاً وفكر بالمنطق».

ـ «إنني جائع.. قلت لك هذا.. إن كل ما بي يتضور جوعاً. والأبواب المفتوحة توحي بالحرية.. وثمة ما يمكن أن يسد الرمق. وقد ارتكب جريمة لو حاولت أن تجعل نفسك باباً تغلقه في وجهي».

ـ «قلت لك إن الأبواب بأسرها قد تنفرج غداً».

ـ «لا أؤمن بالغد.. إنني أعيش لحظتي. أما أنت فباستطاعتك أن توغل في الأوهام ما شئت».

خطوت خطوتين صيرتاني في فتحة المقصورة. كنت لا أنفك أصوّب نظراتي إليها. بدا لي أن وجومها يصطرع مع طيف ابتسامة، غير أن تصنمها مكث مستعصياً.. أبياً.. وفي منتهى التعنت. تساءلت عن معنى إبقائها هذا الثدي عارياً تحت رحمة البرد وهل أن ذلك جزء من هذا التصنم الطاغي البليد؟ كانت ما تزال شاردة النظرات، رغم هذا أدركت أن شيئاً واحداً فيها على الأقل لم يكن يعاني من التصنم. قدرت أن وعيها قد استوعب الاعتراف المعتوه الذي كان يفرقع ههنا كالرعد قبل لحظة، وربما يلوكه الساعة. ونسيت أشكالنا المخيفة المقززة التي كانت تحرص على الاختفاء عن الأنظار. ومع هذا النسيان انعقدت رغبة أخرى على أتم التغاير. أردت بإلحاح لو تدب الحياة في تلك العيون المتحجرة لتسقط فوقي وتبتلعني. الآن خطوت الخطوة الثالثة التي أخرجتني من المقصورة.

ـ «إلى أين؟..».

ـ «إلى المرحاض».

ثم التفت إليه واستطردت:

ـ «ولا ينبغي لك أن تتعقب خطواتي».

لم يكن بي حاجة لأن أئم المرحاض على الأرجح. تلك كانت على ما يبدو ذريعة أو محاولة للإفلات من هذه الأصفاد الجديدة. غبت بداخله لحظة مطنبة بالتمزق. فكرت بهما معاً. رغم تداعيه تحت ضربات الفؤوس التي تهاوت عليه قبل قليل، خشيت من أن يفتعل مشادة. والمشادة في مثل هذا الجو المشحون بالتوتر ضرب من الجنون يختلف عن هذا الذي يحيق بنا. بيد أن خشيتي تلك لم تكن حائلاً يقف دون اندفاعي في تيار النهر الذي يصب عندها. حاربت العوائق الحقيقية بهمة وإصرار. أما الجنون الكائن المعتلج فقد كان مشكلة ينبغي أن تحظى بحلها. تركت المرحاض وذلك الجنون يقودني إليها. في البدء،

تعمدت أن أعثر على رد فعله، فألفيته منهمكاً بشيء آخر. كان الآن منشغلاً بفتح صرته وبعثرة ما بداخلها من ثياب على الأرض المكشوفة. أما أنا فقد أصبحت في مواجهتها تماماً. بحثت عن طرف الخيط الذي سأبدأ منه، ولكن الكلمات ضاعت بأسرها. وهي كانت ترمقني بنظرات خاطفة لا تلبث أن تتبدد في ضباب الشتات والصمت. وارتبكت. فالأشياء كانت تجاوز قمة الغموض والإبهام وتحيل الجنون إلى وحش مضى يلتهم هذه الأشياء المستعصية بشراسة. وكنت أتآكل بسرعة.. أتضاءل.. والتآكل يحدث من الداخل مثلما يحث التآكل في باطن شجرة تنخر جذعها الديدان. والحواجز الوهمية والحقيقية تتضافر فتصيرني قطعة من حيرة خرساء لا لسان لها. وفجأة يتكدس الاهتمام كله حول الثدي، وبين الصمت الخادع كانت الذراع سترتفع. وقليلاً قليلاً اقتربت الأصابع المهزوزة من ذلك الشيء الأبيض المكور المنفوخ. وقطعت الصمت أنفاس استحالت إلى أصوات خافتة مزعجة. وسقطت اليد فوق ذلك الشيء المسحور.. رجة عنيفة اقتلعت الأحشاء.. تيار لذيذ مسموم.. ضربات مطارق تقوى وتشتد بشكل اضطرادي.. وأخيراً.. كتلة ثلجية تتهاوى داخل الأعماق. لقد تحرك الصنم البشري. بنفس ذلك البطء القاتل ارتفع ذراعها. وصممت على أن لا أنهزم. فإذا كان لا بدّ من أن تخمد هذه الدوامة المسعورة فلتخمدها بنفسها. تأكدت، من أن كل شيء سينتهي بهدوء مثلما بدأ. ولن تحدث الضجة التي كان يمكن أن تحدث في البداية. عما قليل سأشعر بلمسة يدها الباردة وهي تزيح راحتي المبسوطة فوق ثديها. قد تطردها كما يطرد أي شيء متطفل.. ذبابة مثلاً.. وسيحدث ذلك دون أن يخرج الصمت العنيد عن طوره فتتوهم الكائنات بأن شيئاً ما لم يحدث. وفجأة كانت هذه الهواجس تستحيل إلى زجاج يقذف به بعيداً ويتهشم. ووراء الهواجس بزغت شمس من الدهشة الدافئة المبددة

للظلمات. والأسود استحال إلى بياض ناصع. ومن وراء هذه الهواجس أيضاً اكتشفت أن يدي محاصرة. حبيسة بين شيئين متغايري الملامح ولكنهما في النهاية يصنعان معجزة تفتيت الزمن والوجود.

وكان الضغط ينبثق من القمة فتهبط القاعدة تحت راحتي قليلاً ثم تتوقف. شيء حار وشيء بارد. شيء ناعم وشيء خشن. شيء بيضوي وشيء مبسوط. وازددت جنوناً كل ما كان يحدث لم يستطع أن ينزع عن رأسي فكرة تحرير كفي السجينة. وأفلحت بعد مجهود قصير في إطلاق سراح إبهامي من الأسر وكانت الإبهام الآن تعمل بحرية مطلقة. وتتناوب الهبوط والصعود بين الثدي والكف. في حركة ضاغطة متعثرة. وأخيراً كانت تلتقي بإبهامها التي دبت بها الحياة. وكانت هي الأخرى قد شرعت باللعبة. وفي تحد للصمت المتحجر، كانتا تحتكان وتتبارزان في تلقائية ثم تتعانقان.

كان الزمن الآن يمضي خلسة والصقيع يتبدد في هذه الناحية. وكان من المتعذر على المرء أن يحصي اللحظات المنسلة إلى هوة العدم لأنه ذاته كان قد أمسى عدماً. وفجأة يتناهى صرير الباب الثقيل وهو يتحرك. جفل الجنون في آلية وانكمش على ذاته مختبئاً في رقعة ضيقة من خوابي النفس. استعاد الإدراك طاقته وتحول إلى تلك الناحية. وكانت أقدام ثقيلة تدق درجات السلم وهي تقترب. حررت يدي من أسار كفها وثديها وتراجعت بسرعة. ولأول مرة كان الثدي يغيب وراء أسمال الثياب. فكرت وأنا أعود إليه بالحبل الذي انقطع قبل أن يلتف حول عنق الجنون الثائر ويقضي عليه. بيد أن حبلاً آخر كان ما انفك يربطني بها. فرفضت بإلحاح فكرة مصرع الحرية في أوجها. وفكرت أيضاً بالمغامرة اللذيذة التي تلاشت من قبل أن تبدأ. واختلطت الأفكار بوقع الأقدام المقتربة وبمنظر الثياب التي بعثرها قريبي على الدكة الباردة. أما مخالب البرد فقد نشطت من جديد ونشبت في

العظام. وكان قريبي يعمل بهمة وعصبية على تغيير أشكال الثياب المبعثرة على الأرض ثم يتوقف عن ذلك ليقول:

ـ «لا فائدة!».

ـ «ماذا تفعل؟..».

ـ «أشعر بالتعب وأفكر في أن أتمدد قليلاً».

ـ «مهما فعلت فلن تستطيع النوم على هذا القالب من الثلج».

فقال وهو يرجع نصف آهة متذمرة:

ـ «أنت على حق ولا فائدة من خداع النفس».

بعد قليل وعلى صوت الأقدام التي شارفت على الوصول همس:

ـ «كنت جريئاً إلى حد لم أتخيله».

فقلت وأنا أراقب ظهور صاحب الأقدام:

ـ «عرفت أنك لن تنفذ وعيدك».

فألقى نظرة باتجاه الباب وقال:

ـ «الطعام..».

كان ثمة رجل كهل جهم الطلعة يقف في فتحة المقصورة. أما الطعام فكان عبارة عن رغيفين وقطعتي حلوى وقطعتين أخريين من الجبنة البيضاء. ألقى الرجل إلينا بهذا الطعام بجفاء من دون أن يفوه بكلمة، ثم استدار. ترقبت حركته القادمة في الذهاب إليها ولكنه اكتفى بأن ألقى إليها بنظرة احتقار ثم شرع بالعودة. وفي تلك الساعة كانت متطلبات الحياة تبعث فجأة..

تبعته بضع خطوات داخل الدهليز وهتفت:

ـ «قل لهم نحن بحاجة إلى فراش.. ففي مثل هذا البرد والعراء قد يطلع الصباح على الإنسان وهو جثة».

والتفت الكهل. حدقني بنفس النظرة التي صوّبها إلى المقصورة المقابلة ثم من دون أن يجيب، واصل مسيرته في اتجاه السلم،

وانتظرت حتى ابتلعته درجات هذا السلم وعندما تناهى إليّ صوت صرير الباب الحديدي، رجعت فقرفصت بجوار قريبي وأنا أهمس:

ـ «لا أدري أية قوة خارقة تحيل هذا السرداب إلى مستودع للصمت؟!!».

ـ «لم يجب.. أليس كذلك؟».

ـ «لم يجب.. لقد أهانني بسكوته. كلكم يشدكم هنا هذا السكوت. كأن ثمة سحراً في هذا السرداب. إنني أريد أن أسمع رداً من أحد.. لا يهم أن أشتم أو أهان.. إن هذا الصمت المطبق يقتلني.. يقتلني».

قال وهو يمضغ طعامه:

ـ «إنك مدين لهذا الصمت ذاته بنجاتك من يدي وأيديهم».

ـ «ماذا تعني؟».

ـ «لو كانت المرأة قد صرخت لكنت أجهزت عليك في الحال».

شعرت مرة أخرى بالإشمئزاز، هتفت به:

ـ «كنت إذن تنتظر نجاح التجربة.. يا لك من سافل؟!».

ابتلع لقمته التالية وغمغم:

ـ «لن أمانع الآن في مشاطرتك تتمتها».

همست بغيظ:

ـ «إنك جبان».

فقال مشيراً إلى طعامي.

ـ «كل.. لقد كنت جائعاً قبل قليل».

ـ «في هذا الغثيان لا يستطيع الإنسان أن يأكل».

فقال بشيء من التشفي انعكس في بريق عينيه.

ـ «لقد أفسد الرجل عليك متعتك».

ـ «لم يفسدها غيرك ومع ذلك فسأغفر لك».
ـ «كل . . أيشق عليك أن تأكل وهي بدون طعام؟».
ـ «ما أسرع ما نسيت كل شيء؟».
ـ «لقد عملت بنصيحتك أفلا يسرك هذا؟».
ـ «والبرد؟».
ـ «شيء لا مفر منه».
ـ «والغد؟ . .».
ـ «سأعود إلى التفكير فيه بعد أن أشاطرك التجربة».

قمت إلى المرحاض وغسلت يدي. في طريق عودتي شاهدتها تأكل بعض الفاكهة. وأحسست وأنا أواجهه باشتداد وطأة البرد ثانية. كان طعامي ما انفك يقبع على الدكة في إهمال. علمت أنني إنما غسلت يدي كي أتخلص منه وتناولته بسرعة وحين فرغت منه أدركت أنني كنت أعاني من الجوع حقاً. الآن، تلاشى جزء من هذا الجوع. أجزاء أخرى منه كانت ترهف الحس بعيداً عن المعدة. في مناطق متفرقة من الجسد. والعينان ما عتمتا تحلقان حول المرأة. كانت لا تزال تلوك فاكهتها بهدوء بل بسريّة. والتفت إليه:

ـ «سأغفر لك كل شيء من أجل شيء واحد».

فقال محاولاً تمثيل دور الساخر:

ـ «من أجلها؟».
ـ «كلا . .».
ـ «لماذا إذن؟».
ـ «لأنني أفلحت في جذبك من عالم الأوهام إلى عالم الواقع».

أطرق وهو يتنهد. وعندما لم يقل شيئاً بادرته محذراً:

ـ «إياك أن تفقد الخيط ثانية».

قال:

ـ «أريد أن أنفذ إلى التفاؤل».

ـ «سبق وقلت لك مراراً أن لا تستبق الأحداث قبل وقوعها».

عاد إلى بعثرة الثياب على الأرض بشكل جديد. كان يحارب جداراً صلداً بقذفه بالبيض الطازج. ورغم كل شيء فقد وجدت عذري له في عدم استكانته. فجأة وقعت عيناي على رزمة كبيرة من الرسائل. فتكدرت. رغبة عاصفة في اختراق بطون تلك الصفحات المقبورة وراء الظروف واكتشاف دخائلها الخبيثة راودتني ثم انقشعت بسرعة. ضايقني أنه ما زال يحتفظ بها حتى الآن. رغم اقتناعه مؤخراً بمسؤوليتها عن حماقته وغفلته. الرسائل الأولى شاطرته قراءتها والرد عليها. كانت سيلاً دافقاً من العاطفة الجياشة. لقد كان أخوه يعرف كيف يصوغ الكلمات. وكلماته كانت تسيل على الورق مثل تيار مكتسح، مجردة من المنطق والعقل، لا تعترف بغير نفسها. لم يكن من الصعب إذن، أن تستحيل هذه الكلمات إلى جحيم تغذيه تلك العاطفة المشبوبة واتقان الصياغة. أما عامل الدم والوراثة فقد كان أقوى من كل شيء.

جذبني الحبل من عنقي وألقاني عندها. عادت أنظارها فهوت إلى الأرض. خيل إليّ أنها هي التي سحبت الحبل هذه المرة. أين كانت حتى الآن؟.. ولماذا يحدث ذلك؟.. والطعام يأتي في اللحظة الحاسمة. عارضت بإصرار تلك الملابسة التي يطلقون عليها اسم الصدفة. لقد كان ينبغي أن يصل الطعام. ووصوله في اللحظة الغير مناسبة كان برهاناً قاطعاً على أننا لم نكن أحراراً البتة. إنها العبودية في لباس جديد. وهم ما انفكوا يراقبوننا بعيون وهمية. كانوا ينبرون على غير ميعاد كي يخلقوا هذه الصدفة. وفي الحقيقة فهو وحدهم الذين كانوا موجودين. لقد كانوا موجودين في كل جزء من لحظة متعثرة موحشة. واختفاؤهم كان مبرراً لظهورهم من جديد. قاومت الفتور الذي أدرك الهمة إزاء هذه الحقيقة وفي الوقت نفسه حرصت على أن لا

أحقد عليهم. فلو حقدت عليهم لهذا السبب، فسينبغي أن أحقد على الناس كلها. وسمعت قريبي يتساءل:

ـ «هل ستعاود الكرة؟».

فتراجعت إليه.. وإليها.. وإلى كل ما يحيق بنا هنا من أشياء غريبة.

أفهمته بأن من الأفضل أن نتريث حتى نتأكد من أن أحداً لن يداهمنا من جديد. ولكنه ما أن استوعب ذلك حتى صم آذاننا صخب عنيف انبعث من جانب السلم. والباب عاد وانفتح.. والصخب استحال إلى زوبعة. في هذه المرة لم يكن الذي اقتحم علينا وحدتنا وأحلامنا ذلك الكهل الجهم الطلعة. كانوا أربعين شخصاً مرة واحدة. أربعين ثائراً وثائرة كلهم من الشباب. وقفنا نراقبهم مشدوهين وهم يقتحمون السرداب كالسيل العرم. وعلى حين غرة امتلأت الفراغات كلها. والمقصورات المهجورة كانت تعمر بين لحظة.. والطوفان ماضٍ في اندفاعه. حتى مقصورتنا البائسة لم تنجُ من سيل هذا الطوفان. كان أربعة من المتطفلين نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث يغزون علينا المقصورة.. المقصورة المقابلة وحدها، ظلت بمأمن من هذا الغزو بعد أن استحالت إلى زنزانة حقيقية.. لقد تحول الصنم الجميل إلى حياة تدافع عن نفسها. ولأول مرة تحركت مثلما يتحرك أي إنسان تحيق به الأخطار. حركة ممتلئة تقوى على سد الباب المصنوع من القضبان. ثم لا تلبث أن تولي العالم كله ظهرها.

وتداعى الصمت مع الحرية المزعومة والضجيج كان الآن يملأ الآذان. لقد كانوا يتناوبون الحديث عن السياسة والحب ثم يملّون السياسة فيبقى الحب وحده. وبعد قليل تتحد الأنصاف على مرأى من الجميع وكنت أتألم. الآن كنا نهبط إلى الحضيض الحقيقي. أما هم فلم يكونوا يتجاهلونا عن عمد في الأرجح. كل ما في الأمر أنهم كانوا

يفكرون في أنفسهم بشكل لم يتح لهم اكتشافنا. وأغلب الظن أنهم ضحية شعاراتهم التي قذفت بهم إلى هنا. لقد كانوا غارقين في السياسة والحب. لكن الحب أخيراً هو الأصل الذي ينفي الأشياء كلها. أما تلك التي هناك فمن المؤكد أن صلاتها بهذا الحب قد انقطعت بمجرد أن ظهروا. وقد تكون صلاتها بالعالم كله انقطعت أيضاً ولهذا قررت أن تحبس نفسها في زنزانة.

كان قريبي يحدقني الآن بعينيه الكبيرتين. اكتشفت أن تبرمه يبلغ الذروة. لم يكن في استطاعتي مساعدته. ولكنني حاولت أن ألفظ بعض سموم اليأس في نبرات قهقهة منهوكة. خمنت أخيراً أنه لجأ إلى أحضان دائه البشع وأنه كان يفكر بالغد. امتدت قهقهتي المعتوهة إلى ما لا نهاية. يا للغباء! واللحظات البطيئة كانت تتلوى لتجهض المفاجأة وتسخف الأحلام. وتلقي بنا مجدداً في زاوية مهجورة لا يعبأ بها أحد.. وهمست في أذنه أخيراً بكل ما أوتيت من سخرية:

ـ «لقد ضاعت الأحلام الجميلة».

ولكنه تساءل:

ـ «كم الساعة يا ترى؟».

الآن، كان بالإمكان إسعافه بالوقت على الأقل. سألت أحدهم عن مكاننا من هذا الزمن. انتفض. كان يكتشفنا لأول مرة.. حدق في ساعته وغمغم بكلمات لم أصدقها. أما قريبي فقد شحب لونه عندما علم بأن الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف. قال كمن لا زال متعلقاً بوهم الغد:

ـ «حسبت أننا أشرفنا على منتصف الليل».

وبقيت صامتاً فاستطرد:

ـ «لقد كنت على حق. وأخشى ما أخشاه أن لا تنقضي هذه الليلة أبداً».

وانطلق صراخ خافت من الزنزانة المقابلة الوحيدة في هذا السرداب. كان الطفل يبكي لأول مرة. وصورة الجثة والدمية المطاطية قد تلاشت وحل محلها الإنسان. الآن كان من المتعذر رؤية الثدي وهي تولجه فم الطفل كي يكف عن الصراخ، كان الألم وحده هو الملموس الوحيد المطلق في هذه الساعة. لقد كان ينبث من كل ناحية كي يخترق أغوار الذات.. وعندما أغمضت عيني لأتلافاه كانت أشداق البرد مهيأة لاقتناصي. من ثم تناوبني الألم والبرد مثلما تناوب أولئك السياسة والحب. ففتحت الصرة الحقيرة ومضيت أبعثر الثياب على الدكة المتجمدة بنفس الطريقة التي انتهجها قريبي. كنت أعلم بأن المحاولة مجرد حماقة بيد أنني مضيت في ذلك من أجل أن أقتل كل ما يمكن قتله من هذه اللحظات الحشرية المسمومة المجرمة ولكي لا أفلت إلى ذلك العالم.. عالم قريبي السحري البعيد.

الفصل الثاني

نحن والزمن ضدان، والزمن يأكلنا، ونحن نأكل الزمن. . وكلانا يفترس الآخر. . وكلانا يمضي. . وكلانا خلف كلينا. . لا نتوقف. . لا يتوقف هذا الوقت، حتى حين نتوهم في لحظة ضياع أو حرج أو حمق، أن اللحظات قد ضلت الدرب، أو سقطت في قاع ثلجي، يتجمد فيه كل شيء ويموت.

وانغلقت في أعقابنا بوابات حديد سبع حتى بلغنا الردهة. سبعة أقفال جبارة، ومع انغلاقة كل قفل يكتسب رونق حياتنا الشاحب طبقة زعفرانية جديدة، والظلام يصاب ببريق آخر أسود لمّاع.

كنا الآن نضيع وننصهر في عشرات أناس غسلوا أيديهم بالسائل البشري الأحمر، فأودعت حياتهم هذه العلبة المختوم عليها بفظاظة، أقفال سبعة. قتلة. ينحدرون إلى الجريمة بأسباب متينة وجذور. وهي تتلبس السحنات والأشكال فتفيض من أعينهم والسكنات، وتنز من الأجساد العارية إلا مما يستر العورة. ويحيطون بنا فنفرغ حتى مما أبقته لنا الأبواب المغلقة السبعة من فضلات حياة. يبقى فينا شيئان نقيضان مختلفان. . اليأس. . والرعب.

ولمحنا بوضوح أنصال خناجر تشرئب من تحت الأبسطة القذرة، تلمع كوهج الحر الصيفي في بلد قاري، ظمأى مثله لكنها بخلافه لا يرويها الماء، لا ترضى إلا بالدم. كان ثمة غلالة سميكة من دخان

ينعقد إلى ظلام في أرجاء ظلام، يعمي أعيننا وروائح حريفة غريبة تطعن الرئة وتخنقنا، تعبث بحواس لم تعتد رائحة المخدر، بكثير من حب التعذيب العفوي، يفقدنا كل هوية.

كابوس، يعقب كابوساً. أبداً لا جدوى في الرغبة العاجزة، في الارتماء بأحضان شيء ما غير الكابوس. وتتعطل الأفكار ذاهلة حتى يتقدم رجل بدين ربعة، حليق الرأس وبدنه العاري موسوم كله بالوشم. قلوب مثقوبة بأسهم، وأسُود، وحيوانات أسطورية، وأبطال يتصارعون. عفريت القمقم. مزهق أربعة أرواح وأعتى من في «الثلّة»، ولذا دانت الردهة جميعها بالولاء له.

وتقدم. صمت الكل. إلا هو. راح يجري معنا تحقيقه الخاص بمهارة المحققين المحترفين. وأثر كل سؤال أفحمنا. أفنفضي للعفريت هذا باعترافنا المذهل؟!.. أنقول له: نحن من الطرف الآخر جئنا؟!.. وهنا عطش للجريمة محتبس وينقب عن مخرج. وسيجد هذا المخرج في أجسادنا نحن، وسيثقبها بالأنصال البراقة الرانية بشوق وبلهفة من تحت الأمتعة القذرة. وتلكأنا. لكن اليأس كان أقوى من نزعتنا الفطرية.. والخوف كذلك.. وانهار الاعتراف كأنقاض تتساقط عن سقف خرب متداع. الآن، أصبحنا هدفاً لعيون مفتوحة عن آخرها ولأفواه فاغرة كالهوة. غارت بعروقنا النظرات وامتصت ما يجري فيها. مع ذلك، فـ (الرئيس) الذي أزهق أربعة أرواح ظل صامتاً ورزيناً. وكان يفكر فيما يبدو، طويلاً ظل يفكر كأي بشر عادي، ثم غمغم:

ـ «مساكين... مساكين!».

قال هذا ثم اتقدت عيناه. فجّ الحصار من حولنا فتراجع الجميع.. تبختر، ثم في وسط الردهة توقفت قدماه. أجال أنظاره الرهيبة بين حشد مطأطئ، ثم وهو يشير إلينا ارتفع صوته، ينذر ويحذر:

ـ «هذان (الدرويشان) تحت حمايتي. . وويل لمن يجرؤ على المس بهما».

لم يكن في ردهة السجناء هذه أمتعة تابعة للملكية العامة. كان كل شيء فيها شخصياً حتى الثياب. وكان هذا يخلق تفاوتاً واضحاً بين محتويات الردهة. كان ثمة أبسطة وأفرشة قشية، وطنافس. وكان فراش (الرئيس) فخماً ونظيفاً، وشلتته الحريرية لا بدّ محشوة بريش النعام، وكان هذا، إضافة إلى المخدرات المهربة والطعام الفاخر، هو ما تبقى لديه من متع الدنيا داخل هذا القمقم. وأمر الرجل، فامتدت الحال خوان مطنب بصنوف مأكولات شتى، ثم أمر، فأخلى لنا فراشان: وأمر ثالثة، فانهالت الحفاوة علينا من كل جوانب الردهة. بيد أن الحياة كانت مسلوخة. . نائية عنا. وحتى قبل أن تطبق خلفنا الأقفال السبعة، كان الخيط الذي يربطنا بالدنيا قد دق ووهى، الآن انخرم هذا الخيط تماماً. وبداخلنا ذبلت الحشاشة ثم جفت. كنا تحولنا إلى أشياء تتحكم فيها التلقائية. . وإلى أشياء فارغة يملؤها الرعب. . وإلى أشياء مستعبدة تابعة للغير. . أشياء منسلخة لا منتمية.

على أن رغبة ما، كانت رغم الانسلاخ والاضمحلال، ما عتمت تنقّب في الظلام. رغبة حادة وجامحة. وكان أيضاً ثمة منفذ يبدو بعيداً جداً. وقريبي يصر على الاتصال بشقيقه كي ينزاح بعض الضباب. وكان شقيقه هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون همزة الوصل بيننا، وبين الذين هناك، ولكي تنزاح كذلك علامة الاستفهام الحائرة المكتنفة لكيانهم مذ فقدونا بلا سابق إنذار. وكان يمكننا أن نتصل بشقيقه منذ البدء، لولا أن نقودنا أخذت منا منذ هذا البدء، ثم كان يمكننا أن نفعل ذلك بعد أن نفحنا رجل ثري أوقف ساعة في المحكمة العسكرية، كنزاً صغيراً لم نكن نتوقعه، لولا فرحتنا المندفعة بذلك الكنز، وتبديدنا إياه أكلاً وشرباً، في غمضة عين، لنرد لأنفسنا بعضاً

من اعتبار الإنسان والإحساس بوجوده فينا. بعدئذٍ عدنا وتحولنا كلاباً جائعة تحرك ذيولها استدراراً لفضلات الآخرين. الآن، لم يساورنا حياء ولا حرج، ساعة تولى رئيس الردهة جمع الصدقات لنا من بين السجناء. وعندما احتوينا الصدقات، احتوتنا فرحة صغيرة، ولأول مرة فهمنا نفسية المتسولين الذين يضطرون إلى مد أيديهم للناس. وكتب قريبي أول رسالة، ثم بعد يومين فقط تناهى إلينا صوت خشن جهوري ينادي ببعض الأسماء. وسمعنا اسمينا فيما ناداه، فقال السجناء لنا: إننا سننقل إلى مكان بعيد.. وكان من صافحنا منهم وهنأنا، وهو يصف المكان الذي سننقل إليه بالجنة، لا يحظى بها إلا المحظوظون.

ونقلنا مع قلة سجناء إلى عربة كبيرة سوداء، مغلقة النوافذ ولا تختلف عن عربة نقل الموتى. وانطلقت بنا العربة شمالاً.. وظلت تمضي. صار الشمال جنوباً والعربة تمضي.. وخلفنا وراءنا كل شمال الدنيا حتى وصلنا القرية. كانت قرية منسية منعزلة لا تخطر في بال أحد. حتى اسمها أغفل وسقط عن خارطة البلد هذا. قرية في آخر العالم. تماماً في أقصاه. ولم يكن يهمنا ذلك. فالأبواب المقفلة السبعة أضحت ذكرى من الماضي، ووراؤنا المدن والقرى برمتها إلا هذه القرية التي سوف تلتهم ما كان يسمى بمستقبلنا، في الوقت الغابر. هنا، ليس إلا مخفر شرطة، في داخله قبو رطب لا يدخله نور الشمس. والبنيان قديم متداع يتساند على أعمدة متعبة هرمة محنية الظهر، موشكة على أن تنهار وتلقي معها هذا العبء الباهظ من البنيان. قبر هائل لكنه مؤقت ترتمي في أحشائه الأجساد البشرية فترة قصيرة ثم تعود ثانية إلى أحضان حياة الدنيا. نفق صغير يضيع القطار بداخله برهة يخرج من بعدها للنور. هكذا كان الآخرون القادمون إلى هذا القبر المترهل. أيام. فقط أيام. لكننا نحن، كنا حراس القبر، نرى الداخلين والخارجين منه.. ونراقب، بل نمضي في غيبوبة كسبات أهل الكهف.

ويستيقظ أصحاب الكهف فجأة. كلا. عقارب الزمن أبداً لن تتوقف عن السعي. وتلاشت أيضاً ليلة السرداب الجحيمية. قبل ثلاثة أيام عدنا من آخر العالم. واستغرقت عودتنا منه أسبوعاً. كنا في كل يوم ببلدة أخرى.. رحلة ترانزيت. تسليم بضاعة من نقطة إلى نقطة. قبل يومين تجولوا بنا في أرجاء المدينة الكبيرة المترامية الأطراف. هذه، اللؤلؤة المتناثر حولها الصدف والخرز الزائف. أرونا كل ما يمكن أن يشاهد فيها قبل أن ينزلونا السرداب. حتى حي البغاء الكبير المشهور شاهدناه عن بعد، ساعة كان الضابط المرافق لنا يختفي داخل بيت من بيوته، ويعوضنا مقابل انتظارنا إياه في سيارة الشرطة، بكأسين من البوظة. ثم يستيقظ أهل الكهف ثانية على الصوت الجهوري الكهل العابس المتجهم:

ـ «قوما. يطلبونكما على وجه السرعة».

ويتساءل قريبي جزعاً:

ـ «ماذا يريدون؟!.. ماذا يريدون؟!».

السؤال ذاته يستيقظ معه. لقد نام. رغم كل شيء نام.. ونمت معه. لا أدري كيف النوم جاء. لكنه جاء كالرحمة الضاربة بالزمن المجرم وبالشياطين والأشباح. وتلاشى الأشباح، وسرق الزمن الجلبة. لم يبق غير جسد كخوط البان مسجى على دكة مقابل دكتنا، وهو يعانق طفلاً رضيعاً، كان يبدو ليلة الأمس دمية. وعلمت أنها ضاعت.. إلى الأبد ضاعت.

وتردد سؤال قريبي كصدى يضرب جنبات رأسي:

ـ «ماذا سيفعلون بنا؟!.. ماذا سيفعلون؟!».

وكنت أدرك أن كل ما في داخل هذا الرأس قد جف. أثرت هناك جمجمة حسب. قوقعة فارغة، تُرجّع أصداء التساؤلات المنقبة عن المجهول، كما هي، وبغير جواب. في آلية عادت قطع الثياب المبعثرة

الباردة وتكدست داخل الصرتين. الصرتان انعقدتا على الأكتاف من جديد، عادت مرة أخرى صورة التسول والجريمة، بيد أن سيماء الجريمة كان الطاغي في الأرجح. ففوق السلالم لم نلبث أن وجدنا نفسينا في غرفة المجرمين، الغرفة مفعمة بأحدث وسائل التحقيق وبآلات التصوير. وعلى الجدران ألف صورة معلقة لألف مجرم هارب أو مطلوب. أجلسونا على كرسي اللعنة تباعاً، إلا أن قريبي لم يكرر تساؤلاته.. وكان يعاني من هذه الظاهرة ذات الخاصية المتزلجة التي تبعده دائماً إلى ما وراء ما أجازته له الطبيعة. وكنت اتساءل بدوري عن «الأمن» الخاص، المهان في أقبية الأمن العام وسراديبه، واستوديوهات تصويره. هذا الأمن الخاص المتلاشي متبددة معه الحرية الإنسانية دون جريرة، الحرية التي في لحظة عابرة من وهم، كانت تبدو كالطود الراسخ المتحطمة عند منحدراته أعتى زوابع الدنيا. وهمست وأنا فوق الكرسي:

ـ «ماذا تفعلون بنا؟!».

وجاء الرد مستهيناً غير مبال:

ـ «لا شيء.. مجرد روتين.. والصور ستقبر داخل أرشيف.. والأرشيف في خزانة مقفلة. مجرد روتين».

ـ «إن كان الأمر كذلك، فلماذا هذا العناء كله؟!».

وخفت الرد في ثنايا الوميض المنطلق بغتة. من الأمام، ومن فوق، ومن تحت، ومن اليسار ومن اليمين. وأصبحنا في لحظة صوراً في جوف آلة. صوراً يلصقون بها الجريمة رغم ما تحمله من براءة. وبطبعات الأصابع اكتملت الوصمة، وتأطرت الصور بإبريز من عار. إلا أن قريبي لا يلبث أن يتساءل:

ـ «ماذا سيفعلون بنا؟!»:

هذه المرة كنت مضطراً إلى ابتلاع ضحكي من حمقه.. أفلم يدرك

أنهم قد فعلوا وانتهى الأمر؟!.. ها قد أدلونا في البئر الطافحة بالقاذورات.. وبالحبر الأسود، غمسونا به ثم أخرجونا مبتلين بالوصمة. ولم يكن هذا يهم قريبي، فهو ماضٍ في مطاردة الذبابة اللائحة في الأفق البعيد، وخلال ذلك تتبلور حياة الإنسان على شكل لا يحلم به. وتستفيق الأشياء الميتة على كابوس آخر رهيب. ولا يشعر قريبي بأننا أمسينا مجرد مجرمين رغم أنف الحقائق.

ـ «انتهى كل شيء. وفي غضون ساعتين ستكونان في الجانب الآخر».

نظرت إليه، فوجدته ينظر إليّ. مكثنا صامتين، فالكلام فقد جدواه، وكان يمكن أن يلعلع اللسان بكلمات طافية على سطح الشعور كالرغوة أو كالفقاعات المنتفخة بالهواء. بيد أن الأفكار كانت تنبش بين القمامات المتراكمة فوق إحساساتنا بأظافر دجاجة. الحقائق كانت ضائعة، وقريبي يبدو مثلها في الضياع، وأنا تعتريني قرصة غامضة في الأحشاء منبثقة عن مشاعر مختلطة طغى عليها التوتر. ثم كان علينا أن نتقمص الانتظار مرة أخرى. هذه المسافة من الوقت المسماة بالساعتين والتي ساعة انقضائها سنكون نحن مقذوفين نحو الحرية مرة أخرى، ونحو الرتابة، مع عبء نصف عام محتوياته لا أكثر من أشلاء بعابع، وآثار أحلام بشعة مرتسمة كبقعة سوداء على قلب الحياة، وهو يطارد السراب ما عتم ويدركه ملل الانتظار فينضي هذا الانتظار عنه كالثوب ويغمغم:

ـ «متى..».

ثم لا يلبث أن يهمس:

ـ «وأخيراً..».

انقضت الساعتان رغم كل شيء. ونحن ما زلنا في مقر «الأمن العام» بانتظار السيارة. كان قريبي يبرم.. يضيق.. تبدو عصبيته في

خطواته العشوائية وهو يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً دون هوادة. . ويتساءل في الوقت نفسه:

ـ «متى تأتي السيارة؟!».

وكان وضعه هذا يزيدني توتراً. حاولت الاحتذاء به ومجاراته في النفاذ إلى ما وراء الأحداث الكائنة، إلا أنني لم أفلح إلا في أن أرسم له مستقبله هو. لا شك، سيعود إلى الكأس الدموية والقمار وتصيد الجنس الآخر، ولن تتخلى عنه غواية الوهج الكاذب، رغم ما مر به. وسيمارس، كما يفعل الآن، لعبة الفرار من الواقع والإرتماء في أحضان الوهم. ودهمني سؤال مفاجئ:

ـ «هل سيكون بالإمكان، رغم كل ما حدث، أن نبقى صديقين حميمين كما كنا ذات يوم؟!». .

وعندئذٍ قال:

ـ «أهم ما يهمني الآن، أن التقي بأهلي بعد هذا الفراق الطويل».

التمعت قدامي صورة حادة لامرأة بائسة ترتدي السواد. إلا الوجه فقد كان باهتاً، والثياب مخضرمة ومهلهلة. في ذلك اليوم كان ينبغي أن تنزع عنها هذه الثياب. . في ذلك اليوم كذلك، توقف الزمن وما زال. وانقطع ذلك اليوم من قبل أن يبدأ. ونشب كالخنجر في أعماق المادة الرخوة التي جفت وراء صدفة جمجمتي المعصورة. ومكثت صورة المرأة، والوجوه التي تحمل قوة تفتيت الصخر. ووجفت واصطفقت الأحشاء. لا. لم احتلب الدمع من عيني قبل أوانه. الأحمق. . الأناني. . الكلب!. . هو لا تبرحه الدمامل، ولا توجعه كلوم حقيقية، وها هو كالطفل الكبير الذي يطير فرحاً ساعة يعيدونه إلى أحضان أمه بعد غياب. . وعلى جدران الغرفة كان الوهج الكاذب يتراقص. وهو مبتلع بشراراته وبصيصه، غارق بتفاهات. مبعثر بين أرجاء ذبذبات مستمدة من لا شيء. وهذا اللاشيء هو كل ما فيه. رجل من مطاط

منفوخ بالريح أو بدخان، وكنت مشدوداً في دخان سيجارته المنفوث من فمه في عمود لولبي، وبشبه وعي أتخيل تلك الريح الممتلئ بها في انسرابها من أعماقه مع هذا الخيط العمودي من الدخان. كان يدخن وحده. فمحاولات إغرائي بالتدخين باءت بالفشل. أحياناً، ولكي أتخلص من إلحاحه المستمر، كنت ارتشف نفس دخان واحد. . أو أقتل ربع سيجارة، فأحس بأني لا أقتل جماداً عاجزاً عن أن يدافع عن نفسه، فحتى الجماد هذا ينتقم. وكنت أعجب كيف يقتل هو السيجارة تلو السيجارة ولا يشعر بانتقامها الفظ. وأسائله بدهشة:

ـ «ألا تشعر بالغثيان؟!».

فيجيب غير مكترث:

ـ «غثيان السيجارة، لا يشعر به إلا المبتدئون».

فأقول:

ـ «والمرارة المتخلفة في الفم، هذه النكهة الكريهة؟!».

فيجيب بإعجاب:

ـ «نكهة لذيذة تنفذ للأعصاب وتخمدها».

الآن كان يحرك أعصابي. وضعفت هنيهة ففكرت في أن أطلب منه سيجارة، كي اختبر نجاعتها في إخماد ثورة الأعصاب. إلا أني تذكرت كأسه الدموية وقماره وتفاهاته فعدلت. هو لا شك لا يتبع إلا الأساليب المؤدية حتماً لسراب لا كنه له. وجاءت السيارة وأنا ما زلت أفكر بالسراب. أما هو فقال:

ـ «لن نكون هناك قبل الظهر».

جلست بجواره على المقعد الخلفي، بينما احتل المقعد الأمامي ضابطان من ضباط الأمن العام. كانت العربة، جيب مكشوفة، وتعري المشاهد أمامنا. وكانت الشمس ساطعة لأول مرة وتلقي إلينا بنظرتها من فوق العمارات الشامخة، لكنها كما خيِّل لي، كانت ترمقنا ببعض

الفتور أو الاستنكار. جفوة ستة شهور كانت في تلك النظرة، وكان ينبغي لنا أن نتعارف من جديد ونتآلف. أجل، فبالرغم من ليلة السرداب الصقيعية، فقد عجزت عن استنشاق ذلك الحنان الدافئ المنطلق عن قرص الشمس كالقبلة المطبوعة على وجوه الكائنات بأسرها. في هذه اللحظة، بدا وكأن هذه الشمس تبصق نورها كله وحرارتها إلى داخل فوهة البندقية المتوسطة للضابطين الجالسين في صدر السيارة والمصوبة بشكل اعتباطي نحو السماء!.. اكتشفت من ثم، أن البندقية لم تكن إلا بندقية صيد، فغمرتني خاطرة عابرة، بضحكة بلهاء كتمتها في صدري، وأنا أهمس في أذنه:

ـ «هل تذكر؟!..».

فتساءل بنظرة تحمل دلالة النسيان، بيد أنني تغاضيت عن نظرته كي لا أضطر إلى تذكيره مرة أخرى. إذ شعرت لسبب غير معلوم أن تذكيره الآن قد يجر إلى مضاعفات لم أكن معنياً بها. لكنه أصر على أن يعرف، فأومأت برأسي إلى البندقية، فازداد حيرة وتعقيداً، وعندئذٍ قلت بصوت خفيض:

ـ «البحر والدركي.. والبندقية».

وطأطأ. وأفحم. بينما ثرثرت داخل رأسي الذكريات. كان ذلك في أول الرحلة. جلسنا مع الدركي على صخرة عند ساحل البحر، والتهمنا الشطائر التي اشتراها الدركي لنا. وكان ثمة نبع متصل بماء البحر. وكان الدركي مخلوباً بحكمة الطبيعة. كان الماء العذب والماء الأجاج يلتقيان، لكن العذب يبقى عذباً والأجاج أجاجاً. وبدا سر الطبيعة هذا موغلاً في الإبهام، بيد أن الغرابة لم تلبث أن انقشعت حين ابتعد الدركي قليلاً ليشرب من ماء النبع. وكانت بندقيته طريحة بجانبنا على الرمال. وعلى حين غرة، شاهدت يد قريبي تزحف نحو البندقية.

نظرت إلى وجهه. كانت أشداقه ما انفكت تلوك طعام الدركي وعيناه مزروعتين في بندقيته. وسألته:

ـ «ماذا تفعل؟!».

فهمس:

ـ «هي فرصتنا. سأقتل الدركي وستتمكن من الفرار».

وفي برهة، كان منطرحاً مع البندقية على الرمل. لكمتي كانت مجنونة.. لم يكن المنطق وقتئذ. من حسن الطالع أن ما خطر لي في حينه كان إنسانياً بحتاً. أما المنطق، فلو فكرت به، لكنت إما قاتلاً أو مقتولاً.

وغارت الخاطرة في جوف طرير حاد أعقبه تأرجح. انثنينا إلى الأمام ثم ارتددنا إلى الوراء في تلقائية متناهية السرعة اقتلعت أحشاءنا. وكان ذلك مؤشر الانطلاق. الانتقال الفجائي إلى سرعة شبه جنونية. وجفلت في حين كان وجه قريبي يشي بتحرره من الضيق. والضابطان يمرحان بسعادة. لا شك في أن هذه كانت فرصتهما للاستمتاع على حسابنا بنزهة غير متوقعة وشيقة. ولا شك أيضاً في أنهما ليسا مثلنا يعانيان من ظلال الماضي القاتم، وظلام المجهول الآتي المبهم. وانطلق صوت قائد السيارة يتوجه إلينا بانفتاح عجيب:

ـ «سنتجول في رحاب المدينة قليلاً قبل أن تغادرانها.. إلى الأبد!».

لم يرق لي هذا الانفتاح العجيب. وكلماته الأخيرة ألقت في نفسي إحساساً بالتشاؤم. إذ إن كلمته الأخيرة «إلى الأبد»، كانت تعني لي أشياء غير مستحبة.. فضلاً عن اليأس والفناء. وكان التفاؤل يغيب نفسه مع المستقبل الذي تحاشيت التفكير فيه، بعناد. ولو كنت تفاءلت، فربما كانت كلماته ستفسر على شكل آخر.. وكان هذا

الاحتمال في الواقع مجرد فرض خاطئ ناتج عن تلمس الدرب في ديجور الألغاز.. إلى الأبد.. لماذا؟!.. ولماذا أيضاً يستبق الأحداث مثل قريبي تماماً؟!.. ولماذا يرى كل منهما المستقبل في لون مصطبغ بهذا الرأي الشخصي البحت؟!.. وانقطعت الأفكار إذ شدتني إليها مناظر جميلة كانت تترى على جانبي الطريق. وبخلاف الأماكن التي أتيحت رؤيتها لنا في هذه المدينة، فإن الشارع هذا كان فسيحاً ونظيفاً. وتعلقت عيناي بالقصور المنتضدة على طرفيه، واقتنصت هنا وهناك أشكالاً لسيدات وسيمات وأنيقات، جعلتها سرعة السيارة أشكالاً غير متكاملة. إلا أني لم أكن بحاجة إلى تفكير طويل لأخمن أننا نتجول في حي من الأحياء الأرستقراطية. وتصاعد الفضول فأردت أن أعلم في أي أماكن المدينة نحن، وعندما سألت الضابط عن ذلك قال:

- «ليس المهم اسم الشارع، ولكن المهم أن رابطة دموية تصل بينكما وبين سكان هذه المنطقة».

وخفف من سرعة العربة مشيراً إلى إحدى السيدات الأنيقات، كانت تتهادى برزانة على رصيف مشجر، واستطرد:

- «هل ترى هذه السيدة؟!».

- «ما شأنها؟».

- «هي منهن».

- «ماذا يعني ذلك؟!».

فأطلق ضحكة خفيفة ثم صمت. وكان الضابط الآخر ينتهره بكلمات لم أتبينها. فعاد ينظر أمامه وعادت السيارة وانطلقت كالشهب. وارتبكت بعض الشيء، ثم خيل لي أني قد فهمت.

وعدت إلى قريبي. كانت عيناه ملقيتين في الشارع، مبحلقتين. همست في أذنه بسخرية مريرة:

ـ «هل سمعت؟!. . أننا بين أهلنا. هكذا قال قائد السيارة».

انتفض. سحبته من عالمه الآخر المسحور. بعد جهد قال:

ـ «هراء. سيمضي الظهر قبل أن نكون هناك».

لم أشأ الرد عليه. كان من المؤكد أن تعلقه بفكرة الوصول إلى «هناك» تعاني من نفس ذلك الجنون الذي انتابني الليلة الماضية في السرداب المظلم. مستلهماً ثورته من المقصورة المقابلة. وانتهاء ذلك وانضمامه إلى الشهور القاتلة المتصرمة يعني أننا قد نصل في النهاية. ودفعتني الفكرة في قهرية مشوبة ببعض الهلع إلى أحداث سوف تقع. لقد كانوا يلقونني وراء هذه الأحداث. إلى مفاجآت أكرهها. . إلى المستقبل الذي أبداً ينطوي على هذه المفاجآت. ومن نكد الطالع أنها دائماً كانت تعسة مفجعة. الآن كنا نعيش ذيول المفاجآت المفجعة هذه. والزمن يتبرأ منا. بلا جذور ولا أغصان، زرعة مقتلعة من تربتها منزوعة عنها كل عوامل الانتماء، ومشحونة في سيارة. وكان السؤال الآن دقيقاً وخطيراً. إذ هل يمكن أن تعيش الشجرة لو زرعت ثانية في الأرض؟! وأشعرتني المناظر المتغيرة من حولي بأننا نقترب من نهاية الرحلة. ها قد غابت المدينة وظهرت بساتين الموز والتفاح. يعدو اللون الأخضر. يمرق دون هوادة. والطريق والزمن وراءنا وأمامنا. ونحن في الوسط تماماً. أبداً سنظل منغرزين في أحشاء الزمن والطريق، ويقبع الذين تخلصوا من هذا «الوسط»، في أجواف حفر مهال عليها تراب ورمال وحصى.

ثم ساعة من حرق هذا الزمن والطريق والبنزين والأفكار والأعصاب. وتختفي البساتين مع الماضي ويفتضح الحاضر على شكل جبال ملونة عن يسارنا تنفخ في وجوهنا أنفاساً باردة عذبة، وعلى اليمين يبدأ البحر مع الأفق. . يتعانقان أو يتزاوجان، ويذكرانني بالالتصاق، وتلوح من بعيد حصاة صفراء ربما قذفها البحر إلى مسافة

فراسخ فاستقرت على حافة الشارع المعبد، وشرعت تنمو حتى تصبح عمارة قائمة وحدها في الخلاء، وعند هذه العمارة الصفراء تتوقف السيارة في حركة مفاجئة وعنيفة. وقال بجزع:

ـ «لماذا يتوقفون؟!».

فأقول:

ـ «لن يقتلوننا على أي حال».

وكنت أنا الذي وضع فكرة القتل في رأسه، فانتفض وهمس:

ـ «ومن يضمن ذلك؟!».

ـ «المنطق».

وفي الواقع لم يكن ثمة منطق في كل شيء. على أنني استخدمت هذه الكلمة كي أختصر الطريق إلى تبديد مخاوفه، فلو لم أفعل، لتوجب عليّ أن أدخل معه في نقاش طويل حتى أصل إلى النتيجة ذاتها. بيد أنه ما لبث أن طرح السؤال على شكل آخر:

ـ «لماذا، إذن، يتوقفون؟!».

ورنوت إلى بعيد. مرتمياً في أحضان محاولة غير مجدية لسبر أغوار جمال الطبيعة، المكنون في عملية اندماج المرتفعات بالسهول وتناسق الصخور والرمال وفي انسجام الألوان المؤطرة بزرقتي البحر والأفق المتباعدتين. وفي نفخة مسكينة تلاشى كل هذا. لقد كنا، رغم أننا جزء من الطبيعة، عالمين مختلفين. وتذكرت النبع العذب المتصل بماء البحر المالح، من دون أن يصيب أحدهما الآخر بعدواه. وقلت:

ـ «لا تنس أنهما في نزهة».

فتخلص من بعض ضيقه في نفخة طويلة وأردف:

ـ «متى تنتهي المهزلة.. متى؟!».

كان الضابطان قد ترجلا، ومضيا يحدقان في الطبيعة، في نظرة بدا وكأنها تمتص رحيق زهرة تراءت لكل منا، قريبي وأنا، ولأسباب

مختلفة، تفلة وسامة. وعادا بعد قليل، وقال الذي كان يسوق السيارة:

ـ «انزلا».

ـ «إلى أين؟».

فقال:

ـ «إنها الظهيرة، وستتناول آخر وجبة غداء معاً».

وأكمل الآخر:

ـ «لا بدّ من أن تحملا لنا بعض الذكريات الطيبة».

نزلنا. والذكريات الطيبة كانت تختلط بالذكريات المقيتة. الالتباس يعن مجدداً كألم الضرس. يعلو ويطغى على وضوح الأشياء، والإنسان هنا يحاول أن يتقمص الطيبة في أغلب الأحيان، بيد أن الطيبة كانت حشرة محومة في الخارج. والقانون كالمبيدات الحشرية، قتلنا قبل أن يقتل الحشرة، من ثم كانت هذه الحشرة تحط على أجساد ميتة مفتقرة للحس. دخلنا في أعقابهم إلى البناية الصفراء. كان هناك ضباط لم نرهم من قبل. اضطررنا إلى أن نمد يدنا مراراً لنصافح أيديهم الممدودة إلينا. . لقد كان يبدو وكأنهم يحتفظون بصداقة قديمة لنا. ثم مد السماط. شرائح اللحم المشوية والبطاطس المحمرة والمعكرونة. أطياف من بداية الرحلة. يومئذ قدموا لنا الطعام ذاته في مكان آخر. الزمن تغير والفاكهة ونحن. يومئذ كان البطيخ الأحمر، والآن عصير البرتقال. يومئذ أيضاً، كان الحر شديداً وكنت أعاني من ألم حقيقي في الضرس. خبت الشمس الآن، وبدت شبه زائفة. والهواء قارس. هواء الشمال والشتاء والجبل. وأنا أعاني ألماً يصرخ حول ضرس في لثة أقصى الفك الأعلى، مع ذلك فهو ألم لا تنعدم صلته بالأضراس. لقد كانت هذه الأضراس تنغرز بي، لتعض وتنهش وتقطع ما يمكن تقطيعه من أعصابي. والأكل، أيسد هذا الفراغ الحاصل من نهشة الأضراس في أعماق النفس؟ الجوع يتفاقم منذ الليلة الماضية. حتى التخمة لن

تشبعه بعد. أحياناً، كنت أتستر عليه، لا أعترف به. أنساه. ثم تدب أرجل حشرية من المريء إلى أعلى الساقين فتذكرني به. أدفنه. أرجئه للحظة التالية. أبعثره بين فتاتات الماضي العطنة التي تزحف رائحتها الكريهة إلى الحاضر، وإلى اللحظة القادمة التي لم أستطع اللحاق بها. وقريبي الأحمق باقٍ على إصراره على تخطي عقبات المجهول، لكنه الآن يتناول طعامه بشهية، ويرتشف عصير البرتقال بجرعة. وكان من الواضح أنه لا يبذل مجهوداً حتى لمقاومة غيبوبة الانسلاخ، وأنه يفعل ما يفعله في وعي يفتقر إلى اليقظة.

ـ «هنيئاً!».

بعثرها أحد مضيفينا على الحضور برمتهم. وكانوا يتبادلون نظرات صامتة والبعض يمصمص أسنانه والبعض يتجشأ. وكنت بحاجة لمرآة كي أتبين ما كنه الابتسامة المرسومة على وجهي لمجرد المجاراة. ويقيناً أنها باهتة لكنها ليست متملقة. واقتفيت آثار نظرة مضيفنا وهي تسقط على صرتينا المهملتين في زاوية، فراودني الانحسار والعراء، وبعد الصمت تساءل:

ـ «ماذا بداخل الصرر؟».

بسرعة قلت:

ـ «ثياب. مجرد ثياب داخلية».

وأضاف قريبي بقلق:

ـ «يمكنك فحصها لتتأكد».

ـ «كلا.. لكني كنت أريد القول..».

استعرّت عينا قريبي بفضول وبخوف، أما أنا فتساءلت ببرود:

ـ «ماذا؟!».

ـ «إن كان ثمة فيها أشياء قد تجركما إلى أسئلة وأجوبة، فالأفضل أن تتخلصا منها هنا قبل فوات الآوان».

وضحكت. في الصرة لم يكن ما أتخلص منه، وما ينبغي التخلص منه ملتصق بالذات ويستحيل أن ينفصل عنها. إلا أن قريبي تحفز وتابعته بشيء من الاستغراب في مضيه المتهور إلى الصرة ورأيته وهو يفك عقدتها. وكانت بي رغبة مداهمة إلى استقصاء ما سيفعله، وعندما اكتشفت بيده رزمة الرسائل تجندلت رغبتي الفضولية، وعاش في مكانها حقد دفين. مئات من الأوراق الزرقاء المسودة محتفنة بيده. ويده تعتصر «العاطفة» المسكوبة على تلك الأوراق. عاطفة لسعت بكلا نقيضيها، في حبها وفي بغضائها. وكنت أقرأ هذه الأوراق، حتى جاء الحظر. وجاء النصف الآخر منها. الملعون المجنون. اللسعة المسمومة. الجريمة. نصفان. وما أعظم المفارقة بين النصفين. وهما الآن، أو في اللحظة الآتية سيصبحان مزقاً صغيرة. العاطفة الطيبة والعاطفة الشريرة. الكراهية ستمزق مع الحب. الفضيلة والرذيلة. كل شيء. وصبوت إلى انتهاء العملية بسرعة، إذ ما أهمية الانتظار في مثل الحالة هذه؟!.. لكن قريبي تريث. كان ينقب بين الرسائل مضطرباً. يبحث عن شيء ما. ورأيته وهو ينتزع رسالة.. يقتطع منها قصاصة. يطوي القصاصة بسرعة ويواريها في جيبه. من ثم، رأيت عملية الإبادة وأنا أحس بالاختناق. عادت رغبة فضولية ذات قبضة حديدية وكتمت أنفاسي. وجاهدت في زحزحة القبضة الملهوفة إلى خنقي أو أن أعرف ما تخفيه القصاصة. عبثاً. فالقصاصة مكثت دون الأشياء. ماثلة نافخة بفضولي أعتى جبروته. فلماذا هي دون هذا البحر الزاخر من الأوراق الزرقاء؟!. هذه القصاصة. لقد كانت مهما يكن موجودة مذ بدأ يحاول التخلص مني. كلماتها ضائعة بين آلاف الكلمات. في الليلة الماضية كانت موجودة وقبل الليلة الماضية أيضاً. بيد أنها تغدو الآن شيئاً استثنائياً خاصاً ومثيراً. وانداح بي شغف إلى الإمساك بخناقه وإخراج الورقة من جيبه. إلا أننا كنا محاصرين من كل جانب. وكان يحرق

الآن مزق خطابات أخيه على مرأى من الكل. واستعرت النار في الخارج ملتقية مع ما يعتلج في الأحشاء، ثم عندما همدت تلك النار عاد والصرة معه. وبادرته بهمسة تحمل صيغة الأمر:

ـ «أريد أن أرى القصاصة».

ـ «أية قصاصة؟».

ـ «المخبأة في جيبك».

فقال ببرود:

ـ «ستراها. لقد احتفظت بها من أجلك أنت. وسأطلعك عليها في الوقت المناسب» رد لم أتوقعه، غمرني بشكوك أخرى. أفحمت. فما حولنا كان دقيقاً ومعقداً، والشك العميق فيما سيحدث أخذ بالذوبان، بيد أن الغموض كان يزداد استحكاماً. والتوتر يتوزع والمخلفات لا تفضي بمغازيها الحقيقية. ولا تبوح بأكثر من حمل باهظ يجثم فوق الكاهل على شكل شفاف لا مرئي. وبين كل ذلك، سمعت من يقول:

ـ «إذا تطلب الأمر هناك، فانسيا الأشياء الطيبة، واتهمانا بالهمجية».

كيف؟!.. لأول وهلة يتناهى ظن في أنهم يحاولون إصلاح ما أفسده القانون. ثم نتبين أن الإنسانية غالباً ما تجني على نفسهم بشكل ما. ولم يكن يبدو أن الأمور ستصل إلى حد إلصاق التهم الباطلة بمن يكرمنا الآن، وفكرت، أنه حتى لو تطلب الأمر هذا، فإنني لن أقول إلا الحقيقة.

كان علينا مواصلة الرحلة. حملنا الصرتين واتخذنا مواقعنا الخلفية داخل السيارة المكشوفة. وعادت البندقية تتوسط الضابطين الجالسين في المقدمة. وعندما انطلقت العربة ثانية كانت القصاصة ما عتمت تشنق فضولي، وانقطع الحبل إذ كان قريبي يبدو في شحوب الأموات. وعدت أرثي له وأطمئنه إلى أننا نوشك على الوصول. لكن لحظاته،

كما بدا لي، كانت تستحيل إلى عقارب. إذ لا شك في أنه تعب من اجتياز الحواجز الزمنية. وكانت هذه الحواجز تظهر في طريقه كلما ازداد يقيناً في أن المهمة أضحت في حكم المنجز. وقال متضايقاً:

ـ «انقضى اليوم وما زلنا هنا».

ـ «لم يبق إلا القليل. ومن احتمل نصف عام يمكنه التريث نصف ساعة أخرى».

فقال بمرارة:

ـ «كل ما أخشاه أن يخلقوا لنا ألف عائق، وربما ينتهي بنا الأمر إلى قضاء ليلة جحيمية أخرى».

فقلت متضجراً منه:

ـ «لن يخلد شيء، وسنصل في النهاية».

فضحك ساخراً:

ـ «أغرب ما في الأمر أنك أنت الذي يقول ذلك، بينما أنا لا أكاد أصدقك».

مرة أخرى بتبرم:

ـ «لو دفنت اهتمامك فيما حولك، لو تشاغلت بهذه الطبيعة الجميلة، فسينتهي الوقت حتماً».

فتساءل:

ـ «وأنت؟!.. هل في مقدورك أن تفعل هذا؟!».

عن طريق التجربة حاولت أن أرد على سؤاله. السيارة ما انفكت تنهب الطريق. والعمر ينسل خلسة بين التوتر والانتظار وبذل محاولات للانتماء مستميتة. لقد كان بالمستطاع أن نشاهد من خلف مجهر كيف تنمو شعور الذقون وتأخذ في الابيضاض، كيف تتفتت الخلايا، كيف تشيخ البشرة في ذروة الصبي، كيف يعتري الأشلاء مزيداً من التفسخ والتعفن. وتستحيل دفقات النسيم المنعش إلى صفعات موجعة،

وهمهمات البحر الهامس عند الأفق إلى صيحات معتوهة، وتخمد الشمس وتبرد، والمشاهد تهتز وتتأرجح، ثم تغيّب التوتر، رجة مفاجئة. يهمس:

ـ «لقد توقفت السيارة..».

ـ «في أحضان الجبال».

ـ «ويهبط السائق مع البندقية».

ـ «قلت لك، لن يقتلونا».

ـ «لم أعد أصدق شيئاً».

ـ «ولا أنا..».

واخترقت سحنته. هو يقيناً لا يفكر بالأشياء الطازجة. فضلات شرائح اللحم ما زالت تختبئ بين أسنانه ورائحة الحريق. والقصاصة في جيبه. هل يعقل أن يكون هذا كله مجرد خدعة ستنهتك في الخلاء؟!.. والمنطق شيء أسطوري. يصاب الناس في هذه الأيام بالجنون الفجائي. أحياناً تركبهم رغبة جامحة في القتل بلا مبرر أو من أجل أن تحظى الذئاب المتوارية في جحور الجبال بقوتها. وتناهى إلى رأسي شبح لشاب سوف يشيخ وراء القضبان مقابل رصاصة أطلقها. والآخر الذي سيعيش بأمعاء كلب. والسبب تحية لم يسمع ردها. وليس دائماً لا يرد على التحيات لمحض الاستهانة أو الاحتقار، فعالمنا يفقد وجوده شيئاً فشيئاً.. يشرد. يهرب إلى عوالم أخرى خصبة بعد أن أجدب واكتسحه الجفاف، وقلت له:

ـ «بندقية الصيد لا يمكن أن تقتل إنساناً».

ولم أكن متأكداً من ذلك. كان لوالدي بندقية صيد. ذات مرة استطاع أن يسقط ثلاثة طيور بخرطوشة واحدة!.. وقال قريبي:

ـ «أشعر بالحصر».

ـ «أي حصر؟!».

ـ «حصبر البول بالطبع وهل يوجد غيره؟!».

ـ «كثير. ومع ذلك فيمكنك البول خلف ذلك التل وأنت مطمئن».

حدجني بنظرة مقتحمة ذات مغزى عميق وتساءل:

ـ «وأنت؟!».

ـ «حرمت أن أفعل هذا إلا في الأماكن المخصصة لذلك».

ولم أشأ الاسترسال بالحديث، فهتفت به:

ـ «انزل.. ماذا تنتظر؟!».

تعقبته حتى اختفى وراء التل فتحولت إلى الجانب الآخر. كان الضابط السائق يلاحق ببندقيته أرنبة بيضاء تنط بين الوهاد القريبة، والآخر يبدو عليه الضيق. وفجأة يفرقع دوي ليشق قلب الصمت. وجاء قريبي يعدو:

ـ «ألم تصبك الرصاصة؟!».

أقهقه عالياً. أما الضابط الآخر فيستبد به الغضب.

ـ «أنت أحمق.. أحمق. أنت تخلق لنا المشاكل من غير داع. سيردون على الضرب لو اعتقدوا أنها رصاصة حقيقية».

علمت من ذلك أننا أصبحنا على مقربة من الحدود. وتريثت حتى صعد قريبي وجلس في موضعه. عندئذٍ غمغمت:

ـ «سنصل عما قليل».

حملق بالأرنبة المسكينة المخضبة بالدم وهي تتأرجح في يد السائق.

ـ «متى؟!.. متى؟!».

وكانت كلماته ترتعد.. ساقني المشهد وكلماته الهلعة إلى فكرة فيها بعض العسف. تخيلتني جثة تنهشها الوحوش. واستغرقتني الفكرة، فإذا الوحوش مقلمة الأظافر مقتلعة الأنياب، لكنها شرسة

كاسرة. وكانت تملأ هذا العالم. وتبعث على الاستغراب، ليس لأنها حقيقية، وإنما لأن مبررها كان مفقوداً، حتى في المشاهد وفي تساؤلاته. وقبل قليل كانت الإنسانية تحاول أن تبرهن على نزعتها الإيجابية عن طريق تنكرها بسمت الوحوش ذات المخالب والأنياب. ومن هذه المتناقضات كنت أنفذ إلى مخاضة، وتنغرز الأفكار في وحل هذه المخاضة وتتعثر ثم تتحرر حاملة معها الكثير من هذا الوحل والطين. وفجأة، كنت أنتبه على حاجز خشبي يعترض طريق السيارة فتتوقف السيارة، وتتوقف معها الأفكار. أما الحاجز فيرتفع آلياً ليستقيم الطريق.

فرقعة في الأعماق. أعماقي أنا. الأفكار تنتفض كجرذ يخرج من مجرى للقاذورات. وقريبي يهتف بمرح:

ـ «وصلنا».

اندفعت السيارة إلى «الجانب الآخر». أية معجزة؟!.. بل يا للعبة الحقيرة. كيف يتعانق «الأعداء»؟!.. كيف والدماء تسيل في مكان آخر بسببهم؟!.. ونحن على الهامش. نحن الوقود. منذ أكثر من نصف عام ونحن على الهامش.. ومنذ الأزل نحن الوقود. لماذا؟!.. اللعنة!.. وتميع السائل الزنخ الأصفر. وبدت ظلاله على وجوههم. في لحظة ما، هذه اللحظة بالذات، جاءت أيضاً اللعنة.. مهموسة لا تسمع على لساني. إنهم يتعانقون هنا ويقتتلون في كل مكان. أما نحن فكان البحر يحتفي بنا وحده. كان شاطئه عند أقدامنا. وهديره يهنئنا بسلامة الوصول. تمشينا على الساحل برهة لم يعبأ بها أحد. كانوا منشغلين في إحياء مأدبة الزيف. وحين سيستقل الضابطان والأرنبة الشهيدة، السيارة المكشوفة الصفراء، ويجتازون جميعاً الحاجز من جديد، فسينطقون بالحقيقة ولا ريب، ويلعلع الرصاص مرة أخرى.

كان قريبي شبه صامت. فهنا وهناك تبودلت كلمات عفوية لا معنى

لها. وكان يحرق السيجارة تلو الأخرى، وأنا أحرق شيئاً مجهولاً يبدو كقطعة روث ساقطة على صفحة النفس، والبحر يمسح على وجوهنا بيد أثيرية دبقة، ثم يصفعنا وكأنه يحاول إعادتنا من ذهولنا إلى أنفسنا المسروقة. وكان الشك يحوم كذبابة حول لهفة قريبي المتلبسته منذ الأمس، في انقذافه إلى هذه اللحظة. لقد تحققت هذه اللهفة، ولكن هل حقاً، أصدقته ظنها وتوقعاتها؟!.. رنوت إليه لاستشرف في طلعته أو حديثه، أو سلوكه، ذلك التحول الجذري الذي كان يصبو إليه. للأسف لم أعثر على شيء من هذا. كان متوتراً لم يزل، وسكناته وملء رئتيه بالدخان، كانا يفضيان بدخيلته الخائبة الظن، واضطرابه. والحرية التائهة اقتصرت على هذا التجوال القصير فوق رمال الساحل. أما من نهاية للمهزلة الكبرى؟!.. صمت في الأفكار. في المخيلة تتشبث، بغتة، وجوه مألوفة وحزينة. اقتلعت هذه الوجوه عيوني بضراوة. لم أعد أرى شيئاً سواها. والمحاجر الفارغة بركة طافحة بالدم. لقد كنت في مواجهة ساعة ومن ساعات البعث. تلتحم من ثم الأشياء المقطعة. أشلاء مسؤولية بتر رأسها. ويعود الرأس إلى مكانه فأتخيل أشياء أفقدها الزمن المنصرم صوابها. الحرية تتململ في رغامها صابية لرفع الهامة المطأطئة. نحن وراء الحاجز؟!.. من غير حدود ولا قيود.. كلمة واحدة يجب أن تقال لنا فينطلق من عقاله الجمود والاستعباد. والكلمة ما زالت محتبسة وراء السن تمارس الملق والاحتفاء المشبوه. ولعنت هذا العالم المرائي المنافق، ثم عدت وندمت. لقد كفرت بالمنطق. كفرت به حتى خيل لي، أن من الممكن أن ينبثق الصدق عن الرياء. وانقسمت بين حب وكراهية، وفقدت قدرة التمييز، وحملق بي قريبي مندهشاً حين فاجأته بطلب سيجارة. ثم قلت وأنا ابتلع الدخان عميقاً وأشعر بالدوار:

ـ «لنعد إلى هناك».

وتساءل كعهده:

ـ «أتراهم سيعيدوننا لمنازلنا؟!».

فقلت، أعاني من سعال متقطع مؤلم:

ـ «لم أعد أرغب إلا في هذا».

فتردد ثم قال بخيبة:

ـ «أشعر وكأن سحنة العالم قد انقلبت».

ـ «حماسك كان مبالغاً فيه».

فهمس:

ـ «كلا. ولكني أجد في نفسي صراعاً جباراً بين عناصر لا أول لها ولا آخر، فلا أعلم ماذا أريد».

ودخلنا إلى النقطة. لفتت نظري إلى صرتينا القابعتين في زاوية فأخذني الاشمئزاز. وكان «الطرفان» يسخران منا في الأرجح. ونحن منبوذان مقتلعان من الجذور. وتراقصت الوجوه المألوفة الحزينة، مرة أخرى، وراء الجبين. والعالم انقسم على نفسه وأصيب بشلل نصفي.

وهمست له:

ـ «ما أقسى أن يجعلوك تشعر بأنك لا أكثر من شبح أسود يتسكع في ظلام ليل حالك السواد».

فعاد يقول:

ـ «إني تغيرت. منذ وصولنا إلى هذا المكان لم أعد أفهم كيف سأواجه الأمور».

ووجدت أني أتفحصه بدقة.. وبريبة كذلك:

ـ «ماذا تشعر؟!».

ـ «مشكلتي أنني لا أستطيع فهم مشاعري».

لكني هتفت فجأة:

ـ «أنظر. إنهم يودعونهم.. ويملأون لهم السيارة بالبرتقال».

قد يتفرغون لنا بعد أن تختفي السيارة وراء الحاجز. وظني في محله. كان «الكبير» الذي بينهم أول من «عثر» علينا، وقال مع ابتسامة:

ـ «كنا قلقين عليكم طوال تلك الشهور».

أين مصدر كلماته يا ترى؟!.. ابتسامته لاحت شبه أبوية. وفجأة ظهرت الإصبع الأسطورية على صفحة الذاكرة. واستطرد:

ـ «لعلكما قضيتما شهوراً لا تطاق هناك؟!».

فغمغم قريبي في آلية:

ـ «الليلة الماضية لن تغرب عن بالي مدى العمر».

أما أنا فتساءلت نيابة عنه:

ـ «متى سنعود إلى أهلنا؟!».

قال الضابط بحنان أبوي:

ـ «لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. وسنساعدكما على العودة بأسرع وقت ممكن».

فهتف قريبي فجأة:

ـ «أحقاً سنراهم اليوم؟!».

قال:

ـ «بالطبع.. بالطبع. لقد قاسيتما طويلاً، وحان الوقت لأن تعود الأمور إلى مجاريها الطبيعية».

تبادلنا نظرات عاجزة عن التعبير. وعلمت من سيمائه أنه قد عثر على مشاعره الضائعة في حين أن الرعدة كانت تستأثر مرة أخرى بمشاعري. بيضة طازجة تتدحرج على امتداد منحدر. ويقيناً ستتهشم إذا ما بلغت النهاية، وتتبعثر أجزاؤها في الحضيض. وكان «الكبير» قد اختفى في غرفة أخرى، وصوته ينبعث متحدثاً في هاتف. وقريبي يقتل ما تبقى من الوقت عن طريق قتل السجائر، ويراوده الصمت من جديد. والعاصفة التي كانت تدفع مياه البحر إلى الرمال قد توقفت، واستقرت

عند حدودها. . ورغم الريبة ورغم الذكريات الكئيبة التعسة ساورتني الرغبة في عناقه. كان هذيان الكراهية من نصيب ساعات الضعف وحدها، الآن كان طغيان الحب، رغم وجل هذا الحب، يشطف هذا العالم، يقدم الغفران، ويصبو إلى احتواء الكائنات بأسرها. وكنت أخشى نوعاً آخر من الضياع. إذ إن الجمود والانفعال لا يختلفان، وزورة الحب العاصفة، ربما تؤدي إلى نفس ما تؤدي إليه زورة الكراهية. . من ثم، فتشت عن الاعتدال. وانفتح الباب وقال الرجل:

ـ «سننقلكما بسيارة إلى موضع آخر. وستمكثان هناك يومين أو ثلاثة. فثمة ترتيبات روتينية لا بدّ منها، ثم بعدها يمضي كل إلى حال سبيله».

هنا، عادت وسقطت الأشياء. تجمد الحب والكراهية والاعتدال. لقد كانت كلماته كاللطمة المذهلة، أما عينا قريبي فقد قدحتا شرراً مستطيراً.

الفصل الثالث

الجبل من فوق الوادي، حملقت عالياً في صخرة تذكرتها جيداً. يومئذ وقفنا على الصخرة تلك وأرخينا لأعيننا العنان، فانزلقت إلى هذا القرار السحيق.

قال أحدهم بشيء من الرهبة:

ـ «حاذرا من السقوط!».

كان للنزهة معنى يبتلع كل الكون. الآن فقط أدركت أن محذرنا كان يقرأ الغيب يومئذ. رغم تصرم ستة شهور ونيف، رغم أن أقدامنا لم تزلّ، رغم أن الصخرة ما زالت راسخة في موضعها حتى اليوم ولم يداهمها الإنهيار.. فإن السقطة وقعت.

ومن عجب أن نصل هذا الوادي بعد رحلة أسطورية شاقة وعجيبة. وحاولت أن أقيس المسافة بين الصخرة والوادي، فبدا البعد تافهاً إزاء رحلتنا الطويلة، والأشياء المتغيرة في الباطن تكشف عن بون لا يباري بين ما حدث وما يحدث الآن. كلا.. أنت لا تعيد الزمن إلى الوراء.. فاللحظة التي تموت تتفسخ كالجيفة، وحطامها المتراكم في النفس ينفث هذه الرائحة المزكمة القاتلة. والتقت التنهدة بطلعته. شبه ميت. يلفه من الخارج هدوء ميت، يجعله يبدو من وراء كفنه كالأموات. قلت لنفسي إن القيامة ستقوم في ساعة قريبة. ولمتها على بلادة أفكار المتمردين على أساطير القدماء.. إننا حمقى إذ لم نمحص

حكمة الأساطير هذه ولا رموزها. سامحته وعطفت عليه. بيد أن مغصاً خفياً كان يقرص الأحاسيس ويصيبها بألم حاد. أجل. القيامة حتماً ستقوم.. لكن ماذا وراء القيامة؟!.. كنت أعلم بأن استمرار حبسنا يشطر حياته وأفكاره، فالسجن لم يتغير رغم أننا في ساعات النهار نتجول كالأحرار بين الروابي والتلال المحيطة. قال.. أخيراً:

ـ «ها قد مرت أيام ثلاثة وما زلنا في هذا المعتقل الجديد..».

وحدست أنه يريد أن يقول شيئاً آخر. والوجوه الوديعة البعيدة تراقصت في مخيلتي مجدداً. كنت أطمع في رؤية هذه الوجوه في غير هذا المكان، فهنا ستظهر ساعة اللقاء وجوه أخرى ليست وديعة، وستشوهه. وهو يقيناً يعرف هذا، ويفكر بالوجوه الحبيبة والوجوه المقيتة، ولكن بشكل هو النقيض تماماً. كان هذا حافزاً قوياً من حوافز إيماني المفاجئ بالقيامة الآتية عما قريب، وظهوره هو بهذا المظهر من مظاهر الأموات. بعد قليل زفوا لنا البشرى. الفرحة امتعضت مثل قطة مزجورة. وكان قريبي يعاني من ارتباك لم يحاول إخفاءه. راح ينقب في جيوبه، وعندما رفع أصابعه، هتف مندهشاً:

ـ «القصاصة؟!».

تمتم مربد الوجه:

ـ «وعدتك، وقد آن الأوان».

واعتورني خوف غامض، فأردف:

ـ «لا تنفعل أرجوك. كانت قد ناهزت الثمانين، وهذا عزاؤنا جميعاً».

انتشلت منه القصاصة الخضراء. قرأتها بتبلد عجيب في المشاعر. رقي إلى رأسي فجأة حدث غيبي، كان في الماضي مجرد أضغاث من أحلام. استعدت بذاكرتي حلماً كان يلح عليّ في قبونا المظلم بأقصى الشمال. الطلعة كانت نفس الطلعة.. أما الجسد فضباب يرتفع حاملاً

الرأس، وهو يتلوى كأفعى منتصبة على ذيلها. الساعة يعتريني إيمان راسخ بشيء جديد. ثم.. هذه هي الحقيقة الأخرى.. الجدة ماتت.. ذهبت قبل أن تتأكد من أننا على قيد الحياة. كنت أغرق في حزن أبله. وهي دفنت معها علامة السؤال الكبيرة المرتسمة حول مصيرنا. أما اللون الأسود فسيظهر مرة أخرى فوق أجساد كان يخيل لك أنها قد نزعته عنها مذ بدأت الرحلة الملعونة. وكنت أتمتم بكلمات مبهمة بمثابة صلاة، ثم اندحرت الصدمة منزوية في أقاصي الإدراك. لقد كان لا بدّ من الاستعداد. ولن يكون اللون الأسود على بدن أمي بمحرك للدهشة، فانمسحت أسباب خوفي من قريبي وأحببته كما في الماضي.. كانت الإصبع الأسطورية، تدب رغم كل شيء دائبة على مسح السيئات.. مرة أخرى.

ـ «كانت الوحيدة التي أحببناها جميعاً».

الطرفان.. الطرفان!.. ومحاولة التحام الآخرين عن طريق المرهم المسمى بالحب، باءت بالفشل الذريع. كنت أجهل الأسباب. ما زلت أجهلها. وأنت؟!.. عدلت عن نعته بالكلمات التي فقدت مضامينها. أفليس ثمة من أمل في أن تسيطر ثانية معانٍ جميلة كانت في الماضي؟!.. وها أنا أحلم بالوجوه الحبيبة بينما الطبيعة تنفر فجأة، وتخلي مكانها لخلجات صمغية تتدبق بالأحاسيس وتلفها بإبهام غريب. وثمة وجه ممهول الحزن على صفحته ويصيبني بالغبطة. وهزة عاتية تكتسح الوجدان. يا للمجهول.. هذا الذي تحاشيت إقامة وزن له، يمسي الآن عبئاً ثقيلاً كهذه الجبال. إنه اليقين بعينه. وهو يقين متزمت في بثه تلك الأشياء الصمغية المكفنة للنفس بالضباب. ثم يذوب الصمغ وينقشع الضباب. كل شيء من جديد يتحرك. هرولات غير متزنة، وعناق، وعبرات منهمرة من دون إرادة.. وفي الجانب الآخر، يتوقف العناق وتحتبس الدموع خلف سد.. كانت هناك أسرته هو

معتصمة بسد الحقد. ثم تطلقه في وجهي كحمم جحيم. دائماً مكثت على جهلي بالأسباب الماسخة للأبرياء مجرمين بدون مبرر. إلا أن الكراهية لا بدّ تصنع المستحيل تماماً كما يصنعه الحب. أما أن يتحول هذا الحب العذب إلى بغضاء عمياء بلا سبب، فشيء يتعدى تخوم العجب إلى آفاق الذهول. وهذه ثياب الحداد لم تنض بعد. وكأن لونها الوحيد الذي تستريح له الحياة مع الموت، وما عدا ذلك يبدو كهراء. باطل الأباطيل قال الجامعة.. كذب الجامعة. فالمأساة لا يمكن أن تدخل في عداد الأباطيل.. وانقشاع الأشياء الطيبة؟!.. وانتصار هذا اللون الأسود؟!.. والبصقة الحاملة خلاصة فلسفة الحياة وهي تحط على وجهي المتغضن.. تصهرني؟!.. وأنا تمثال على وشك أن يتهاوى ساقطاً على الأرض كومة من تراب.

ـ «مجرم.. سافل.. دنس!».

وأمسح البصقة عن وجهي. أنظر إليها. شقيقته الوسطى. العا...

تماسكت لئلا أتمادى في الضياع. اليوم، تقف أمامك في هيئتها المجردة من الزيف.. ما أمرّ الحقيقة؟!.. والناس يجنون لأنهم جبناء.. كلا.. بل الحقيقة هي التي تثقب العقول وتجوفها.. الحقيقة، ضالة العقلاء.. أبداً لن يعثر عليها قريبك هذا.. ويقتنصها الآخرون فيقتنصون نسراً جارحاً.. ويجن الناس لأنهم عقلاء!.

ـ «مجرم.. وغد.. سافل».

وتجوف التمثال وأشرف على التداعي. قفزة قهرية إلى ما وراء الشهور الستة المنصرمة. الشيطان بذاته لا يستطيع أن يمنع هذا. والبصقة الدنسة البشعة الحاقدة تستحيل مرة أخرى إلى رضاب ثغر يشتعل بالشهوة. كان بلا شك تغريراً. وقحة سواء أحبت أو كرهت. لهيب لا يخبو. ولم تقف السنوات الأربع بيننا حجر عثرة. على ضوء القمر الفضي، تحت أغصان سنديانة هرمة في منأى عن أعين الناس،

كانت تعريني من الطفل، وتنزع من أحشائي، المراهقة. وجهها في الظلام كان أحلى. وهمسات أنفاسها المضطرمة مسموعة تتردد في أذني مع صعود صدرها وهبوطه. أنغاماً منسجمة يعزفها قيثار الحب الرائع. ورويداً رويداً تخدرني مع أحلام الليل وحفيف الشجر واللمسة اللجينية القادمة من السماء صادرة عن بدر يضحك. وكان يخيل لي أن ضحكة القمر لا تمت إلى غيرنا بسبب. و.. الأجساد تتلاصق. يهبط الفم عن جبيني حتى تستقر الشفاه على الشفاه. ساعتها تنقشع الهواجس والمخاوف بأسرها. أوقن بأني رجل. ليس ثمة أمومة ولا طفولة، فكل ما هناك، رجل وامرأة يتعانقان.

ثم التمثال يتحرك فجأة. والفم المتحجر يصدر صوتاً أشبه بضحكة صرصار، يحرره في الفضاء. وفي موضع البصقة يحز شيء وهمي مثل جمرة.. مؤلم موجع حارق. وقحة في حبها وكراهيتها.. أما الحب فواهياً كان ولذا انتصرت البغضاء المقيتة.

وكذات مرات، في الغابر اللابعيد، والبعيد جداً، ولأسباب هي النقيض أصم أذني براحتي وأغمض عيني وأغلق حواسي، أموت، لأجابه الموت بالموت.. وشتان ما بين البصقة والرضاب الشهدي. والنار تدفئ وتحرق في الوقت بعينه. وكذلك النهر الذي يروي ويغرق.. وقالت المرأة المتشحة بأثواب الحداد، والنبع المتدفق من عينيها يتصبب بغزارة:

ـ «لا تكترث بما يحدث.. فديتك».

لثماتها تمسح آثار البصقة عن وجهي.. لا تمحوها أبداً. وأنا، آخرون يحيطون بي فأشعر بطوفان الحب يغرقني لكنني لا ألبث موزعاً بين هذا الحب وتلك البغضاء.. الشعور الثقيل الحزين، شبه دفين يغمرني بكظة روحية، وبكآبة. وأتأمل اللون الأسود، وأتساءل:

ـ «كيف حدث هذا؟!».

تقول:

ـ «ليتنا نعيش العمر الذي عاشته».

أبداً. معاناة مجابهة السؤال الأعظم جحيم. وأنفجر كأنما بتأثير فرقعة قنبلة من الانفعال:

ـ «كم كنت أود رؤيتها قبل أن تموت».

بأسى تعود وتقول:

ـ «اهدأ!.. يكفي ما قاسيته».

ـ «ماتت وهي لا تدري بأننا أحياء».

فقالت أمي، تكاد تستسلم لدموع عنيدة ظالمة كانت تقاومها حتى الآن:

ـ «إنما استجاب لها الله. كانت بعد غيابكما ما انفكت تدعو الله أن يميتها ويبقيك حياً».

كان الآخر يجلس بين أهله بعيداً في الطرف المقابل. تساوره أمه وشقيقته الكبرى. هي، كانت تحدق بي. رغم بعد المسافة، كنت أتفرس في طلعتها. ثمة ظل رغبة حقيقية للفتك بي. يومئذ كانت رغبتها أيضاً حقيقية. هي وحدها نجحت في المحاولة. محاولة انتزاع جذور الكراهية المتأصلة.. هكذا توهمت. الباقون كانوا يتظاهرون بالشفاء. وغمغمت كما في حلم:

ـ «كل محاولات إصلاح ذات البين ضاعت وأسفاه».

فقالت:

ـ «أنت بحاجة إلى الاهتمام بنفسك، فلا تشغل بالك بهذه الأمور».

ـ «مظهركم ومظهرهم لم يبشرا بخير وأنتم تدخلون».

صمتت. تنحدر دمعة طرية على الوجنة المخددة. دمعة، ليست

من تلك الدموع التي امتزج بها ألف معنى حميم. هي من نوع وحدها. تحمل معنى جديداً وخاصاً هو الآخر.

اللعنة.. إنني أتخيل أشياء قاتمة ذات أظافر تخز..

ـ «يبدو أنكم عانيتم منهم كثيراً».

تبتلع اللوعة ثم تصعدها حسرة.

ـ «ستعرف ذلك في حينه».

ـ «كلا. أريد أن أعرف الآن».

ـ «أتوسل إليك..».

ـ «بل أرجوك..».

سهم تثقبه تنهيدة. وقالت:

ـ «ماذا يمكنني أن أقول؟!.. الذي حدث لا يمكن أن يتصوره عقل».

ـ «اللعنة.. خبريني بربك».

ترددت. الآهة تلح عليها.. والكلام لا يريد أن يخرج.. الآهة.. بركان ذو ألف فم.. الكلام.. حمة متلاطمة متحشرجة بين الأفواه الألف.. وأخيراً.

ـ «أغاروا علينا بأجمعهم.. حطموا وشتموا وضربوا».

ـ «اللعنة!».

ـ «ثم افتروا ألف فرية. أوقفت خالتك وأوقف خالك، وكل المعارف والأصدقاء. لم ينج منهم أحد.. جاءوا بجميعهم من أقصى مكان في الأرض».

اللعنة مرة أخرى.. حرقت الارم في لحظة غضب هوجاء.. كنت ساعتها أعجز الناس.

ـ «وكيف يحدث كل هذا بغيابي؟!».

ـ «نحن ضعفاء.. ولإبنهم الأكبر معارف.. وظهير في الشرطة».

إذن، اكتملت الحلقة. وهذا هو الشقيق الثالث، أكبر الأخوة، يأخذ دوره في الملهاة.. في المأساة. والكل فعل من موضعه كأنما وفق خطة مصممة بمهارة. إلا أن الأكثر مثاراً للدهشة، أن يدخل الأخ الأكبر مسار الحلقة الملعونة. كان هنا قبل أي منا. جاء ليتلقى علاجاً من مرض حار الأطباء به. كان أبي ينعته بالحكمة، وبالحكمة هذه كان يتحاشى دخول معمعة البغضاء التي احتدمت في وقت أجهله ولأسباب أجهلها بين طرفي الأسرة. وحين وصلنا، ووصل أهله أسرع يلحم الصدع الدامي المفتوح كجرح غير مندمل في جسد واحد. قال: فلتطو الصفحة القاتمة ولتبدأ صفحة بيضاء. وأبي ميال للسلم بالفطرة.. رحّب بالفكرة.. وضع يده بيد شقيقهم الأكبر.. كان يتخيل أن الصفحة الناصعة البيضاء قد بدأت تظهر بالفعل.

ـ «كيف نسي كل شيء.. الماكر».

فقالت بتوسل:

ـ «أرجوك. لا تشغل نفسك بهذا.. ما دمت هنا، فالكل يهون».

ـ «اغتنموا الفرصة، إذ أبي يرقد في قبره، وأنا بعيد وفي حكم الميت، مغلول اليد والحرية».

ـ «لو كان أبوك حياً، لما حدث شيء من كل هذا».

هل كان سيمنع الصدفة؟!.. لعبة البشرية؟!.. من يدري. أفلا يجر اليأس أحياناً إلى الفاجعة؟!.. لكنكما يومئذ كنتما تضربان صفحاً عن المتاعب كلها. إجازة من الحياة على رابية مخضرة بأشجار التين. يا للسخرية.. والجبل يقهقه هازئاً. رفعت عيني إليه وحدجته بعتاب.. بضغينة. يومئذ، ما كان يجب أن أهبط بهاتين العينين، لأستشرف هذا الموضع. ويومئذٍ، قال الجبل، لا شك، في نفسه يتوعدنا: «سألقيكما إلى هذا الوادي عبر رحلة مداها ستة أشهر، هي أغرب من كل خيال». وكان يخشى أن يلقي بنا إلى أحضان الدرك الأسفل في دفعة، مباشرة

وغير مراوغة، كي لا نتحطم وتغدو أجسادنا أشلاء. قال بيقين: «الجسد يتقن التستر على أشلاء الذات، ولهذا لا بدّ من أن يبقى ويحافظ على هذا المظهر، سليماً من كل سوء». وانتصرت إرادة الجبل. مرحى!.. حقاً ما انفك الجسد يبدو سليماً ومعافى. وانتهت الزيارة مع حلول الظلام. وفي هذا الظلام احتجب الجبل وغدا عدماً إلى حين. وكان مفروضاً أن نعود إلى زنزانتنا داخل الموقف. فالليل يحبسنا داخل جدران وقضبان حديدية. وكان يبدو لي ولأول مرة، أني أفلح في أن أمسك بأسباب المماطلة في إطلاق حريتنا. وإذن، فهنا أيضاً ثمة اتهامات واعتقالات وتحقيقات. واستغربت إن كان يكفي أن يتهم شخص ما بتهمة ما كي يُقضى عليه تماماً، ثم تبينت سخف استدلالي. فقد كنت أثق بالعدالة ثقة عمياء. لكن المعاول عادت تضرب في متاهات النفس المجهولة. والأشباح بدأت رقصاتها الهمجية على أرض أثيرية خراب. كل الأشباح، التي لم يمض وقت طويل منذ كانت راقدة مخدرة بهدهدات أمل واعد بتجديد الحب والحياة. واستيقظت الأشباح فجأة. كانت تمتلك أعتى قوة على استحضار كل ما هو منتم إلى عالم الفناء. وتعتور الحياة لفحة غثيانية مصنوعة من رعب ومشاعر باردة مسمومة. والتدمير كالصرخة الممزقة لكل إحساس طيب. فجأة، وعلى غير توقع، تتلبسني كراهية فظيعة دخيلة، يركبني هلع..

ـ «إذن، وضعوا الفرية على لسانك.. أعموا عينيك ببريق الزيف من جديد».

فيتبجح، مصطك الأسنان في حقد أسود:

ـ «لم تعد لعبة الخونة تنطلي على أحد. كان لك من يحميك هناك.. أما هنا فلم يبق لك إلا الموت».

ـ «تصورت كل شيء، إلا أن تصدق كل ما يوحي إليك بدون

تفكير وبصيرة، وكأنك عقل آلي يعمل بما يريد له سيده المتحكم فيه».

ثانية قهقه. لم أكن متفرغاً للحكم عليه، حكماً نهائياً، رغم سقطته الجديدة هذه. كان الإشمئزاز والمرارة الكلمتين الأخيرتين المنطوقتين بعفوية في كل ما يحدث. وكنت أسمعه يغمغم وحيداً، من خلال غشاوة مظلمة توشح حواسي وتبددها.

ـ «لم أعد وحيداً.. العالم كله يقف الآن بجانبي. وسأنتقم. لقد مرغتني بالقاذورات.. جعلتني أصم ذاتي بالحمق والتفاهة، ولن يتكرر هذا بعد الآن.. إني أعدك.. سيقتطع من جسدك الدنس هذا جزء على كل جريمة اقترفتها.. وسيرمون بأوصالك المقطعة للكلاب.. لن تنجو هذه المرة.. أبداً لن تنجو».

تمسكت بالقضبان الحديدية، أبثها رعدتي المتصاعدة. لقد هيأوه للجريمة. أعدوه لها إعداداً فذاً. لم يتركوا له من نفسه خلية واحدة يمكن إعادته إلى نفسه هذه من خلالها. بمجرد أن رآهم اختطفه البريق. بكت أمه، ويقيناً حشته أخته الكبرى بالمفرقعات. عندما أراد ليلة السرداب أن يستبق الأحداث، كان لا شك يهفو إلى الاحتماء بهذه القوة الزائفة المستمدة من حمقى يكرهون الحياة.. وها به قد تقمص القوة هذه.. القوة التي نفخت به جنون الحمقى مرة أخرى. وكنت أخشى أن يمضي بقوته المجنونة هذه فيخمد أنفاسي، أو يطفئ عين الشمس. وكنت حريصاً على إفشال اندفاعه، ليقيني، بأن الغد سيذيب الفقاعات ويبدد كل أوهام البغض الحمقاء. ولذلك، كنت مضطراً إلى طلب النجدة.

صاح الخفير بزجر متأفف:

ـ «يكفي إزعاجاً، واذهب إلى فراشك».

لكني كنت قد صممت.

ـ «سأظل أصرخ حتى أنقل إلى مكان آخر».

ورمقني الخفير بريبة واستغراب، وكان قريبي مقرفصاً في زاوية صامتاً، كالح الوجه.

ـ «بقاؤك مع قريبك أولى من أن تقضي ليلتك مع أحد المجرمين».

فصرخت محذراً:

ـ «لن تنقضي هذه الليلة على خير، وأنتم المسؤولون».

ـ «انتظر إذن».

وما أن مضى الخفير، حتى عاد قريبي وتحفز. وقال إنه سيقضي عليّ قبل أن أتمكن من مغادرة الزنزانة. ولأن المجرم يجب أن يموت، ولأنهم يريدون موتي لأني مجرم، فإنه سينوب عنهم في تنفيذ هذه المهمة، دون خشية من تقديمه إلى المحاكمة بتهمة القتل. فهو إنما سيخلصهم مني، وإنهم جميعاً يقفون في صفه، أما أنا.. فليرحمني الله.

وبدأت المشادة قبل عودتهم، وعندما جاءوا كان يمسك بخناقي، ويشد على شعري، ويضرب رأسي بالقضبان الحديدية ضربات متتالية. وفتحوا الباب بسرعة، فسطقت على الأرض خارج الزنزانة، وكان قريبي ما زال ممسكاً بي، فسقط فوقي. أدخلوه إلى الزنزانة بعد أن فصلوا بيننا، أما أنا فقد ساقوني إلى زنزانة أخرى بعيدة، فتحوها فدخلت، ثم تركوا الباب مفتوحاً واختفوا.

وفي البدء سهيت عن رائحة كريهة كانت تعبق هواء الزنزانة. ثم شرعت الرائحة تلك تخترق خياشيمي وتلسع رأسي ورئتي. وفي الزاوية القصوى من الزنزانة شاهدت بقعة بنية كبيرة تنحدر من أسفل الحائط نحو الأرض. كانت هذه البقعة مصدر الرائحة الكريهة. بول قد جف ومضى صاحبه. إنهم يمضون جميعاً، لكن البعض يترك آثاراً تبقى. وذاك المجهول الذي ذهب، آثر أن يترك هذا الأثر. غامق وكثيف وله

رائحة بغيضة. وكان يمكن أن يعبر عن بغضاء أو ربما عن شيء آخر.. مجرد كسل أو اضطرار. وهربت من البقعة متلافياً الغثيان، بيد أن هذا الغثيان كان حضوراً لا سبيل إلى التحرر منه. وفي الزاوية، حيث قرفصت، لم ألتقِ بغير القذارة والتراب والهواء الخانق الكريه.. غثيان لا بدّ منه. وأمام عيوني تضحك البقعة الكبيرة، أو تئن، أو تعبس من خلال واقع قد انطوى. مخلفات حقيرة صغيرة لحمق الإنسان. وتصطبغ الحياة بهذا الحمق فتتمثل على شكل بقعة بول جافة في زنزانة عفنة رطبة، تسلب فيها حرية الإنسان وظلاله. وقريبي يسهر الليلة وحده منقباً عن وسيلة تطبع الحياة بحماقته الذاتية بعد عجزه عن إخماد أنفاس الحياة المسكينة هذه. ويشمخ في الخارج الجبل ومن فوقه الطبيعة رائعة كما يزعمون. ها قد بدأ التين ينمو من جديد على أشجار القرية، بتلقائية تعسة ومن دون إرادة. وينمو أيضاً الإنسان ويشيخ ويكره بلا إرادة ويحب. وكانت الطبيعة جامدة وبلهاء وصدى محضاً لحس هذا الإنسان العاجز الأحمق. وقريبك في زنزانته عينة صادقة لهذه الآلية، من حيث أن العقل والإرادة والاختيار أشياء حكم عليها بالإعدام بنفس الآلية المجرمة تلك. وتعيش الغريزة البهيمية التي منها انطلق الإنسان إلى إنسانيته، ثم ينبعث فجأة عواء مخيف مزعج. انتفضت على صوت العواء وعمت ثانية فوق السطح. وتبينت بعد قليل أن الصوت المرعب حقيقي يبدر من الخارج. كلاب تستغيث على لساني رجلين. ورأيتهما. والإحساس بالغثيان تصاعد حتى الذروة. وكان عدد من رجال الشرطة يدفعون الرجلين صوب زنزانتي وهما يعويان كالكلاب.. ويبكيان بكاءً طفولياً كان يعلن عن أن جسديهما العملاقين ليسا إلا مجرد وهم. وعلى وجهيهما شعور شائكة مسترسلة مكونة ذقوناً سوداء غير مشذبة. وغابات الشعر الأسود على الوجهين عاجزة عن إخفاء الرعب الجنوني المبثوث هناك بشحنات رهيبة.. يبكيان

ويتوسلان. وأحذية الشرطة الثقيلة تركلهما باتجاه الزنزانة.. وهما يقاومان بدافع الغريزة وحدها، ثم أخيراً يسقطان تحت قدمي ممرغين بالتراب وبالبول الذي تركه ذلك الإنسان المجهول. وتطبق القضبان على الزنزانة. ويستدير المفتاح داخل القفل دورات متتالية ثم لا يبقى من حولي إلا البكاء والعويل.

كان يجب أن أعلم كيف يمكن للرجال أن يبكوا بهذه الصورة، إلا أن الذهول كان أقوى من الفضول. أمعنت النظر فيهما. لو كفا عن البكاء لكانا مثالاً للقوة بعينها. وزادني هذا رعباً. والمفاهيم بأسرها تهاوت إلى درك سحيق. وقلت:

ـ «تصرفاتكما لا تليق بالرجال».

أحدهما، هفا إليّ بروعه ودموعه وجزعه. تحرك في اتجاهي بكيان صاد إلى شيء مجهول.. ثم في بغتة لا معقولة تداعى إلى يدي يلثمها وهو يئن أنين حيوان مثخن بالجراح:

ـ «استحلفك الله.. دعنا نبقى هنا..».

سحبت يدي من تحت شفاهه المسعورة بحركة صارمة. تسمرت أنظاري فيه والتصق عقلي بكلماته الغامضة.. ماذا يعني؟!

ـ «اهدأ وخبرني بما حدث».

تحككا بالأرض التربة كخراف جرباء.. وكان من الواضح أنهما فقدا السيطرة على ما بهما من إنسانية، كل شيء كان يبدر في تلقائية الرعب الأعمى، وقال أحدهما:

ـ «أقسم إننا لم نجن شيئاً».

ـ «لا أفهم».

ـ «غداً سنسلم (للجانب الآخر)، والمشنقة في انتظارنا هناك».

ـ «لماذا؟».

ـ «لم نفعل شيئاً. أقسم إننا أبرياء».

ـ «من أين أنتما؟».

ـ «من هناك».

ـ «لكنكما هنا».

ـ «ولهذا حكم علينا بالإعدام هناك».

ـ «لماذا؟».

فقال أحدهما يتوسل:

ـ «بالله عليك لا تدعهم يسلموننا لحبل المشنقة؟».

هل فهمت؟!.. أبداً. الصورة، كانت واضحة لكنها شديدة الغموض.. تضيع الأفكار أحياناً في غيبيات لا جدوى منها. وفنجان من القهوة الساخنة، اللاموجودة في هذه الساعة، ما كان بإمكانه، رغم افتقادي إياه، أن يحل الألغاز. ثمة رجلان من الطرف الآخر، موجودان في هذا الطرف، ومحكومان في الطرف الآخر بالإعدام بسبب وجودهما في الطرف هذا، ويعيدهما الطرف هذا للطرف الآخر لينفذ فيهم الطرف الآخر حكم الإعدام.. لماذا؟!.. وأية جريمة اقترافاها؟!.. وأقسما، أن جريمتهما الوحيدة وجودهما في هذا الطرف، ولماذا هما موجودان في هذا الطرف؟.. لا شيء خاص.. أحسبا أن هذا الطرف أفضل.. ولهذا حكما بالإعدام؟!.. وأقسما مرة أخرى على أنهما لم يقترفا أي جريمة.. وضعت بمتاهة.. وحاولت أن أرسم الصورة من جديد.. كان هناك العديد من الاحتمالات.. احتمال الكذب في ما يقولان.. ربما لم يكونا بريئين كادعائهما.. ربما اقترفا ذنباً عظيماً.. جريمة.. وعاد القسم يؤكد على براءتهما. وكنت أميل إلى تصديقهما، ليس لأنهما أقسما، بل لأن قسماً آخر أخرس كان يلعلع على وجهيهما ويؤكد على صدقهما. لكن لماذا يسلمهما هذا الطرف للطرف الآخر، والطرف الآخر في نظر الطرف هذا «أعداء»، والرجلان، متهمان بخيانة الطرف الآخر، أي بخيانة «الأعداء»؟!.. لم أفهم شيئاً. لكني تذكرت

أننا أيضاً اثنان، والطرف الآخر سلمنا للطرف هذا، فلا بد من تسليمه اثنين عوضاً عنا. . لكن الأمر يختلف، فالرجلان سيموتان حتماً لو أعيدا إلى الطرف الآخر. . وتهت مرة أخرى. . لم أفهم ماذا يحدث، وقال أحد الرجلين يتوسل مرة أخرى:

ـ «بالله عليك لا تدعهم يلقيان بنا إلى أشداق الموت».

وابتلعتني ضحكة بلهاء. . وخيل لي، أن أشياء جديدة كانت تحوم حول رأسي، لكنها مشوشة مضطربة، ومن خلال دهشتي، واشمئزازي، وغثياني، ومرارتي، وحيرتي، كان طوق غليظ من خوف كامن، ربما لا أساس معقول له، يطوق ذاتي كسوار من حديد. . . كانت الأشياء لا معقولة، ومهما حدث، فهذه الحكاية الغريبة، المستعصية على الإدراك ستظل تخيفني.

الفصل الرابع

ساعة جديدة في معصمي. أرفع يدي قليلاً فأجدني في اللحظة التي أنا فيها. أحياناً، يحلو للإنسان اللهو بظنونه. في تلك الساعة من الصبح الباكر كانت مشاعري ممتازة. أكلت بشهية واستهنت بالجبل، والأغرب من هذا أني أحببته.

اليوم، كنت ممتلئاً بشعور يربطني بالأشياء. وما دمت قد استيقظت على حب الجبل، فأي شيء يمنعني من حب قريبي مرة أخرى؟!.

أيام ثلاثة تقضت ونحن لا نتبادل كلمة. منذ أن فصلونا وأنا أشعر بالذنب، كما لو كنت أنا الذي أساء إليه. إني لم أقلع عن الحديث معه بدافع كبرياء، فالغالب أنه لم يكن يرغب في مبادلتي الكلام بدليل وجهه الذي كان يوجه إليّ أقذع السباب كلما حطّت عيوني على قسماته. قلت، إنها أزمته ولا بدّ أنها ستزول، كما زالت من قبل أزماته الأخرى. ثم تماديت في الثرثرة مع نفسي، فقلت كذلك: إن الإنسان ليس دائماً مسؤولاً عما يصدر من كلمات عنه، وعما يشعر في بعض الأحيان. وهذا جعلني أعتقد بأن حقدي المتكرر عليه ليس إلا نزوة من نزواته بالذات. فصفحت عنه بإخلاص، لكني لم ألبث أن ضعفت بعد ساعات عندما اشتد العواء داخل المبنى الأصفر الكبير. رأيت على الجبل الذي أحببته فجأة، رجلين مشنوقين. هبطت إلى الوادي. انقضّ سرب من غربان على جثتين مطروحتين في العراء على الصخور.

أغمضت عيني، فانتصب خلف جبيني أنشوطة المشنقة وكانت تتأرجح في الريح بفمها الواسع كالدنيا. نفضت رأسي لكي أتخلص من البقة. إني لا يمكن أن أسقط في هفواته. صحيح أن الوقت قد انسرب من القرية المثقوبة منذ خرجنا من السرداب، لكن المستقبل ما زال جنيناً في بطن هذا الزمن المنداح. دأب هذا البطن أن ينتفخ ثم يجهض. وبين الانتفاخ والإجهاض يتربع المجهول.

تجولت بين الروابي قليلاً. الآن، وليس كما في الصباح، استوعبت مشاهدها بنصف وعي. كان النصف الآخر من وعيي منفتحاً لأشياء أخرى، كثيرة الألوان، لكنها مضطربة ومبلبلة وغير متناسقة أبداً. ثم انتهت كلها أخيراً عند حقيقة فيها شيء من التعاسة. إن الشرطي «إسحق» يكثر من اهتمامه بقريبي، ويتجاهلني عن عمد. في البداية كان مجرد إنسان عادي. لولا بزته الرسمية لأمكن القول إنه رجل يقبل على الحياة والطرب والناس. كان يحبنا كولديه. عزف لنا على عوده وغنى كذلك. قال: إنه في أحد الأيام كان رقيباً ثم نزعت رتبته عنه لخطأ ارتكبه وتسبب عن عجز دائم لشخص بريء. شاهد ليلة شبحاً يسري في العتمة، أدركه خوف طاغ على حياته فأطلق النار من دون إنذار.

قلت له:

ـ «في الواقع إنك لا تصلح للمهنة هذه، لكثير من الأسباب».

فضحك وسب رؤساءه ثم قال:

ـ «لست عدوانياً. ولا أعمل حباً لسواد أعينهم. إنني ارتدي البزة هذه لأعيش. وقد أصبت ذلك الرجل من أجل أن أبقى حياً أيضاً، إلا أن الحادث سبب لي ألماً ومهانة».

ومن قبل أن أتأمل ما قاله أمسك عوده ومضى يعزف ويغني ويهرج..

يتجاهلني الآن عمداً. واهتمامه بقريبي يتزايد. وهذا يعني أنه ينحاز.. فلماذا؟!..

علمت من أمي في آخر زياراتها، أن هذا الشرطي شوهد وهو يرتاد منزل قريبي أكثر من مرة. لا شك إذن، أن أهل قريبي دعوه لزيارتهم، لأغراض تتعلق بي. انطلت الحيلة عليه. ففي منزل تكثر الإناث فيه، يدخل الرجل ليخرج من بعد رجلاً آخر. خصوصاً لو كان ذلك الرجل، «إسحق» الشرطي. وإذا كان الإناث.. كلا. فالأحرى أنها مناورة تستهدفني. شقيقته لا يمكن أن تتبذل مع غيري. رغم العاطفة الطائشة المتأرجحة بين الحب والكراهية بنفس الحدة والعنف والعشوائية. مع ذلك فقد غمرني اهتمام الشرطي بقريبي، بغيرة عمياء عليها. وفي لحظة تائهة في بحر الزمن المنساب، رثيت لجميعنا دون استثناء. وتلك التي أحببتها يوماً بكل وجداني لم تكن إلا الوهم. وتزوجت الكهل لتفرض نوعاً آخر من هذا الوهم. ثم تشرق الشمس على قشرة الصقيع الشتوية الصباحية لتبدده عما قليل. الأخرى وحدها كانت الحقيقة المحضة. بين القبلة المتهالكة والبصقة المتهالكة أيضاً. والحقيقة هذه، عقرب يسري بين شفتي وخدي بدبيب له قشعريرة تثقب الأمعاء برعب ممحو القسمات، وتمتد يدي نحو خدي لتقطف منه البصقة وتعيدها لفمي. إني أمتصها. قطعة من حلوى شهدية أمتصها بشغف. اليوم وقفت أمامي عارية من الزيف ومن الحقيقة. شع ندم في تلك الدعوة الصارخة من عينيها. وشفتاها مرهفتان ومقلصتان. وابتسامة حبيسة خلفهما وتحاول أن تفلت منهما لتقصدني.. كلا.. لا تطلقي الرصاصة القاتلة، بل فسري أولاً هذا الجنون.. استأذنيهم في اللعنة المسماة بالصفح. البصقة الأولى ابتلعتها، فلا تحاولي استعادتها من قبل أن أعرف ما معنى هذه البصقة الأخرى.. هذا الشرطي الذي يحب الحياة و «الناس» معاً..

بعد أن ذهبوا جميعاً، حاولت أن أتحدث إليه. كنت أخشى أن يرتكب الشرطي في بيته حماقة بسببي. وما بدأ منذ شهور ستة ويزيد، أخلى طريقه مجدداً لشظايا أمور قال المنطق وأجزم على أنها تعفنت وانتهى الأمر. الآن، بعد أن ثبت لي أن المنطق ليس دائماً الصادق، اكتسبت الأشياء الممزقة تلك، حياة جديدة ففاحت منها رائحة عبير وردي. علاقاتنا قد حيكت على أسس حياتية بحتة. حبالها متينة. ليست من صنع قرابتنا، بل حصيلة ساعات خلواتنا الطويلة وصبانا ومعاناتنا المشتركة، وأحاسيسنا الغرة. والقنابل يمكنها تفتيت الأجسام، لكنها تخفق في تحطيم الأحداث.. الماضي.. ودعوته ودعوت قريبي. أشاح عني باستهانة. وبسبب مشاعري الطيبة اليوم تنازلت عن رغبتي بسهولة. إذ لم أشأ تعكير صفو أحاسيسي الممتازة مرة أخرى بصفعة أتلقاها من نزوته وهي ما عتمت في ذروتها. ودخلت الزنزانة، فاكتشفت أني توغلت قليلاً في نفق المستقبل الذي كنت أتحاشاه.. وقلت: لا بدّ سيزول عن تلك السحنة العابسة الغاضبة لون حريقها الملتهب الناري.. فثمة شيء واحد ثابت من دون الأشياء.. الزوال.

في الزنزانة هذه، شممت رائحة الزوال الحريفة. أين صاحب البقعة القذرة المرتسمة على الحائط والأرض؟!.. والعواء البشري تبدد في الخلاء ثم توارى.. لا.. من قال إنه تلاشى؟!.. لولا أنه طن في أذني لما تذكرته. في صباح اليوم التالي زال كل شيء إلا طنين هذا العواء. كان عاصفة تزأر. يخترق صفيرها الثقوب والثغرات وينفذ في أرجاء العالم.. يحطم جدار الجبل الشامخ فيتهاوى الجبل فتاتات ويتساوى مع الوادي. عاصفة. في كل مكان عاصفة. والمذياع في الطرف الآخر يردد، وبصفاقة، إعلان تنفيذ حكم الإعدام بخائنين يدعيان عبد الفتاح راشد وجميل قدري، لأنهما اجتازا الحاجز إلى «الطرف الآخر» هذا..

وصرخ عبد الفتاح وهو يمرغ جسده الضخم بتراب الزنزانة، وببول الرجل المجهول.. لثم يدي وهو يعوي ككلب مسعور:

ـ «أقسم أني بريء وزميلي».

وهدر العالم بزعقة جميل قدري الصاعقة المنفجرة المتساقطة كذرات شيء متفسخ:

ـ «بالله عليك.. قل لهم يبقوننا. إننا لا نريد الموت.. لا نريد الموت!».

وضحكت الضحكة البلهاء مرة أخرى.. مرة لم أحص عددها بين المرات. حقاً. المعجزة الكبرى أن يبقى الإنسان حياً.. أن يعيش هذا الإنسان.

وقال الحارس وهو يفتح الباب ويقدم الطعام:

ـ «كل بسرعة وجهز نفسك. فبعد ساعة ستغادران هذا المكان».

وامتثلت رغم رائحة البول التي كانت تمنع الشهية وتصيب المرء بالغثيان. وكان دوي العاصفة يتحطم على صخور الجبال الشامخة. ثم يسقط صريعاً بين الحفر والأخاديد. وكان شيء مقتّه منذ ستة شهور يحاول إغوائي، لأغفر له وأرحب به. مرة أخرى.. المستقبل!.

وقال لي وهو يضمخ خيالي بعطر زهور وبآمال: «اقلب صفحة جديدة».. لكني فكرت بقريبي. وكنت أتمعن في وجهه وهو أمامي خافض الرأس. وسيارة الشرطة المكشوفة منطلقة بسرعة، وتهزنا وتقلع قفزاتها منا الأحشاء. وكنت أرسم في وجهي ابتسامة حيية.

ثم بعد لأي أفلحت في أن أهمس له:

ـ «اطمئن!.. فكل ما حدثتني به عن التحقيق هناك، سيبقى طي الكتمان».

ورمقني بازدراء، ثم تفجر شيء في وجهه ففرقع صداه في استنكار في لهجته العصبية:

ـ «أتهددني؟!»:

من حسن حظي، أنه مثلي مقيدة يداه. ولعلهم وضعوا الأكبال في أيدينا كي لا تتكرر المشادات الجسدية. وكان يبدو الأخطر من المشادات الكلامية ما دمنا مقيدين.

وقلت بصدق وبرود:

ـ «لن أنسى صداقتنا.. أما أنت فحر».

لولا عنادي، لانتزعتني ضحكته الساخرة المتشفية مني، من موقفي نحوه. كان، وكأنما يتخيلني وحشاً قد قلمت أظفاره فغدا كلباً ممتهناً. وأضاف بنزعته تلك:

ـ «لا يملك الكلب إلا أن يلعق ويتذلل حين يعجز عن أن يعض.. أما أنا، فسأفرغ كل ما في جعبتي.. سأدمرك.. سأقول..».

من دون قصد، اختفت بقية تهديداته. يقيناً أن الفضاء سمعها عني.. فأنا لم أعد أجلس حذوه بعد.. ستة شهور وبضعة أيام.. لم يمض على الرحلة إلا أسبوع واحد.. طوار طويل يخترق مبنى المحكمة العسكرية في «الطرف الآخر». في مؤخرة الطوار على اليمين باب قاعة المحكمة، وأمام الباب حاجز حديدي من قضبان.. خلف القضبان جنود موقوفون يحدثون لغطاً.. يتحدثون عن تعلم اللغة الإنجليزية وعن التطوع في الجيش.. نحن مبتلعين بينهم. الغرفة فسيحة ونظيفة وكثيرة الضوء نهاراً. من العجب، أن الدكة الإسمنتية كانت تجثو هناك كذلك. غالباً ما نمنا عليها وحدنا في الليل. أما الجنود فكانوا يتغيرون بالساعات. ليس معقولاً المقارنة بين برودة دكة الموقف في المحكمة العسكرية والدكة الأخرى في سرداب الأمن العام، فالنوم على تلك الدكة لم يكن متيسراً فقط، إذ كان المرء يجني منه بعض المتعة بفضل رطوبتها المنحدرة إلى الأجساد المحرورة. يومئذ كان الخريف. والطقس يتأرجح بين الحرارة والبرودة. والطعام

فاخر ويقدم بسخاء. حين أخذوه مني، كان قد فرغ من توه، من تناول وجبة الظهر. عدة حبات من الكوسا المحشوة بالرز وقطعة لحم دسمة وكمية كبيرة من الخضار المسلوق مع موزتين كبيرتين. وانتظرته ساعات طويلة. لم يرجع. ثم أوشك الليل على الانتصاف. لم يرجع. وأدركت أن عليّ أن أقضي هذا الليل وحيداً. أقنعت نفسي بأنهم سيعيدونه في الصباح الباكر. ثم حين لم يرجع في اليوم التالي كذلك، عانيت من عراء رهيب. كان إشفاقي على مصيره ينمو مع الوقت وغيابه. وقال الذين سألتهم عنه:

- «لا تخش. سيعود في فترة وجيزة».

- «لكن لماذا أخذوه؟!».

- «لأنه أكبر سناً منك».

- «وماذا يعني ذلك؟»:

- «يعني أن التحقيق سيتركز معه بالذات».

- «وأين يقيم الآن؟».

فقالوا بهدوء:

- «إطمئن. . إنه بمكان آمن وسيعود إليك بسرعة».

لكني مكثت مع الخوف. لم أسئ الظن بالناس قدر ما أسأته في فترة غيابه عني. ومصيره ذبابة تحوم في رأسي وتزن في أذني وتشحنني بوساوس. خدرني التعب واليأس فأسلمت بدني للدكة الإسمنتية وأوليت الدنيا ظهر وعيي وإدراكي. . هربت إلى ملجأ الإنسان الأعظم. وحين استيقظت، ابتلع كياني مشهد أحذية بمواجهتي تحت الدكة تماماً. . أربعة أحذية. . زوجان. . والأحذية من نوع أعرفه حق المعرفة. والتقطت أذناي كلمات قربتني خطوة عملاقة من هذا العالم الذي كنت فررت منه. ومسحت عيوني ونهضت. كان ثمة شابان يجثمان بجواري على الدكة. وبادرني أحدهما قبل أن ألتقط أنفاسي:

ـ «أنت من هناك!».

ـ «كيف عرفت؟!».

ضحكا. أشار الآخر إلى حذائي، فشاركتهما الضحكة. قال الأول في ثقة لا تتزعزع:

ـ «لقد فررنا. أهلنا الحقيقيون هنا.. سلمنا أنفسنا في الصباح. وتجري الترتيبات الآن لإطلاق سراحنا قبل حلول المغرب».

إلا أن الآخر أضاف بشيء من شك:

ـ «قد نقضي ليلة واحدة هنا، في أسوأ تقدير.. وأنت؟!».

قلت بعفوية تامة:

ـ «أنا؟!.. لا أدري شيئاً أبداً».

ورعشة خفيفة سرت بمفاصلي وكانت رغم خفة وطأتها لزجة يصعب التخلص منها. وكان لسان بذيء قد بدأ يهتز في رأسي ويسب هذا العجز المطبق على خناق الإنسان.. إنسان دون سواه.. أصل هذا العجز يكمن في القوقعة العظيمة الإنسانية القذرة المطنبة بقاذورات، ضخمت نفسها وأوهمت الإنسان بأنه صاحب الأمر المطلق في هذا العالم. قاذورات أطلق عليها عفواً اسم العقل، وهي أعجز عن أن تكشف ما يجري الآن خلف هذا الحائط. حشرة حقيرة منتفخة بغرور. ما أن يدغدغها المجهول حتى تنكمش وتفوح. إنها الآن منطوية داخل الجمجمة وعلامة السؤال تمتد بشكل سلك فولاذي يطوقها من كل جانب. بعرة جافة تتقاذفها جدران الرأس الفارغ فتخشخش مع كل سكنة. ثم يأتي هذان الشابان المتعجرفان فيضغطان على تلك البعرة.. ومرة أخرى فرقعة ثم صمت لاهث متحشرج.

وكان في الخفاء خوف يتفاقم. وفي خلال ذلك كله نفق تمرق اللحظات منه وتمر الدقائق والساعات والأجيال. ونفق آخر يسقط الطعام فيه ليبقى الإنسان.. وأنفاق أخرى تقذف فضلات هذا الإنسان.

لكي لا يتسمم ولتتم اللعبة المسلية لأناس مجهولين. ثم تستقبل المعدة وجبات أخرى. والجسم يفرغ سمومه وفضلاته مرات. والعجرفة تصدق في الظن. ينتعل عندئذٍ الشابان أحذيتهما. ينطلقان للحرية عملاقين من صنع غرور منتصر حاكم. وأنا خلف القضبان، دودة تلفحها ريح صرصر. نفخة الخوف تطوحني حتى عن أرض تتهاوى عليها كل الأشياء المهشمة الميتة. أترنح بفزعي على مصيره. وأحتضن الأرض الرطبة. ألتصق بها في قوة لأظل قطعة من هذا الوجود الناكر المتبرئ. وحذائي بمحاذاة أنفي.. خبيث أصفر. ألمح فيه أفواهاً تنفرج عن بسمة عقربية عبقرية المكر. إنه صنو تلك الأحذية المنتعلتها الحرية الساعة. لكن الوغد سار بي إلى هذا الدرب الآخر الوعرة، وأوقعني في تهلكة لا ريب فيها. ويغمر الأصفر الكائنات برمتها، ثم يغمق ويتخثر فيغدو غيمة ضبابية تتكاثف في سرعة حتى يعم سواد حالك.. واللاشعور.

ثم حين أستيقظ، أجده بجواري. كانت فرحتي برجوعه أكبر من أن توصف. لقد كان هذا يعني أننا نجونا ولو إلى حين. مع ذلك استغربت. لم أشهد فرحتي بعيونه.. إني حقاً لم أجتز تجربته. يومان من التحقيق المضني، ليلتان من النوم المقرف يتخلله لسع البق في زنزانة متأكلة خشبية بثكنة جيش. لم يكن من ذلك أي مناص. كان لا بدّ لقريبي أن يمر بهذين اليومين.. أما أنا، فكنت في نظرهم طفلاً، لا يعتد به.. بيد أن ما مر في رأسي في هذين اليومين قفز بي نحو عشرين عاماً.. فكنت رجلاً بكل معنى الكلمة.

وهنا، مشاهد خضراء ما عتمت تركض في أعيننا. متى وأين سنتوقف؟!.. والحديد البارد يعود ويوجد حول المعصم. لقد كنت نسيته حيناً. الآن، كانت تضربه الريح فتجمده فيشبعني لسعاً. وأكثر من ذلك، أنه عض يدي بفظاظة عندما حاولت أن أرفعها كي أطرد عن عيني خصلة شعر ألقتها الريح من رأسي ومضت تصفع بها وجهي. ولم يكن

ثمة جدوى من إعادة الخصلة إلى رأسي، فبمجرد أن هبطت يدي أعادتها الريح إلى وجهي. والحقيقة أنهما كانتا يدي وذراعي مع أصفادي الباردة، مجتمعين. كان ذلك كله لا بدّ وأن يعمل من أجل إنجاز تافه لن يدوم لأكثر من لحظة. لكن شعر قريبي كان جعداً منتصباً لا يهبأ بهبات الريح.. كانت أشياء أخرى، تزعجه، لا شك، ولم أعرفها فقد كانت متخفية في جوفه. وكان لا بدّ يحملق في جوفه هذا بعد أن قذفني بالكلمات التي لم أسمع معظمها.. هكذا، لم يكن قادراً، وكما خيل لي، على تلويث وعيه باللطخات التي يكشفها لنا الزمن من خلال طبيعة تطويها العربة عدواً. كنت أشاهد هذه اللطخات الآن بوضوح، بعد انعتاقي من قبضة خرافة.. هراء. أنا لا يمكن أن أحيا خرافاته. فما وقع هو اليقين الوحيد الذي يمتلكه الإنسان. كان لا بدّ إذن، أن أصحح غلطتي كي أفهم البون الذي بيننا، وأعثر في فرجة هذا البون على الإشمئزاز. إن بيني وبينه غثياناً يصعب فهمه.. وقد يصاب المرء بالغثيان من ضعفه أو من قوته، أو من دوافع فيه يعجز عن كبحها. وقد تكون هذه الأشياء تعمل بي مجتمعة كمزيج من عناصر مختلفة يستحيل فصلها. على أن الذي ما من شك فيه، أنني كنت لا أزال أفر من شيء ما يتعلق بالمستقبل. وروعت إذ ألفيت أني أنزلق تلقائياً في اتجاه ما سميته حتى الآن خرافة. كان هذا الشيء موجوداً رغم إصراري كله. كان كالقطرات ويسيل مع المناظر المسرعة بجنون. ومنذ ليلة السرداب، ملأت هذه القطرات دنّاً عملاقاً. طفح هذا الدن وساحت قطراته على الأرض دون حياء. وهو الآن يسبح في بركة ويصبح دنيّن. هذه، وجهة نظر أخرى تتضمن الكثير من الخطورة. مثل ناقوس يجلجل ليوقظ المجهول، ويفتح له فاه. ثم لا شيء يبقى إلا الشدق التنيني الفاغر. أما الوجه فيتلون في تشكله مثل دخان. قسمات مائعة تتموج.. تتعرج.. تتكور.. وتتماسك.. ثم تنتشر. أشكال

حلزونية تنقبض وتتمدد، ثم تتلقفها هبة، فتتلاشى في غمضة عين. .
إلا الهوة. هذا الثقب الأجوف الذي تمر من خلاله كل الأشياء. . مليء
هذا العالم بالثقوب. . وهي برمتها تفضي إلى شيء واحد. . وكان في
هذه العربة الطاوية لمشاهد الطبيعة أكثر من ثقب. وكان الثقب الذي
يحتوي قريبي ديجورياً دامساً فوق كل تصور. وأنا في ثقب آخر أغمض
عيني وأشل أقدامي وأصنع من نفسي حجراً تحركه يد الزمن الجبارة.
وكلانا يجتاز معاً الثقب الثالث الذي لا يمهلنا بمعالمه الكاشفة عن ذاتها
مع ذوبان الطريق الخاطف. ولا يقين مذ بدأت الرحلة الجهنمية قبل
شهور، وتتابعت معها علامات الأسئلة بسرعة لم تتح للأجوبة أن تتضح
أو تتبلور. إلا أن أشياء فرضت نفسها، مع ذلك. أشياء مخيفة. . باردة
وصفراء. أشياء تنتمي كلها لعوالم إبليسية، في حين يصاب الجمال
الملائكي بسيولة فوارة ثم يتبخر منجذباً لعوالم أخرى مجهولة. إنه لا
يصمد. . بل لا يتهمل. تلك الأشياء الجهنمية تفترس الجمال الملائكي
بمهارة. . وخوف فظيع آخر ليس أبداً بالطارئ. إن له أسبابه الوجيهة
الصلبة، في كل الأحوال. أسباباً لا أدري لماذا يستقي بعضها أصوله
من أعماق رأس هذا الذي كنت قبل لحظة فقط، أشذّب من ماضيه كل
نتوءاته المؤذية كي أبقيه كما كان يوماً، جعبة في مقدور الإنسان أن
يفرغ فيها طيبة أحاسيسه. الآن، إيمانه بأنني لا أمتلك شيئاً طيباً،
أضحى عقيدة. سأبقى كذلك، بالرغم من أني لا يمكن أن أخون
شعوري فأترك لسريرتي، أن تسيل أمامهم وأنقلب زقاً مثقوباً. رغم كل
البشاعة التي تصمني بها أوهامه وحقده، لن أتفوه بكلمة تسيء إليه.
وكنت موقناً من هذا مع أن حقيقتي «البشعة» في نظره سوف لن تتغير
في الأرجح. وتتوقف أفكاري عند عمارة كبيرة. . صفراء. كل المباني
هذه كبيرة وصفراء. وتبدو كتوائم. لقد صبت جميعاً في قالب واحد.
وهي منتشرة على وجه هذه الأرض كالجدري. وبين كل منها مرحلة

يقطعها إنسان ملعون بائس. مرحلة ارتفعت فوق عبث الدنيا بطريق معاناة مبرحة ويقظة قصوى. وتصطبغ عيناي باللون الأصفر. هذا الذي توقفت الأشياء عنده. وتناهى صوت آمر:

ـ «انزل».

وصاحبني الاضطراب إلى زنزانتي الجديدة داخل العمارة الجديدة الكبيرة الصفراء. لم يكن ثمة بقعة بول، ولا تهويمات لعواء آدمي، ربما مضى مصدره إلى غير عودة. لكن الأرض كانت أكثر تراباً ورطوبة. وعندما تكومت على سجادة التراب المفروشة فوق الإسمنت، أدركت أن قريبي لم يهبط معي السيارة. غادرني وإياها إلى مكان آخر. أفسيطلقون سراح قريبي؟!..

كان جواب الخفير عند باب الزنزانة، يقشع أوهامي.. وإذن، فلم يتمخض استباق الأحداث عن عودة الإنسان لمكانه الطبيعي. من ثم، كنت الآن وحيداً تماماً. مع جدران وقضبان وروائح تراب ولسان سليط يثرثر داخل قوقعة عظيمة. وها هم يبترون خيطاً كان يربطنا خلال تلون وتعدد الأشياء. للمرة الأولى.. كلا.. بل الثانية لو لم نستبعد حادثة الفصل المروعة هناك في المحكمة العسكرية. ورسمت على التراب خطوطاً مشوشة، ثم لم ألبث أن تزبّدت. أفكاري أضحت أكثر ليناً وطواعية. ها أنذا فكّان يحاولان الإطباق على الواقع من كل أطرافه.. ماض.. حاضر.. ومستقبل. ماذا حدث؟!.. وها أنذا أيضاً أنتصب في قلب هذا الخط الممدود إلى ما لا نهاية.. خطي أنا.. قدري. والمعالم تحاول أن تسقط بأكملها. عارضت. كانت نظريتي ووسيلتي إليها، غاية في الدقة، مؤخراً. وإذن، تتعالى الأمور على كل التوقعات وتسخر. قال أحدهم من بعد أن تسلمونا كبضاعة:

ـ «يومان أو ثلاثة ثم يمضي كل إلى حال سبيله».

فجأة أتذكر. إن أضعاف هذه المدة تقضت. إستجدت أحداث.

تطورات وقعت لم تكن في حسبان. وأمور أخرى غامضة تجري من حولي. فجأة، صرخت بخفير الموقف. لم أعبأ ببرمه قدر ما كان يهمني أن أعرف بالضبط:

ـ «لماذا أنا في هذا المكان؟!».

رغم نظرته العدوانية قال بهدوء:

ـ «إجراء مؤقت ليس إلا. وغداً، في وقت مبكر، ستنقل إلى مكان آخر».

مرحلة. هو ذاك. أفيقلدون هنا «الطرف الآخر» في هذا؟!.. ما أكثر المحطات هناك؟!.. وسمعت صوتاً ما زلت أذكره بوضوح:

ـ «يا ابني.. ليش هالشرشحة وهالبهدلة؟!».

وقتها، مكث السؤال بلا جواب. صمت قريبي، لأنه لم يعرف الرد. وأفحمت أنا، لأن هذا الرد لم يكن ليحمل أي مغزى. لقد كان يجب أن يغمر السائل الأصفر هذا العالم، لتبان حقيقة هذا الرد. وهنا تتطور الأمور بسرعة. وثمة تحقيقات لم تبدأ بعد. والمحطات كثيرة. وقال: «سأحطمك»!.. فليفعل لو يقدر. لكنه كان يعرف أشياء لا تعرفها أنت.. أما المعلومات القيمة المختزنة في جوف قوقعتك العظيمة المسكينة، عنه، فلن تتقيأها أبداً.

ومن خلال التراب والظلال والصمت، حاولت أن أعرف الوقت. ولم يكن ثمة نسبة بين ما تشير إليه ساعتي الجديدة، واللون القاتم الملقي بظلاله على كل ما يتحوطني من أشياء. ومرة أخرى اعترضت على المعالم التي كانت تريد أن تمحو ذاتها.. عندئذ بانت عجوز شمطاء شرعت ترفع عنها ثوبها البالي.. ماذا تبغي منك الساحرة اللعينة هذه؟! وتناهت من بعيد أصداء أغنية عذبة. وعلى مدى لحظة، كانت العجوز الشمطاء تتحول عذراء فاتنة تكشف عن محاسنها، ثم على حين غرة، اختفت الاثنتان ولم يبق إلا حفيف صمت ميت أخرس.

وكانت «اللحظية» ما زالت تتلبسني، حتى بعد أن تم نقلي إلى مكان آخر في اليوم التالي. فخرس في رأسي ذلك اللسان الصلف بعد أن دوخني بأسئلته. وكانت الأشياء لا تني عن انحسارها في عفوية. ولم أكن معنياً بعد، بالرغم من أعراض الأمس النفسية الخطرة، في أن أسحب الخيط الممدود إليّ، لأخمّن. أبقيت من ثم لنفسي، مشاعر متضاربة وثمينة لأني تريثت في اتخاذ الموقف من كل الأشياء. ففي مثل هذه الحالة من الغموض لم يكن ما يبرر اتخاذ المواقف، في حين أن ما كان يخالجني من قلق أو خوف، قد لا يعدو ظاهرة ترجع أسبابها في الأرجح إلى فترة وفاة أبي. إذ حصل ذلك بظروف مفاجئة. ثم حين ألفيت نفسي وقريبي قبل شهور ستة مبتلعين في باطن تلك الرحلة المشؤومة، فإن الظاهرة هذه، أمست شبه ظاهرة مرضية. إذ أدركت ساعتها أن الإنسان أعجز من أن ينظر إلى أبعد من أنفه. أو يتعرف على لحظته الآتية، في ثقة واطمئنان. هكذا، كان لا بدّ أن أتلقف، والعربة تنهب الأرض بي ماضية لمكان آخر ما، المناظر الخلابة التي قذفتها اللحظات إلى داخل عيني. كتل جبلية خضراء. أشجار مصطفة على حوافي الطريق منتصبة بشموخ، وتثير العاطفة الجياشة عن دون عمد. وأنت تثير في غيرك حقداً وكراهية ولا تفقه شيئاً، تماماً كالأشجار. هذه المعضلة التي خيل لي في وقت ما أنها في غاية الوضوح. أبداً. إن شيئاً من هذا لم يتضح البتة. فما معنى الغضب القاصدني من كل اتجاهات الدنيا؟ وبصقة شقيقته الفوارة؟!.. ولماذا كان وعيده ينفث شرراً وبصيصاً يلمع؟!.

ومقابل هذا كله، كانت عاطفة الأم ومحبة الإنسان الخيّر. والطبيعة الساحرة هذه. والحرية. وكان حاجز متين ماكن يفصلني عن كل هذه الأشياء في وقت تداعت الجدران فيه بين البشاعة وبيني. إذن، إني أسترق جمال الطبيعة من دون حق. وفي ليلة السرداب كذلك، حاولت

أن أسترق الحب المحظور من امرأة جمعني المصير بها في ظرف أقحمت إليه. فلماذا تحظر الأشياء الجميلة عليك وأنت لم تحظر على أحد شيئاً؟!.. لماذا يستلبون منك الواقع وأنت لم تسلب من أحد حتى أوهامه وكراهيته لك؟!.. وانفرجت الساقان. خطوة ساذجة داخل بستان فوق جبل. صخرة واحدة.. ذات الأرض. وذرات تراب متماسكة متحدة وتلتصق بأخاء ومودة. والأرض لم تصرخ أو تحتج. لم تسمر أقدامك.. لم تصرح فيك «حتى هنا وكفى».. خيرة ومسالمة الأرض فأين الشر إذن؟!.. وكانوا طيبين فأين الظلم؟!.. وتلتهم الدرب كل الحقائق والمغالطات. هنا، تتشامخ الجبال وتفسح أحضانها للإنسان، وتضمه.. مدينة وسط جبال. وبين أحضان المدينة والجبل، عميقاً عميقاً، تتراءى البحيرة كمرآة صافية أقرب إلى الاستدارة.. وكنت مشتاقاً لرؤية الماء وهو يغسل جراح السماء ويمتص دماءها. إلا أن ذلك كان قد تم في وقت ضعت أنا فيه بين الالتباس الواقع بين الحقيقة والمغالطة. وعندما سيحل الظلام، سأكون قابعاً في جحر عتم دامس، مجمد الحس ضمن هيمنة اللحظة التي وهبتها ملء حريتها. وتكررت اللحظة. بأعداد هائلة تكررت لتصوغ الأحداث. أساطير مغذاة بتفاهات وجدت لتريق على العدم شيئاً اسمه الإدراك. وأدرك فجأة أن المحطة الجديدة التي لا يختلف مظهرها الخارجي عن سواها من المحطات، تختلف حتماً. فهي تستوعب في داخلها حشود بشر. مكتب استقبال في مدخل بناية داخلية مؤلفة من ردهات وزنزانات ومرافق. يمرق المرء إليها عبر حديقة متعددة الألوان. وهناك في الداخل، أفواج سجناء وسجانين. ولا يمكن في كل الأحوال التمييز هنا بين المجرم الحقيقي، أو رجل القانون.

باب ثالث يفضي إلى مكتب، ينتهي إلى قبر جماعي. عند هذا الباب الثالث فاحت رائحة عفونة قاتلة. التقطتها حاسة مجهولة بعد أن

تعطلت حاسة الشم إلى حين. ونعب بوم دميم بمواجهتي بالضبط. جناحاه رفرفتا. عيناه المظلمتان تبحلقنا. حاول الانطلاق نحو الفناء لكن الجيف في رأسي كانت. ورائحة العفن والرعب. جاء إليها. حاولت أن اذود عن جمجمتي مخالبه الناشبة في عقلي، وهي تنبش. لكن سبعة أبواب عملاقة استغرقت كياني في لمحة. تقيأتني الأبواب السبعة منذ قرابة ستة أشهر. الآن تبتلعني الأبواب الجديدة هذه. وحدي. أهي حقاً مجرد محطة؟!..

نظرت إلى العريف الجالس خلف المكتب المشرف على هذا القبر، ثم خررت صريعاً في تجويفات عيونه. ثمة هوّة بداخلها ينقلب المبصر أعمى. والحياة أستعيدها لأسارع بالخروج من باطن الهوة. مثل هذا الوجه كثير من وجوه تزدحم بهم الذاكرة.. وليس من الحق أن نطالب الطلعات العبوسة هذه، أن تنفرج أو تضحك. وتذكرت موقف كلينا من الآخر فعذرته ثم سألته:

ـ «متى سيفرج عني؟!».

ودهشت إذ خيل لي أني أسمعه يضحك.

ـ «لا. بسيطة. غداً ستكون في بيتك إن شاء الله».

ومن قبل أن أستوعب ما قال لأفرح به عاد واستوقفني صوته. وكان الآن جافاً مثل عظمة.. صرخ بي:

ـ «اسمع. كن مهذباً عندما تخاطبني.. يسمونني العريف (كوبي).. واعلم أننا سنتقابل كثيراً، وأنا أكره التغابي ككرهي للتذاكي تماماً».

صوته وفرحتي. نشبا في بلعومي. كلاهما تلك العظمة الجافة. واستهنت بهما وبه. للمرة الألف أردت أن أخضع للمنطق. إن الغرور كريه، بيد أن التعامل مع المجرمين والقتلة، قد يبرر تصرفه هذا. فالبراءة والإجرام يصعب تحديدهما في هذا المكان بالذات. وقرصتني

أحشائي. إني بعد لحظة سأنخرط في سلك هذه الفئة الضالة مثلما اختلطت بها أكثر من مرة في سياق هذه الشهور النكدة الحظ. لم يكن فوق جبيني أية لافتة تجاهر ببراءتي أو تعلنها، مع ذلك عرفوني. إذ منذ دخولي أول باب قابلني رجال الشرطة بالترحاب. قال أحدهم:

- «أهذا أنت؟!.. أهلاً وسهلاً».

وأضاف ثان:

- «مرحباً بك في منزلك».

والثالث قال:

- «شرفتنا وأنرت الموقف كله».

مزاح؟!.. تهكم؟!.. سخرية؟!.. ما أهمية الحدس ما دامت الحقيقة ساطعة كالنور؟!.. أما العريف كوبي فيقول «سوف نتقابل كثيراً». الآن فقط دوهمت، في هذه الساعة من جمود اللحظية بي، وثبات المنطق أطعن في هذا المنطق، فيذوب جمود اللحظة. الآن، أطلق العنان لنظرتي فتتخطى أنفي وتتمعن في رحاب زمن يمتد إلى ما بعد أربع وعشرين ساعة. وعندما أرجأنا أحدهم ساعة استلمونا كالبضاعة، يومين أو ثلاثة أيام، لم يكذب. فلعله لم يستطع التكهن بما استجد من أمور. هذا العريف الصلف لا يكذب أيضاً. لقد كان يريد قول أشياء كثيرة عن طريق المناقضة. أما السموم التي هدد قريبي بنفثها، فلا تغطية لها. إنها من ثم، لن تخدم أحداً، حتى كراهيتهم الملتهبة.. ما دام هناك عدالة!

نفّس عني. كنت شديد التقلب بأحاسيسي. عدت إلى العفوية. في الردهة الكبيرة قابلتني عينات متنوعة بشرية. وكلمات بذيئة. واستهتار. هنا، ليس ثمة من مجرم عريق يغتصب الزعامة ويفرض النظام. كما كان الحال في «الطرف الآخر».. هنا الكل زعيم.. شريطة أن تتوفر القوة.

كانت الفوضى شديدة. وفي الباب ينتصب شرطي هائل الجثة ويراقب عبث السجناء بوجه تعلوه بسمة. وكان يخيل لي أن الشرطي هذا إما أنه يغرق سأمه في هذا العبث المتهتك، أو يشارك فيه من خلف القضبان. الآن، حين الجمع اكتشفني، تحولت الأنظار إليّ. فجأة حوصرت. ورؤوس لا تحصى تتحلقني في لبنات السور البشري الضارب من حولي نطاقاً لا يمكن فصمه. ولا تناسق في الأحجار البشرية المتراصة في هذا السوء. رؤوس عالية ورؤوس منخفضة.. أجساد ضخمة وأجساد ضئيلة.. بشرات سوداء وأخرى قمحية وبيضاء.. كهول ورجال وصبية في مقتبل العمر.. وفي الحال ضربتني أنفاس كريهة كأبخرة تتصاعد عن غوائط طرية. إني أختنق.. وتململت داخل بؤرة القاذورات. بؤرة ذات شبه هائل بأغوار عيون العريف كوبي. وحين حاولت تفحص كياني المتناثر فيما حولي، قصفتني تجشأة أطلقها حائط صلب من عضلات. برهة غاب كياني في نتن تجشؤته القاتل، ثم اهتزت الردهة بعاصفة تصفيق وهتاف.. كانوا لا شك يحيون صوت الرعد البجح هذا المنطلق في وجهي.. وتحطمت تحت ضربات مطارق ثورة مكبوتة. انتفضت، إلا أن سواعد مفتولة من حولي هبت تمسك بكتفي. الانتفاضة خمدت. وبثمالة إدراك أنصت إلى أسئلة تنهال علي من كل صوب:

ـ «أية تهمة؟!»:

وخرست.

ـ «خداع صبية ساذجة مغرورة؟!».

الخرس يستفحل. والسجين العملاق يحك رأسه. ثم يدفع حنكي نحو السقف. كان يضحك بقذارة:

ـ «لماذا تخجل؟!.. قل.. أهو اغتصاب؟!.. سطو؟!.. قتل؟!».

عندئذ كان سجين شاب ونحيل الجسم، يشبه وجهه جمجمة مغطاة بغلاف جلدي رقيق، يفج الكتل البشرية ويتقدم:

ـ «أي قتل يا رجل؟!.. هل تحسب كل الأطفال رجالاً مثلي؟!.. هذا لا يقوى على قتل ذبابة.. فلا شك أنه ضاجع طفلة رغماً عنها؟».

وحشر الهيكل العظمي وجهه في وجهي، واستطرد بطنين حشرة سامة:

ـ «هل كانت حلوة يا طفلي؟!».

لو حقاً اغتصبتها لما تلقيت البصقة النارية. وتدلى قضيب لحمي متصلب من داخل حلقي إلى أحشائي.. وطعن جوفي. والرغوة اللزجة انقلبت بركة قوامها ماء أصفر فقاعي السطح وكانت الفقاعات تفش شيئاً شيئاً. والأبخرة تتصاعد من البركة الصفراء. وتدور مثل دوامة في الفضاء المفتوح، ثم تنتصب مارداً مسخ الخلقة. وينفخ الشيطان.. عاصفة. وأنا ريشة عصفور منزلقة في عجلة نحو المستنقع. كانت أظافري مقلمة وأصابعي تخط على أرض ليست موجودة خطوطاً متصلة أطرافها بالسائل الأصفر.. الثقيل.. كرصاص.. ثم أهوي للأعماق.. هشاً.. متعصفراً.. متسيلاً.. في حين يبقى القضيب متدلياً من سماء غارقة بضباب.. يتأرجح جافاً محتقناً ليس في ثقبه قطرة واحدة بيضاء.. ولا صفراء. وفجأة يتراخى فيمتد.. حبل غليظ يستدير إلى حلقة.. الحلقة أنشوطة ملتفة حول عنقي.. تنحكم القبضة.. انضغط عنقي.. روحي.. وسمعت صوت الهيكل العظمي منضغطاً أيضاً.. منسرباً من بين أسنان منخورة صفراء:

ـ «ألا تريد أن تتكلم؟!.. أتحسب أنك جئت هنا لكي تصمت. كلا..».

وما أن ارتفعت يدي لتزيح أصابعه المطبقة على خناقي، حتى كنت

أهوي إلى الأرض. كان ذلك رأسه.. الجمجمة المغطاة بقشرة رقيقة تمتلك كل القوة الخارقة هذه.. هائلة الدفع. تنقذف في لكمة على وجهي.. اللكمة تقضي على بقية وعيي.. وعلى الأرض التربة، أسترجع هذا الوعي بسرعة. إني لا أرغب في فقدانه. أتشبث به رغم الدم السائح من أنفي وفمي. وأصر على التمسك فيه. وسط زوبعة قهقهات وقحة تهب عليّ ساخرة من شيء بي أخفقت في أن أجده. إني محال أن ألصق بذاتي فرية الضعف من أجل أن أعثر على ذلك الشيء المجهول الذي يثير بهم استهانتهم وهزأهم بي. لقد كنت قوياً. وقوتي ليست زائفة كقواهم، بل هي حقيقة، ما من شك في ذلك. ولم يكن باستطاعة هؤلاء فهْم هذه القوة. حتى قريبي قد يعجز عن فهمها بعد تحوله إلى آلة مجرمة حسب. وذلك الشرطي الواقف في الباب، هل يعجز هو أيضاً عن فهم هذه القوة؟!..

زحفت في اتجاه الشرطي قاطعاً أرض الردهة على أربع. كانوا تفرقوا إلى جماعات صغيرة وقفت ترقب خطواتي القادمة بفضول. وعلى الأرض القذرة تركت قطرات من دمي امتزجت بتراب متراكم، فتخثرا معاً وبسرعة. كان أنفي لا يزال ينزف، وهو مشبع بأتربة الردهة وبأتربة أخرى تنفضها أحذية موصومة برجس قوة وهمية. قوتي أنا كانت حقيقية في الأرجح. وكان ينبغي أن استخدمها الآن لكي أبقي عليها. واستعنت بالقضبان فوقفت. والتقى وجهي المدمم بطلعة الشرطي البلهاء وكانت مبتسمة غير مكترثة.

وصرخت:

ـ «أريد الخروج من هنا حالاً».

قال بهدوء:

ـ «لماذا لم تدافع عن نفسك؟!».

ـ «أريد الخروج حالاً».

ففتح الباب وهو يهمس:

ـ «هدئ من روعك».

أصبحت خارج باب القضبان. رأيت، اذاك، ارتعاشة يدي وسمعت لهاثي. كان هذا، هو الغضب والسخط. والخفير ما انفك يبتسم ببرود وبلا هوادة. كان كل شيء الآن يستعسر على الفهم ويغمض. حتى تجارب الشهور الأخيرة تصطدم الآن بمفاهيم جديدة وتتحطم. وأخيراً، قال بشيءٍ من رقة:

ـ «أنت تنزف دماً. الحمام أمامك. دونك إياه فاغسل وجهك ويديك، ثم نبحث عن حل».

وفي الحمام، أمام المغسل، كنت أقف وجهاً لوجه أمام نفسي. مرآة زجاجية، ثمة، تحت تصرف قتلة. وأنا في داخلها أرشح دماً وغضباً. لماذا؟!.. وسقط ردي مع الماء والدم وابتلعه حوض المغسل قبل الكشف عن ذاته. أما الطلعة في المرآة فكانت غريبة. رغم نمو شعر الرأس إلى حد ما، كان الوجه غريباً. وتريثت من أجل أن أتعرف عليه.. وأحبه. هو، مهما يكن، يختلف عن ذاك الوجه الذي انعكس على طلعة قريبي المشعثة.. يختلف بالتأكيد كذلك، عن الوجوه المخيفة في الردهة. إنه يبدو وديعاً ما زال، بالرغم من كل ما كان. يبتسم أيضاً، وعلى مقربة منه كان وجه آخر منفرج عن ابتسامة هادئة هو أيضاً. التفت بسرعة. الرجل بجواري فارع وحليق الرأس.. ابتسامته عنيدة متأصلة الجذور في وجهه وكأنها خلقت معه. وفي الحال كان يسند مكنسته إلى الحائط ويقول بنفس واحد:

ـ «اسمي محمد.. من الشمال.. من «الطرف الآخر».. أقضي فترة طويلة لسبب تافه.. نزيل قديم في هذا الموقف.. أشرف على التنظيف.. وأقيم في (حجرة) خاصة بي».

نسيت ألمي. كان يقول «الطرف الآخر»..

وضرب أحدهم يده على صدره وقال بشهامة:

ـ «هما ضيفاي الليلة.. ولا أحد يعارض».

وبسط الخوان وامتلأ بأصناف المأكولات. ثم في المحطة التالية، في الغد، تكررت الحكاية. وكان النزاع بينهم عنيفاً حتى انتصر أقواهم شكيمة. والباقون بحياء انسحبوا. ويوماً قال لنا سفاح ذو شاربين كثيفين مدببين كقرني وعل:

ـ «يا شيخ حاجي حيا.. انتو ضيوفنا.. وحنه من أهل البلد وأنتو دراويش.. أخذوا مصرياتكم.. وإحنا عم نلعب بالمصاري لعب.. وعيب عليكم تخيبونا رجا».

كان قريبي يأكل حتى يتخم، ثم حين يأوي لفراشه يندب حظه ويكيل التهم لي. وكنت أنشغل عنه كي أتأمل هذا التناقض الفذ الراسخ في الإنسان. تتملكني تخمة ليست أبداً تخمة أكل.. المعروف.. وبدا الآن بارقة أمل.. ترى هل أن الفرصة ستسنح لك برد الجميل والمعروف؟!..

وشددت على راحته بقوة. همست:

ـ «أبلغك تحيات «الطرف الآخر»».

بلهفة قال:

ـ «وهل كنت هناك؟!».

وأومأت برأسي. ثم عاد يملأني إحساس باهظ. الرجل العملاق كان بصمت يبكي.. وهمست:

ـ «لماذا؟!».

مسح دمعة وهو يقول:

ـ «سأجدك فيما بعد.. وستتحدث».

وفي الخارج كان ينتظرني الخفير. واستعدت غضبي بمجرد أن قابلته. هذه الطلعة البلهاء المبتسمة ما مهمتها في هذه البؤرة

الموبوءة؟!.. وقال من دون أن يبذل أي مجهود لتغيير ملامحه المنفرجة:

ـ «الآن تبدو أحسن حالاً».

بادرته:

ـ «جد لي مكاناً لأني لن أعود إلى هناك».

ـ «كان يجب أن ترد على أسئلتهم».

ـ «لماذا؟!».

ـ «أو تدافع عن نفسك طالما لم ترضخ لإرادتهم».

تفجرت بالضحك وبالسخط. إني لست مجرماً محترفاً ولا حتى هاوياً. إني أيضاً لست احتكاراً لأحد. وقد قال العريف كوبي إنه يكره التغابي، فهل يتغابى الخفير هذا أم أنه غبي بالفطرة؟!.. عدت أقول بإصرار:

ـ «لست معنياً بإثارة المشاكل، ولن أعود إلى تلك الغابة مهما حصل».

وربت على كتفي.

ـ «إنك جد طري يا صغيري.. ومن الخير لك أن تتأقلم. مع ذلك باستطاعتك نقل فراشك إلى إحدى الزنزانات».

عرض مغر. والزنزانة، بفضل العادة أمست موضعاً يثير الحنين أحياناً. ظل يرقبني حتى فرغت من تنظيم مرتبتي على أرض الزنزانة، وحينئذ قال:

ـ «ها قد أثبتّ لك حسن نيتي، إذ لن تجد عند أي خفير آخر أذناً صاغية لمطالبك. اسمي يوسف وبإمكاننا أن نكون أصدقاء لو شئت ذلك».

الفصل الخامس

أصفر المصباح بلون البول. يبصق نوره الشاحب في جنبات الزنزانة. وباب القضبان موارب، من بين فتحاته يتسلل إحساس توأم الإحساس الذي تطفل ليلة السرداب. نوع من حرية متبجحة بالوهم. وفي الجانب المقابل كوة صغيرة تكاد تلتقي بالسقف، وتشرف على حديقة الموقف، إلا أنها في هذا الوقت من الليل تغدو قطعة قار سوداء، ثم يمكن بعد جهد أن يكتشف المرء على أرضيتها ثغرات لماعة مصدرها السماء. وأنا رزمة منطرحة في ركن. قطعة من هذا اللحد الصامت، لكنها تتحدى خرس الجمود الأعجم بأفكار منسابة على ورقة. كنت أدبج رسالة. حاولت الاقتصاد في الكلمات قدر الإمكان. عرفتهم بمكاني وطلبت ثياباً داخلية لمحمد. رغم كل الأشياء عادت قصته وطفت فوق السطح. امتزجت بالأفكار المندلقة على الورقة. عندما قرفص بجواري قبل أيام ومضى يروي حكايته، أوجست تشاؤماً. كان كل شيء في قصته عادياً إلا نهايتها. إذ كانت خاتمة صاعقة وغريبة وتثير اعتراض العقل السليم. قلت له:

ـ «لا بد أن تستأنف الحكم».

فقال:

ـ «حتى الليرات العشر لم أحظ بها في النهاية».

ورغماً عن أنفي التقيت بزوجته وبأطفاله. الصورة مشرخة وبلا

إطار. لا يمكن أن تغبط مهما حاولت ريشة الإشراق إضفاء رتوشاً مضيئة عليها. وكنت على استعداد لأن أطلب له مع الثياب، محامياً جديراً غير الذي تطوعت السلطات بتوكيله له، إلا أنه قال: إن الرسائل لن تفلت من هذا الجحر ما لم تمر برقابة دقيقة، وهكذا عدلت عن ذلك من حيث إنه كان سيسيء لكلينا. وإذن، فلا مناص من الانتظار حتى يأتي أحد منهم، فأبلغه الأمر وجهاً لوجه.

حين طويت الرسالة وواريتها داخل المظروف، تبين لي أني أسلم بأمور لم تقل لي صراحة. وتراث ذكرياتي الغضة وتجاربي الأخيرة رجحت الكفة للاحتمال الأسوأ. رسالتي كانت تعني أنني لن أغادر هذا الموضع في غضون أربع وعشرين ساعة. تلك، كانت كذبة حقيرة صفع بها العريف كوبي سذاجتي ثم ما لبث غروره أن لعنها وبصق عليها بشجاعة. إنه يمثل الحياة تمثيلاً صادقاً قحاً. إلا أنه كان على قسط من الغفلة حين ارتضى لنفسه هذا النوع من الشرف الأحقر. في هوة عينيه الدامستين انطمست حقائق قضى عليها غرور الاعتداد بالقوة والاطمئنان إلى الزيف. وكلاهما، قريبي وهذا العريف يجتمعان أخيراً عند نقطة محددة بعد التقائهما في مفترق للطرق تنكمش فيه كل الطرقات المتباعدة والمتقاربة. ذلك هو الوهم. رأيت ملامح هذا الوهم تصرخ من على الجدران المنطبقة عليّ بغلمة. «السجن للرجال..».. «قالوا حبست وليس بضائري حبسي وأي مهند لا يغمد..» وسطور أخرى تلتهب غيظاً أو حقداً. وأسماء أشخاص ابتلعهم الوهم في هذه الزنزانة ثم عاد وتقيأهم بمكان آخر ما. الجدران هذه، إن هي إلا سجل الأوهام. خدوش فيها مؤلمة حفرتها أظافر مهزوزة بخداع الرؤوس وهفوات الظنون. والحيطان البريئة مشوهة بماء النار. أبداً مستسلمة بخنوع. راضخة للممجدين واللاعنين.. محتملة الرجس. مصفوعة بالأنفاس المشبوبة الضالة، خرساء. ومن الهوة ينسكب همس الليل،

يحمل عبير الجمال المستلقي في الخارج غافي العينين مولياً ظهره لجرائم الزيف والأوهام. الآن، تخرج الخفافيش العمياء من أوكارها لتهيم مع الموت. وطيور الليل تنعب نعيبها المفجع. ومحمد يحصي الأيام الفاصلة بين الحياة وبينه. وسيظل يحصيها على مدى خمسة أعوام أخرى. وعندما سيعود، سوف لا يعرفه أبناؤه وستنكره زوجته. إن بينه وبينهم مسافة طويلة. فجوة متباعدة الأطراف.. موت.. وداخل هذا الموت موت آخر هو الحاجز الأثيري الذي يعاقب من يجتازه بانتزاعه حقه في الحياة. ومرة أخرى تتشكل الساقان وتخطوان خطواتهما الملعونة.. وثغرات الكوة تزدحم بأرواح شريرة غير مرئية تتدفق إلى فضاء الزنزانة الضيق.

أحسست بقهقهاتها المكتومة وهي ترقص من حولي. أقدامها تركلني وأصواتها تعوي في وجهي:

ـ «لكنكم تعرفون الحقيقة فماذا تريدون؟!».

والأوراح تجيب:

ـ «أي غباء؟!.. أنت تتحدث عن شيء لا يعرفه مخلوق.. حتى أنت لا تعرفه».

فأصيح بالأشباح:

ـ «كلا.. ذاكرتي قوية».

وتقهقه الأشباح:

ـ «هي تخونك كل لحظة».

ـ «هل يعني هذا أني أذنبت حقاً؟!».

ـ «إذا كنت لم تذنب فلماذا حكم عليك هناك في الطرف الآخر ستة أشهر؟!».

ـ «حقاً.. لماذا؟!».

تتعالى القهقهات. الرأس ينفعم بضباب.. لا رد. وأصرخ:

ـ «لماذا؟!.. وهل أنا حقاً مجرم؟!».
ـ «ليس المهم أن تكون مجرماً، أو بريئاً. المهم أنك قد اجتزت الحاجز اللامرئي».
ـ «غير متعمد».
ـ «مع هذا، انتهكت الحرمة الإنسانية.. بلت عليها».
ـ «هذا تدليس. الطين لم يحرك ساكناً».
ـ «من الطين تصاغ الأوثان.. وللأوثان تقرب قرابين الإنسان».
ـ «ومحمد؟!.. أهو الآخر كان قرباناً للوثن الذي يصوغه الإنسان من الطين؟!».

وخرست فجأة الأصوات. سكون أقوى من الصخب، اقتحم صفيره الثاقب، الرأس ومضى يعصف بين جدرانه. وجثا محمد عند أقدام الإنسان الأعلى ولثم حاشية سرواله. في القرية يتضور الأطفال جوعاً ويرتعشون مع ذبالة القنديل الشاحب وأوراق الشجر الصفراء. والسماء تندف القطن وتنثره على أجساد عارية معروقة، لعنة باردة بيضاء. في حين يتهيأ الناس في المدينة للتزلج على الجليد.

وقال الإنسان الأعلى وهو يلوح بورقة من فئة العشر ليرات:
ـ «هذه لك شريطة أن تحمل هذا الصندوق للطرف الآخر».
ـ «إلى أين؟!».
ـ «لا تفزع. عند الحدود تماماً سيكون بانتظارك شخص، تسلمه الصندوق ثم تعود.. ماذا قلت؟!».

حك الرجل الفارع رأسه وتفكر. طويلاً تفكر، لكن الإنسان الأعلى يكره التردد. صاح به:
ـ «قرر قبل أن تكون الورقة هذه من نصيب رجل آخر».

أسرع يعلن عن موافقته. إلا أن الإنسان الأعلى أعاد الورقة إلى جيبه، ثم بإغراء تمتم:

ـ «ستكون لك بمجرد أن تنجز مهمتك وتعود».

كلمة الإنسان الأعلى، قدر محتوم. في اليوم التالي أكل الأطفال ولبسوا بعض الأسمال. المهمة كانت سهلة للغاية. وما دامت سبباً في أن يلبس الأطفال وينعموا بالشبع أيضاً، فبديهي أن تتكرر.

في ذلك اليوم لم تأكل كثيراً، لكن يقينا أنك شربت. أما محمد فلم يبل على حرمة الإنسانية. لقد كانوا يسلحون عليه. كان يتمرغ في حرمتهم الرجسة هذه ويتلطخ على أرضها بقذارة الإنسان.

تطوع بإيصال الرسالة للمسؤولين. ولم يكن يعرف أنه مدفون في طياتها، رغم تحذيره إياي من رقابتهم. أحببت في الواقع أن أهيّئ مفاجأة سارة له. حين عاد إليّ، كنت أتحرر من قبضة الأشباح ومن صفير الصمت النافذ. تحايلت عليه من أجل أن يمكث ويسامرني. ثم حين ذهب لينام، أحكمت من سد زجاجة الكوة تحاشياً البرد والأرواح. وخفت وطأة البرد قليلاً بيد أن محاولتي قطع الطريق بوجه الأشباح، كانت محض غباء. وما دام الظلام يخترق الزجاج، فلماذا لا تخترقه أيضاً هذه الأجسام اللامرئية؟!.

ـ «هراء. هذه خرافات أفتؤمن أنت بالخرافات؟!».

ـ «طالما لا توجد حقيقة، فكل الأشياء خرافة».

ـ «لكنك قوي.. فهل القوة خرافة كذلك؟!».

صحيح. فرغم ضياع الحقائق، حقيقية قوتي. صامدة في هذا البحر من الالتباسات المضنية. خيل لي أيضاً أن وجودي العائم في هذه البركة من القاذورات لا يمكن أن يتزعزع، بالرغم من كل المطارق المنهالة عليه بقوة، وبرغم الحرمان، والشك، وافتراءات المفترين، ومكائد الشياطين التي عادت تلعب لعبتها الدنيئة في عقلي. الآن فتحت لي باباً آخر يفضي لوساوسها. حين شقيقته بصقت بصقتها في وجهي غاض شيء في الأعماق، وتربع خلف الأفكار كبقعة سوداء.

والشياطين همست:

ـ «منذ أسلمت روحك لجمود اللحظية تحولت إلى آلة صماء».

ـ «وهو؟!.. ألم يستحل إلى آلة تنتج الشر منذ أسلم ذاته لمآربهم هم؟!».

وما أسخف المقارنة؟!.. الخطأ الأكبر أن نتصور أن كل الآلات البشرية سواء..

ـ «هو آلة فعالة، وأنت آلة معطلة».

كلا. فمحاولة التضليل هذه لن تنطلي عليّ. فالنقطة الهامة في الموضوع هي الإرادة.. إنه لا يعمل لذاته، وثمة آياد تحوله إلى دمية تمسك خيوطها وتحركها على طول الخط.

ـ «ومع ذلك فهو يعمل لذاته. إذ من ادراك أنه الساعة لا يرقد في أحضان غانية من غوانيه؟!».

العريف كوبي أيضاً، لا شك، يغرق الآن في أغوار النفق. ويبدد في ممراته غروره إلى أجل مسمى. ليحظى بمقابل ذلك باللذة. الجحور والقضبان من نصيب التعساء فقط. كذب من قال إن السجن للرجال، فالرجال الحقيقيون يهيمنون الآن على العالم. أين القوة الحقيقية إذن؟!.. أين هي ورمزها يغدو مجرد خرقة مضمحلة من لحم، تنكمش داخل أثوابك، وتُنسى تماماً؟!.. وفجأة، يتصلب الرمز وينتشر. مدية مشحوذة تبحث عن مطعن. والثقوب كثيرة لكنها واسعة. إنها تبتلعك وتواريك مع المدية. والمدية تبحث عن مطعن. ثم من كوكب الزهرة تهوي شرارة لامعة ضوئية. تأتيني عبر زجاج الكوّة.. ثم تحط في أحضاني غادة ساحرة عارية كلحظة مولدها:

ـ «تقبل هديتنا الطريفة لك».

لا. هذا خداع المخيلة الهاذية المعتوهة. فالوجنات كفت عن أن تقطر رحيق الورد الأحمر. شربت الأرض الدماء مثلما امتصت السائل

الرغوي الأصفر. وكلاهما تلاشيا بجذور شجرة التين. التينة الدنسة المهولة بالنقيضين تكتظ بثمار الخطيئة. وهنالك، حول الشجرة الباغية النائية تنتصب الحورية، بعد أن صعدتها الأرض المرتوية بالدم وبالبول. في هذه الساعة من الليل تظهر. ويتجسد الطيف هناك، شفافاً وخفيفاً ومتحرراً من عبء جسده البشري، لكن الحورية ما زالت تضحك ببراءة. يداها ممسكتين بأيادٍ أثيرية لصبايا من عالم الأشباح، تتشكل حلقة من عذارى العالم الآخر والدبكة حول الشجرة الآثمة الدنسة تبدأ. يبعث أنين الناي بأنغامه فجأة، وضحكات عذبة تتدفق، وحورية القبر تواصل إنشاد بيت العتابا، الذي قطعه ذات يوم دوي قاتل مجرم...

كنت أعلم بأني سأخفق في احتوائها. وسخر الشياطين مع سخرية العريف كوبي. لعله في اللحظة هذه يعاود ارتداء ثيابه وغروره. وأنا مع الألم المحض أزداد قوة.. وأراقبه. تتضخم العدالة على غير توقع وتنداح. تمتلئ بها كل الثغرات والثقوب المحفورة في العالم. تستغرق الكون لأعود أنا في الغد عملاقاً يحطم كل قيوده وأصفاده.

في الأيام التالية، لم تتحقق المعجزة. العملاق ما فتئ حبيس القمقم. والذي تضخم وانتفخ كان الملل والرتابة. وفي الذهن تنطبع صور وجوه جديدة مكشرة. ووجوه أخرى وديعة. عند المغسل الذي في المرحاض، تلقيت تحية الصباح من محمد. كان منهمكاً في غسل قذارات الإنسان، وعلى طلعته إمارات رضى لم أفهم أسبابه. طيب هذا الرجل وساذج، وخير ما فيه أنه يستقبل الأمور ببساطة. عشر مرات نقل الصندوق من «الطرف الآخر» دون أن يسأل عن محتوياته.

ـ «كان باهظاً وكبيراً. وعندما فتحوه وجدوا فيه ساعات وآلات صغيرة أخرى».

ـ «لم يكن ثمة مخدرات إذن».

وانتفض فزعاً:

ـ «مخدرات؟!.. أية مخدرات؟!.. أبعدنا الله عن المخدرات ولعنة المخدرات».

أوضحت له، أن الأمر كان محتمل الحدوث، طالما لم يسأل عن محتويات الصندوق.

فأطرق ثم تساءل:

ـ «ولكن ما الذي جعلها تخطر في بالك؟!».

ـ «الحكم الباهظ الذي صدر بحقك، يوهم بأن جريمة خطيرة قد ارتكبت».

فقال ببساطة:

ـ «لكني أقسمت لهم على أني كنت عبداً مأموراً».

عندما الآن تلقيت تحيته، عاود أفكاري سوء الهضم. ساءني جداً استسلامه للعنة الكلمة التي فاهت العدالة بها بتهور. قلت على سبيل التذكير:

ـ «محمد. من أجل زوجك وأطفالك، استأنف الحكم».

وشكرني بابتسامة، وظننت أنه قد بدأ يفهم، إلا أن الدهشة من أنه يحاول أن يفهم حتى الآن، عادت معي إلى مهجعي في الزنزانة. هناك، تذكرت ما همست لي به الشياطين. أجل. أفيعقل أن يستسلم الإنسان لكلمة قالها إنسان آخر؟.. أن تصبح مشيئة بعض الناس قدراً؟!.. وقريبك ما زال يكذب فلماذا لا يكذب محمد أيضاً.. ولماذا لم يكذب من قبله جميل وعبد الفتاح؟!.. فكرت، بيد أن الحياة سرعان ما دبّت في جثتين متفسختين، ثم هدرت من أجواف بطون منتفخة كقُرب:

ـ «بالله عليك، لا تتركهم يشنقوننا مرة أخرى».

وفي التو كان محمد يصبح مجرد خروف منكس رأسه. وصر باب الزنزانة. وكان الخفير يوسف يحمل شحمه ولحمه وبسمته البلهاء وينتصب عند الباب. وتساءل:

ـ «كيف أصبحت؟!».

وتسمر في موضعه قرابة الساعة. سألني عن ماضي وأبدى أسفاً لما وقع لي. كان من الواضح أنه يطمع في أن يكسب ثقتي بيد أن بزته الكريهة كانت عقبة بيني وبينه. حذرني أيضاً من شرطي أشقر وجميل، كنت رأيته بالصدفة يتجول في الدهليز فخمنت أن النساء لا بدّ تحوم حوله كذباب. وقال يوسف:

ـ «لا تكشف أسرارك لهذا الشرطي».

باستهانة رددت:

ـ «لا أسرار عندي».

ـ «إذن، حاول ألا تشاكسه».

ـ «وما الداعي لمشاكسته؟».

فأجاب بهمس:

ـ «إنه يدرب كلاب الشرطة على الهجوم، وهو لا يقل عنها شراسة».

بدعابة قلت:

ـ «وهل يتفق الجمال والشراسة؟!».

فأجزم:

ـ «من الناس من لا تجدي فيه إلا القوة والشراسة، فلو تخاذلت عنه ظن بك العجز.. فالعجز دمامة لا يغفرها بهاء الطلعة».

أجل. أظهر على حقيقتك! . أكانت هذه فلسفة مادية بحتة تصفع كل محاولات تقربه إليّ. قال بها بعض المعتوهين في الماضي، وغزوا بها آفاق العالم المتحضر، والنتيجة كانت أن العالم كله أصبح على شفا هاوية الدمار. حاولت، مع ذلك، ألا أحمِّل هذا الرأي يوسف، محمل العقيدة. كان رغم كل شيء لبقاً، وطريقة حديثه، فضلاً عن هفواته وزلات لسانه، تشي ببراءة أحياناً. كانت بزته العائق الأكبر الحائل دون

منحه ثقتي. وهذا شيء لم يحصل في الطرف الآخر. وكان مرد هذا إلى لون البزز التي لم تكن لتثير النفور هناك، أمراً في غاية السخف. فهنا أيضاً لم تثر البزز هذه الرهبة في الأيام الأولى.. وصعقتني حقيقة طارئة فشتمت قريبي. ازدريته، وفي برهة أوجست بأن الإصبع التي تمحو السيئات عن صفحة ذاكرتي أصيبت بشلل كامل، ثم أعقب ذلك تمرد إحساساتي برمتها. واستحضرت بخيالي محمداً، لأتخذ منه مثالاً للصبر. ولأخرس مشاعري الثائرة فجأة. من ثم، رغبت في الخلوة.. حتى عن نفسي. وعلى الفراش الممدد في أقصى الزنزانة نزعت عني وجودي. كان الفيل الحاجب بجثته الضخمة الضوء القادم من فتحات القضبان قد ولى هو الآخر. لم يبق إلا خيوط من أشعة شمس متساقطة على الأرض من الكوة.. ثم، بغتة، تسطع شمس جديدة وغريبة. الكوة تصبح معيناً يتدفق بالنور. اكتظت الزنزانة بلمعان تبرى. وأنا استحم بشعاع دافئ. ثم نبتت حولي من عدم، رؤوس بشرية مفترة الثغور. وعرفتها ولم أعرفها. وكانت معالمها تتغير باستمرار. هذا قريبي يضحك لي. ثم يعير ضحكته لشقيقته في طرفة عين. وتذوب طلعتها لتحل بمحلها طلعة العريف كوبي.. يتحول كوبي لمحمد.. تتبدل الأوجه.. والبسمة باقية كخلود. في كل وجه بسمة عذبة. إني سعادة مكتسحة في بيداء البسمات هذه. ويتصلب الأثير أخيراً. ويغدو له جسد وصوت وحركة. وكانت الوجوه المتغيرة تومئ إلى الأثير المتخثر. إنه دمية. والأوجه تتحد في وجه واحد.. وجه كوبي. وأنا أحب كوبي.. ويبادلني كوبي هذا الحب. ويهش لي ويدعوني «يا بني!». ويناولني الدمية ويقول:

ـ «أسرع.. فالكل ينتظرك في الخارج».

ولم أجد متسعاً من وقت لأقدم شكري له. إذ قبل أن يتحرك لساني كانت نبراته الرخوة تجف. تتغضن. وهو يصفع باب القضبان،

فيرجع فضاء الزنزانة أنين الحائط المتوجع من لكمة كوبي الحديدية . .
وهو ما زال يوجه خطابه إليّ . . إلا أنه يقول الآن:
ـ «قم بسرعة . . يطلبونك في التحقيق».
بآلية فتحت أجفاني وقفزت. وكنت أتفرس فيه ثم أتعسر. غارت رمقته في أعماقي. نز دمي من رأسي وقلبي، ثم أغرق كل الأشياء.
كان لا بدّ من أن استبدل مشاعري بسرعة كي لا أتهم بغروب العقل، ولكي أتطابق مع هذا الواقع. وكان يسيل من فم كوبي ومن عينيه، يتحرك مع أطرافه المتحفزة للضرب، ينداح من هيئته بعناصر تعتصر البراءة الإنسانية وتصيبها بقشعريرة مقتحمة.
وكان كوبي لا ينفك يصيح، بالصوت الممهول بكل العناصر هذه، وكأنه عواء جنون:
ـ «تحرك. قد دنت ساعة حسابك، واحد لن يشفع لك في هذا العالم».

الفصل السادس

أخذوني إلى غرفة التحقيق. . .

في الطريق إليها، عبر حديقة الموقف، سطعني نوران، نور بريء، والآخر ملفع بالخبث والرياء.

تجلد النور الأول، وأكمد بمجرد أن دخلت الغرفة. اكتشفت، أنهم كانوا، وفي أكثر من مكان، يستلبون منه براءته ومعها سخاء الشمس الذي لا حد له وعدالتها الرائعة. هنا مكث النور الآخر. نور حقيقة يتضخم غموضها ويستفحل فيها الشك، كلما ازددت إمعاناً في الأشياء والسحنات. ولم تكن هذه الأشياء، بأكثر من ملف انتفخ إلى حد يثير التساؤل والاستغراب. هذا الملف، كان مثل جبل يربض فوق طاولة، ووراء الطاولة جلس شرطي بدين لمعت على كتفيه كواكب ثلاثة وهي تعكس بعضاً من وهجها على وجه المحقق العابس. في هذا المكان انطفأت البسمات ونسيت تماماً. والشمس في الخارج احتجبت وراء غمامة رمادية. لكن هذا لم يكن مهماً الآن. إذ كان ثمة فضول يزحف بسرية وكتمان مطلقين مع اللحظات. فضول يعيش لأول مرة مذ مات المستقبل قبل ما يزيد على ستة شهور. لكنه بعث الآن فضولاً متأنياً لكأنما تهدّئ مَن روعه هدهدة حذر أضحى مزمناً في أعماق الذات. فضول ملتصق باللحظات، يدب معها، من دون أن يشذ أو يفقد مساره، ويحاولان معاً الكشف عن وجه تلك الحقيقة المغلفة بأكثر من قناع.

هكذا، لم يبق إلا الماضي واللحظة الراهنة. واللحظة هذه، لم يعد بإمكانها أن تسقط في جب، أو تبتلع في فضاء شبكة. وكنت أعلم بأنهم سيسحبونها، وأنها بفضل مشيئتهم القدرية ستتكاثر. باستمرار وبلا هوادة ستتكاثر ثم تموت لتغدو مجرد نفاية يرفضها التاريخ. لكنها في ذمة تاريخي أنا ستظل. هذا التاريخ الذي أحدق وأطيل التحديق به، فلا أفهم. ولا حيلة، بعد، في وضع اللحظات القادمة داخل ثلاجة، منذ أضحت لحظاتهم هم، وليست لحظاتي أبداً.

وكانت نعقة الغراب الآن، نعقة حقيقية ومريعة.

وأنا جالس بمواجهة الوجه الصارم الكالح. عيوني مجمدة بالملف المترهل كرشه، وصاحب الوجه المقطب يشير إليه، ويطلق أول صيحة منكرة له:

ـ «كلهم هنا.. فلا تحاول الإنكار!..».

ها قد سحب اللحظة. وعلى يديه تكاثرت. وليس وحدها، فالإنسان تكاثر أيضاً. لقد كان في نعقة الغراب مخلب يندس في قلب المخيلة، ويفعمها بصور بالية وممزقة، لكنها حقيقية في الأرجح. وفي غمرة الخرس العاتي، كان الملف بدوره يحاول أن يحرك لسانه وينطق.. يهمس بأن ثمة جريمة قد اقترفت. وهذه الجريمة تتكاثر أيضاً مع اللحظات والإنسان وتغدو جرائم عدة. كلهم!.. وأتساءل:

ـ «من هم؟!..».

وهو يسحب المزيد من اللحظات ويسحبني معها.. يدفعنا إلى بئر عميقة من الالتباس، لا قرارة لها. وهو يغمغم بفحيح حشري، أزيزه تيار لدبيبه قشعريرة لا تختلف عن قشعريرة ما قبل الموت:

ـ «أقمتم بلداً وأقعدتموه، ثم تسألني من هم؟!..».

الماضي يزاحم الحاضر. ماضيٌ أنا وحاضر أولئك. والذكريات المشوشة تصارع بأذرع مقطوعة هذا الالتباس الذي يريدون أن يتمادوا

فيه حتى يغدو مطلقاً لا متناهياً. وكم كنت صادقاً حين تحاشيت استباق الزمن؟!.. ها هو الآن يتكون وفق إرادتهم نقطة في أثر نقطة، يتبلور ويتضح في شكل لم يكن أخصب خيال ولا أكثره عبقرية ليقدر على خلقه. لكن الماضي مقطع الأوصال ينتصب الآن أمامي ليجاذبهم رغماً عنهم هذه اللحظة المفترية الموغلة في كذبها على أحداث التاريخ.

وأطلقت شقيقته بصقتها. والبصقة استحالت إلى عقرب. والعقرب استطال فصار أفعى. وعلى رأس الأفعى ظهر قرنان. وفي فمه برزت أنياب. وتدلى من ذلك الفم لسان ونفث شرراً. وكان التنين مهولاً، مذهباً لأصلب عقل، حين بدأت المرأة الموشحة بالسواد، تبكي وتتحدث..

وهم كانوا من دون رجل. رجل الأسرة مات، واختفى الابن الأوحد. والخير فناء لا جدران له. واقتحم أولئك الحرمة. شتموا وضربوا.. لماذا؟!.. لا أحد يعرف. ولد العداء القديم في غرة من أمر المنطق والعقل. كان عداء لا يمكن تصوره بين أقارب.. عداءً حقيقياً ربما سببه الأول هذه القرابة بالذات.

والأب، كان طيباً سمحاً جانحاً للسلم. حاول أن يمحق العداء لتبقى القرابة وحدها.. ومات الأب، فانمحت القرابة واستشرس العداء.. وسألت المرأة المنتحبة الموشحة بالسواد:

ـ «و هي؟!.. أكانت معهم أيضاً؟!».

والمرأة الثكلى، بعد أن كفت عن البكاء، عادت تجهش ثانية. وظلت صامتة لم تجب حتى بإيماءة رأس. والتنين الملعون راح ينفث ناره المستشرية في أتون كياني.. «وافتروا علينا ألف فرية.. خالتك أوقفت، وخالك أيضاً، وكل من جمعتنا به صلة من قريب أو بعيد. أحضروا من أقاصي الأرض.. لم يستثن منهم أحد..».

وقال مغتصباً نشوة نصر مفترى من غياهب مجهول بدا أنه يحمل

لهم وعداً براقاً يخيل وكأنه لا يمكن أن يخلف:

ـ «إنهم هنا!.. وإذن، فلنختصر الطريق!..».

أبداً.. هم لا يمكن أن يكونوا جريمة محتبسة داخل ملف حبلى أحشاؤه بالزور. ذلك تدليس وضلالة. وتبجح هذا المحقق إن هو إلا كومة ضباب. وعلى الرغم من أن وثوقه بظفره، يستمد قوته من مستقبلي هذا الذي سيصنعه بيديه، فإن عيبه، أنه سيعجز عن تحقيق ذاته من غير ماضيّ أنا وماضي من يزعم أنهم مدفونون هنا في أحشاء هذا الملف الضخم. فذلك الماضي بحقيقته الناصعة الفذة، هو ماضينا نحن.. هو ملكنا نحن. وحتى لو تحطمت مفاهيم وسقطت عقائد، فما حدث لا يمكن أن يتغير فهو مندبق في أقدام الزمن المنسلة مطبوع في أعقابها بملامح بارزة لا تمحى.

ومع ذلك، فإن الفكرة المستحيلة الرعناء كانت أبداً تطلق حسرتها في أرجاء النفس.. لا تتوقف.

ـ «آه لو يعود الزمن إلى الوراء ويصوغ الأحداث من جديد!..».

عدت أنا إليه. رغماً عن المحقق ولحظاته عدت. كان طريقه مزروعاً بالعوسج، سماؤه مكفهرة، لكن البداية كانت صحواً وبساتين يانعة نضرة، ثم في يوم ما، تلبدت السماء بالسحب. النائمون على الحب استيقظوا على نقيضه. كان ثمة عالم آخر لا يمت لعالمهم بصلة. اختلف كثيراً إلا في النكران. وفي كل العوالم يبصقون على الحب، لكن المهم أن يستمر الإنسان. وكانوا هم، حفنة من بشر طيبين. كان في مقدورهم أن يهبوا الغفران.. أرادوا انتزاع الشوكة من وجوههم ليزول الألم وليبقى الحب. لكنهم أخطأوا التقدير.

قد توهموا أن للإنسان حرمة.. حسبوه حراً يمكن أن يتحرك كيف شاء.. أن يمضي في هذا العالم.. يتسكع فيه من أقصاه إلى أقصاه، يدفن في أبعاده أحزانه، يهرب من الإساءة إلى الصفح.. في أقصى

الأرض.. ربما.. ربما ثمة كان النسيان.. والصفح.. والغفران.

بيد أنهم أخطأوا التقدير مرة أخرى. والرجل مات.. كان ما انفك يؤمن بأساطير طيبة وجميلة.. ومات وهو يردد: «.. من أجل الحب.. من أجل الصفح.. ابتعدوا كي يأتي الغفران..».

في عيني المحقق حدقت. رغم أنهما مخيفتان وقاتمتان، كعيني العريف «كوبي»، فإن المرء لا يقدر أن يغرق بداخلهما. هاتان العينان، كانتا ذبابتين وقحتين، تحومان من حولي في انتظار لحظة مواتاة.. لحظة تحطان فيها على أية بقعة مكشوفة من بدني، من أجل أن تبصقا عليها قذارتهما وجراثيمهما، وتجعلاها موبوءة. وأدركت أن اللحظة هذه، على الأقل، لم تكن طوع يديه. وكان جاهداً ومستميتاً في خلقها من العدم. لكن أقدامه لا شك كانت تستند على أرض سائبة هشة. الأغبياء، يحاولون دائماً أن يجمدوا الهواء ويخلقوا منه شيئاً صلباً. وهذا الرجل، ربما كان رغم كل ما به من ثقة، أحد أولئك. هذا الرجل، كان مصراً على إلباس الأكذوبة الشريرة لحماً وعظاماً، لينفخ الروح بها من بعد. ولبرهة عابرة لم أملك إلا أن امتعض وأوجف. إن للقمامة قدرة مذهلة، خارقة في الأحرى، على أن تخلق من عدم محض، أفظع مخلوقات حشرية قذرة. مع ذلك فالخاطرة كانت أسخف من أن تنافس موقفاً، كهذا الموقف، مغايراً وعلى أشد الاختلاف. وكان لا بدّ، في هذا الصمت الآني المعربد، من أن أدحضها وأفندها في إصرار. قلت:

ـ «لقد بددت الحقيقة كل الأوهام، وجميعهم خرجوا من غير وصمة.. ناصعين مغسولين تماماً».

وكان بارداً. واصطدم الإصرار بلوح من جليد قاس.. وقال لوح الثلج:

ـ «أعدك، بأنهم سيعودون. لن يبقى فأر واحد خارج المصيدة.. أعدك وسترى».

وأغرفت في الضحك رغم النفخة الزمهريرية. واللحظات ما فتأت تنسل من ثقب تفوح من داخله روائح مجهول، امتزجت بأبخرة أخيلة عفنة وكريهة. وأشياء ثمة، تتبلور إلى قذارة. والإنسان يضحي فأراً، والرغبة في الصفح، جريمة. وثمة أيضاً، هذا الوعد الخبيث، يقطعه لي رجل أضحى من غير قصد تماماً، وبالتواطؤ مع ملابسات غريبة، غريماً لي. وعد، لم أكن أحلم فيه، قبل أن تفلت هذه اللحظات المسروقة، من حياتي وحريتي، لأنني وبالرغم عن كل الأشياء، كنت لا أكثر من نفسي. ويسحب هذا الرجل اللحظات، فإذا بغمامة الالتباس الداكنة تتكاثف ثم تمطر كبريتاً. وتنهمر أسئلة مشبعة بشكوك، مشحونة بافتراضات، وابلاً صخرياً صلباً.. «ترى ألأنا أصبحت كل أولئك المساكين الحمقى، الممسوخين بتدبير إبليسي مقصود.. وفي لحظة حظ جبارة سقطت في أحضان هذا الجانب القادر البشع الخلقة من مشيئة الإنسان.. إلى محض مجرمين وفئران..؟!»..

ثم هذا الوعد المغرق في خبث طويته، لماذا هو الآخر أيضاً؟!..

ويقول الرجل في نفخة باردة صقيعية أخرى:

ـ «أعدك.. طالما أنت هنا..».

إذن؟!.. كلا. فالمغالطة كانت منذ قبل الأمس تلعب لعبتها المفرطة في القذارة هذه. هنا، أو أبعد قليلاً في الداخل، تتستر على أكثر من هاجس، وتغلف كل الظنون بغلالات عازلة، لتهب اللحظات المجرمة لهؤلاء، وهم يتلقفونها بجوع كاسح ليصوغوا منها أقداراً ومصائر، وليشكلوها دمى لغيلان، تكمن في ذات الإنسان الذي على صورته وهيئته تصور باريه. فهل كان بالإمكان أن أستعيد من أيديهم اللحظات القادمة؟!.. نزراً منها على الأقل؟!.. في هذه الساعة، كان كل شيء مشكوكاً فيه، إلا المغالطة. لقد كان ثمة السحنة هذه، للمستقبل التي بدأت تتضح. وهي سحنة بشعة يرسمونها بخطوط

لحظاتي المغتصبة، وهي في أيديهم. وكنت أنا مستميتاً في تحطيمها. لقد كان يجب أن اعترف بهذا اعترافاً كاملاً، من بعد أن نفث المحقق نفخته المسمومة الأخرى:

ـ «أنت ستعيدهم.. لأنك مستند الإثبات».

وصرخت:

ـ «بل سألحق بهم، لأنهم مستند البراءة».

وضحك. والغرفة قعقعت بالأصداء. بيد أن هذه، لم تكن مجرد بسمة تطورت إلى ضحك. البسمات في هذه الغرفة كانت ميتة. والضحكات الحقيقية لم توجد فيها مذ أضحى لها سقف وجدران. هذه، العاتية المقهقهة، كان صفعة. وللصفعة أنياب تعض بقوة. تنهش في البراءة وفي الحقيقة، فيختل ثباتهما، ويتذبذبان تحت وطأة رعدة حنجرته القاصف. ويكشر الوجه المترهل بالشحم، في قلب غياهب عتمة دامسة عمياء:

ـ «لن تتغير الأشياء بكلمة ينطق بها مجرم».

ـ «ولن يصبح البريء مجرماً بكلمة ينطق بها من يرى الناس كلها تسبح في بركة إجرام».

ظل يتفحصني وبدل أن يثور، استعاد هدوءه. وكنت مصطاداً داخل وجود ثابت متحجر. لحظة.. وطاولة.. وملف ضخم.. ويد عملاقة تعبث بقلم.. وفي داخل هذا الوجود الشركي، يكمن شرك آخر لا مرئي تتلاطم في أحشائه أمواج عكرة متشابكة عاصفة:

ـ «اعترف قريبك، ونكرانك محض مضيعة للوقت».

قريبي؟!..

ووخزة ألم في القلب. ومضيعة للوقت حقاً، أن أتفحص عيني هذا الرجل البدين، كي أتحقق من ارتفاع المعول إلى قرص الشمس. يقيناً، أن ذلك التافه، قد فجر قنبلة الخرافة والزيف. لقد شحنوا رأسه

الفارغ بالقاذورات. ملأوه حتى اختنق. ثم، بدموع تماسيح، وبضرام جنون حاقد لا تبرير له، أشعلوا الفتيل، وهناك.. ونحن غريبان.. وبحر الملابسات يطفح ويهيج. والغريبان قشتان في مهب ريح عاتية، وحاول ذلك العاجز التافه أن يفقد القشة.. أن يقتل.. أن يغرق في بحر إجرام حقيقي، مقابل كلمة ضالة قرأها في رسالة. واليقظة كانت أسرع. أنقذت نفسك وأنقذته من هلاك محتم. اليوم تكتمل أفرغ حلقة. تنسلخ حقائق، وتتألف في مواضعها حشود زيف. والحقد.. والرغبة المتهالكة في تحطيم الشمس.. والألم، وخزة يشوبها شيء من خوف غامض. فها بالحشرات جميعها تخرج من ثقوبها بجوعها المتهالك، منسربة في طوابير طويلة، بحثاً عن طعامها. الجيفة، إذن، لا مناص من أن توجد. وللاشيء، ينبغي أن تموت حقيقة مدفونة في أحشائك، كي تصبح أنت القوت الذي يبحثون عنه. هذا الموت.. برائحته الحامزة المتهالكة مع اللحظات المختلسة من إنسان، يتحفز وبغلمة يرهف كل كيانه، في انتظار أن يعبق الكون برائحة الجيفة. وأن تذبل ورود وتتلاشى عطور، ولا يبقى في العالم، شذى يفوح.

وللمرة الألف، تطل الأحداث من قبورها، بعد أن يتصلب الحاضر ويتوقف. وإذن، هل لا بدّ من المقاومة؟!.. ثمة أيضاً، حفرة الحقيقة المردومة بغبار الدقائق المنتزعة منك، ساعة اعترفت للزمن بقوة المفاجأة، وخسرت اللعبة مع الأيام.

اللعبة، كانت وما عتمت مغشوشة. لعبة خداع أتقنها الزمن منذ كان. سنة.. سنة كاملة، انفرطت منذ أن مات ودفن. كان يتفسخ في مثواه، وأنت من داخلك تتفسخ أيضاً. لا وفاق مع الموت!. النسيان، حقيقة فيما نريد.. خرافة فيما لا نبغي. كلا.. فالإرادة هنا، تسقط عاجزة مسلوبة الإرادة. وهو كان بمثابة الله، ومات، والحياة أضحت فارغة. والذكرى مرض مزمن ومبرح. في الأيام الأولى، هيمن ظل

الموت الأسود على الكائنات. فقدت تلك الكائنات ظلالها وشخصيتها ومغازيها. في الخارج وفي الداخل أشباح.. فيهما رفض قاطع، تشاكسه كوابيس اليقظة المستقية أصولها من عالم آخر محاط بهالة أسرار، قشرتها ترشح رهبة. ممسوحة القسمات. فيهما أيضاً، هواجس وخيالات مثل أنفاس تتصاعد من أعماق أوقيانوس شرس في هياجه وجبروته. ثم انزاحت قبضة عاتية، عن حجر جامد. دهم الحياة، إذاك، بكم وصمم وعمي وكساح. صوتها لا يسمع، ولا حتى ترجيع صدى. الحياة خدعة، ولا حقيقة إلا جريمة الموت..

وتململت داخل الشبكة الضيقة المتقاربة الأطراف. الطاولة.. والملف.. وجدار من لحم.. وأقوال تسجل على ورقة.. وعيون مبحلقة تترصد في محاولة لا تيأس للعثور على المقتل. لماذا؟.. طالما لا حقيقة ثمة إلا الموت؟!.. والأرض الطيبة لم تغضب ولم تحرك ساكناً. رسموا عليها خطاً ملعوناً. بدماء رسموه، ثم جعلوه فخاً يصطاد الحياة، وسلاحاً بيد الموت، الحقيقة الوحيدة اللعينة المنكودة. أفحقاً عرفوها؟!.. أعظم صفقة خاسرة تبرمها البشرية.! هل يعقل أنهم عقدوا مع هذا الموت، هذه الصفقة الرجسة ضد أنفسهم هم؟!.. والألم؟.. والأشباح؟.. والكوابيس؟.. والنصب المتكاثرة كجراثيم تنتشر دون هوادة، شاهدة على طبع الموت وجبروته.. الموت.. عدو الإنسان.. وحليفه الأعظم.. وشريكه الخائن المداهن، الرابح؟!..

ويتساءل:

_ «وماذا بعد؟!..».

وكان على وجهه انفراجة. ظل ابتسامة أيضاً، زائفة وتعتدي على حقائق. كذبة في باطن كذبة في إمعاء كذبة. وكلها مستخفة. لا يمكن أن ترتفع على ذاتها المتمرغة في تراب خداعها الذاتي. مستمرئة ذل السقطة البشرية، كي ترضي نزوة مستعصية خالدة في جبلة الإنسان.

غارقة في فضلات أنانيتها، وفي حضيض قمامتها الحاجب للنور الشاحب تقبع. ما الفائدة؟!.. أبداً. فالملامح التائه، في بحر من ظلمات، ما زال يمخر، متحدياً الزوبعة الشريرة. شامخاً ينتصب في وجه جبال الموج العاتي، غير مستسلم.. وحتى النهاية سيظل.. ينجو.. أو يفنى ويضيع.

تلك التي تزوجت كان بوسعها، لو لم تتزوج، أن تفتت الصخر وأن تفجر في أعماقه ينبوعاً. رغم الخدعة السمجة لجأت إليها لأواصل اللعبة المغشوشة. كنت فجاً ومراهقاً. مجرد طفل في الرابعة عشرة. وطريق الناس عمودية، تنفذ من خلال ثقب في أنبوبة مجارير. لا يمكن أن تتسيب. عندما لاحظ أهلها اهتمامها المتزايد بي، زوجوها. دفنوها في حضن شيخ مرتعش الأطراف. فالطريق المحصورة في تجويف الأنبوبة العمودية غير قابلة للانثناء أو الانعطاف. والسهم المستقيم المسدد، والموجه عبر المجارير، استقر في القلب المضرج. لم يكن ثمة نبع ولا قطرة ماء. كان هنالك خلاء جديد وظلام.

والآخر أحب كذلك. ليس لينقذ وجوده، بل في الأرجح تقليد. وقع في الفخ. عاطفة عشوائية مختلفة الاتجاهات كأهله. مزيج من مازوشية وسادية.. حب تعذيب الذات والغير كذلك. غرق في الشراب والقمار والدموع. أنقذته إلى حين.. توطدت بيننا العلاقات. كنا على طرفي نقيض وعلى تمام الشبه.. كنا في الواقع اثنين، في نفس الزورق.

هكذا تبدأ السقطات. اختلاس، أو سرقة ومجرد تسلسل، كالموت والمعاناة والفشل. ثم تأتي البقية الأفظع. إني الآن أتمعن في اللعبة المغشوشة، فيخيل لي أن خيوط الجريمة قد حيكت بعبقرية.. حبكت من دون تدخل مباشر لإنسان. ونحن عميان أقحموا إلى درب مليئة بالعقبات والحفر. والحول دار بسرعة. لم يبق غير أسبوع واحد

على ذكرى السنة الأولى. وإذاك، جاءني بالفكرة.. فكرة السفر إلى القرية الملعونة في أعلى الجبل.

فقال بخبث:

ـ «وإذاك أيضاً، تبلورت خطة الهرب..».

تجاوزت عن ملاحظته هذه وعن وجهه المهيأ للصيد. كنت غارقاً حتى رأسي في الملابسة هذه. هي في الواقع ورغم غرقي فيها ملكي.. كماضيَّ تماماً.. ولا أحد يستطيع انتشال أحدنا من الآخر.

جاءني بالفكرة قبل أسبوع واحد من ذكرى موت الأب. له في تلك القرية، أقرباء لمعارف.. تصور.. أقرباء لمعارف لا أكثر. وأنا، ليس فقط لم أكن أعرف مثله، أحداً فيها، لكني لا أعرف أيضاً أقارب أحد فيها. وفوق ذلك فلم أكن متحمساً للفكرة، لكني وافقت عليها. ففي غضون سنة واحدة، وقعت هنا جريمتان. وإذاً فقد كان الابتعاد عن موقع الجريمتين، ولفترة يومين أو ثلاثة أيام، ربما يحمل فرصة للنفس..

صرخ:

ـ «الفرصة في ارتكاب الجريمة».

قلت ورأسي مطأطئ في أعماق الملابسة الملعونة:

ـ «كانت الجريمة الثالثة، تتربص بنا هناك بالفعل».

ـ «جريمة حقيقية هذه المرة.. أعددت لها بذكاء، ونفذتها بذكاء.. لكننا أذكى من كل المجرمين يا..».

لا يا سيدي!. إن دعوتني «مجرماً» فأنت، غبي وأبله لأنك ستتحمس لفروض سرابية ستعجز مهما حاولت عن لمسها، إلا أن تلمسها في أعماقك.. فذاك شيء آخر، فأنت في الحالة هذه أشعبي في النزعة، تبني لك أطماعك قصور هواء فتصدق عينيك، وتطير إليها بأجنحة من وهم.. لا تفكر أبداً في السقطة التي ستعقب ذلك..

الارتطام بالأرض الصلبة حيث ستتهشم مع أحلامك المتناهية في قذارتها. وقلت:

ـ «يعجز ذكاء العالم كله، أمام خبطة الزمن الفذة هذه».

فغمغم بسخرية:

ـ «تابع رواية أسطورتك الممتازة».

في حياتي، لم أشهد قرية مضيافة كتلك القرية. كانت مع أهلها، دون ريب، جزءاً أساسياً من اللعبة.. الطعم في صنارة صياد ماهر. وثمة أشجار التين، تملأ عين العالم.. وثمرته التي أحببتها ناضجة وتقطر شهداً.. أرايت كيف يحكمون الفخ ويعدون للإيقاع بداخله.. لقد أحببت ثمرة التين مثل عذراء طاهرة ونقية. كانت هذه الثمرة حتى ذلك اليوم، هدية بريئة تحمل مع طعمها العذب حلاوة عطاء الطبيعة والخير بيد أني في الليلة الأولى عفتها وبعد ثلاثة أيام كرهتها إلى حد الموت.. اشمأززت منها إلى حد الغثيان. لقد استحالت التينة الهشة البريئة الطرية، في أيام ثلاثة إلى مجرد جيفة كلب منتفخة تطؤها الهوام أو تحوم عليها ذئاب وصقور آتية من كل مكان.

ـ «كيف؟!..».

ـ «لقد اتضح أنها الأخرى، المسكينة البائسة، لم تسلم من الجريمة.. ماؤها كان دم الإنسان، وغذاؤها بوله وفضلاته وقذارته..».

يفقد أعصابه شيئاً فشيئاً.. عاد وصرخ في أمر قاطع:

ـ «تركز في الموضوع ولا تتفلسف. أنت تضيع وقتي عبثاً..».

معذرة!.. معذرة يا مولاي!. ستفشل في إرغامي على المرور عبر الأنابيب العمودية.. يمكنك.. من ثم، أن تتهمني بجريمة أخرى.. ربما ستعاقبني أيضاً على طريقة كلامي وتفكيري، لكني أؤكد لك، ولن أتراجع عن تأكيدي على أن التينة المنكودة أضحت بعد أيام ثلاثة،

خلاصة رجس العالم. عليك إذن، أن تصدق أيضاً، أن القرية كانت غاية في كرمها وحسن ضيافتها. لكنك، ستفشل، مرة أخرى، لو حاولت إقناعي بطيبة تلك القرية. حسناً. أنت بنزعتك «الإنسانية» هذه، يستحيل أن تفهم. إذ كيف يمكن أن يكون الإنسان مضيافاً وكريماً، لكنه غير طيب؟!.. لكني أعود وأؤكد، أن كرمهم غمرنا إلى ما فوق الرأس. إلى درجة الإيمان بأشياء كثيرة تؤمن أنت بها. مثلاً، أن بالإمكان أن نغفر للموت.. ربما نصالحه. ربما، نعقد معه معاهدة وئام وشراكة.

كانوا أربعين عائلة. ونحن سنعود بعد أيام ثلاثة. بعد تلك الأيام كان العام سيكتمل.. وإحياء الذكرى لا بدّ منه. أنت تحيي ذكرى أعز ما عندك.. وعلى حساب سذاجتك، تتكون جريمة أخرى. جريمة ثالثة، الآن وفي هذه الغرفة، وفي عينيك يا سيدي، وفي طويتك، يصبح ضحيتها، سببها ومرتكبها الأول. والجريمة بدورها تتشعب لتغمر هذا العالم. وهذه هي يا سيدي الجريمة الأساسية، من مجموع الجرائم المرتكبة بحق طيبة وسذاجة الإنسان.. لكنهم كانوا أربعين عائلة مضيافة. وتنافسوا على إضافتنا.. والأيام الثلاثة ليست كالجرائم الثلاث تتسع لكل العالم.. ولهذا تنازعوا على حق الضيافة.. والأمر سوي أخيراً، فوافقوا على إجراء القرعة. وبأن تسهم كل عائلة بقسطها في نفقات الحفلة التي ستحييها على شرفنا القرية السخية المضيافة.. البريئة من الطيبة إلى حد الخبث.

وفي الليلة الأولى أقيمت الحفلة. والجبال هناك كالإنسان تنافس بعضها بعضاً. يقفز أحدها على أكتاف الآخر، وفي شموخ وغرور يتعالى فوقه. ونحن على جبل، لكننا نبدو في حضيض. ففي الطرف الآخر، وراء أفعى الطريق العامة السوداء، تعود الأرض فترتفع خلسة بين أشجار التين المتشابكة. قليلاً قليلاً، وبحذر تام ترتفع، ثم حين

تتأكد من أنها أضحت في مأمن، تمتلك ثقتها الذاتية، وتسرع في ارتفاعها بشكل حاد، وعمودي أحياناً، حتى تتشامخ من فوق، في أبهة عملاقية، جبلاً أشمَّ تتمرغ تحته القرية، كما قلت لك، على صخور القاع.

وهناك، بين أشجار التين، حيث الأرض تغافل الإنسان وتصعد، وضع هذا الإنسان، الحاجز الوهمي.. وكهربه بشيء يسمى.. العداء!..

بستان التين وراء الشارع المتعرج، مشطور. نصفه في هذا الطرف، ونصفه في «الطرف الآخر». لكن البستان في كلا طرفيه خير ومعطاء، وثمرته رغم حماقة الإنسان، لا تختلف في الطعم واللون والحجم. وفجأة في مكان ما من ذلك البستان، تتدخل يد الإنسان وتعتدي على الطبيعة. تشطر عائلة التين الواحدة إلى قسمين. في ذلك المكان بالذات طعنت أحشاء الأرض. والبستان هناك، ينز دماً بشرياً، وثماره تتشرب بهذا الدم وتغدو رجسة ومحرمة.

في الحفلة، تحدثوا طويلاً عن ذلك «الطرف الآخر» من البستان. جنة تسكنها عفاريت وأشباح. العداء شيطان يوسوس في النفوس. يملؤها ريباً وشكوكاً ومخاوف تستفحل أحياناً حتى تصبح جنوناً لا يمكن إيقافه أو شكمه. ترتفع اذاك، بنادق في جوف الليل. وبين الفينة والأخرى، ينتفض الظلام المتوجس، على صوت جلبة مشبوهة تتناهى من هناك. ثم تدوي طلقة نارية، تشق قلب السكينة الليلية.

في الآونة الأخيرة، عربد الشيطان. بشكوكه وخوفه وجنونه عربد. وبكل ذلك ضغط على الزناد. في العتمة المطبقة، اخترقت البستان، إلى «طرفه الآخر»، شرارة نار، اشتدت الجلبة. وسكون الليل عوى عواء ذئب مشؤوم، لم يلبث أن أعول. في هذا الوضع لا يمكن أبداً أن تنجو البراءة. ثمرة الجنون ضحايا. الضحية كانت، في المرة هذه،

صعقة تجتاح الحجر الكامن في صدر الإنسان.. صفعة لحمقه.. بصقة في وجه العداء الوقح الآثم! شابة كانت في ليل خطوبتها. جاءت مع صحبة صبايا، يحيين حفل الفرحة والحب.. يرقصن حول تينة، وإذا بالطلقة الهوجاء النارية تطلق صيحتها من أعماق جنون الإنسان الشرس الهائج.

والموت مرة أخرى. في صخب الغناء والفرحة يعوي. غادر متوحش، مجنون خطر لا مواعيد لنوباته، وأنت الآن تتحرش بهدوئه الطارئ وتثير هياجه، والنوبة تنتابه شرسة مدمرة. أنت إذن، تلعب أخطر لعبة.. تعابث الموت نفسه.. تحرره من قيوده وتقول له: انطلق!..

هكذا، سترى، أن احتفاء القرية بنا، لم يبرر طيبتها. فهي كانت شريكة حمقاء في لعبة العداء والموت.. أنت تقول: «كانت القرية في موقف دفاع». وأنا أقول: «إنها كانت في موقف غباء مطلق.. لا مبالاة مزرية».. فهي اندفعت في تيار النزوة، لم تحاول أن تفعل شيئاً لتصحح أخطاء الإنسان.. كانت جزءاً منه.. جزءاً من هذا الطرف ومن الطرف الآخر أيضاً، جزءاً من العداء، وحليفاً للموت كالآخرين. إذن فسوء طويتهم لم يمحه احتفاؤهم بنا، هذا الفخم المرموق، وتحدثوا عن الطرف الآخر من البستان، ورووا أيضاً قصة هذا الموت الأخير. وكان يبدو أنهم يتحدثون عن شيء أصبح معتاداً.. هذه المسلمة التي لا يمكن أبداً التسليم بها، تضحى في القرية شيئاً، من قبيل شربة ماء، أو إن أنصفنا، فمجرد كبوة، يكفي أن تنفض ثيابك من غبارها وتنساها. وإذن، فالشيئان كانا ثمة في الحفل، شيئان متضادان أبداً، لا يمكن أن يجتمعا. هل تفهم ذلك الحماس في الاحتفاء بك الذي ولكي يبهجك ويسليك، لا يتورع أيضاً عن أن يحدثك عن الموت الطائش الملعون، الذي أصبح محض عادة؟!.. كنت إذاك، أشعر بألم حاد. الصفو

طفت فوقه عكارة كدر، عزلت إحساسي عما يجري. فهل يمكن إذن لهذا النوع من الكرم، أن يجيز لنفسه، ولو عن غير عمد، تعكير صفو ضيوفه؟!.. مع ذلك فأنت أبداً لا يمكن أن تفهمني ما دمت تفكر على الطريقة «الإنسانية» المعهودة.

ويقول أحد أبناء القرية المضيافة، فجأة:

ـ «غداً سندخل البستان، نجتازه إلى «طرفه الآخر» ونبول هناك».

أقسم لك. وأنا لا أدعي أن ذلك كان يحمل سوء نية أبداً. فالحمق كان يحمله عنه. وكذلك العادة الغريبة هذه. أغلب الظن، أن هذا كان جزءاً من عدم الطيبة التي أصر أنا عليها، وتعجز أنت عن إدراكها عجزاً تاماً.

رغم كل شيء كنت طفلاً. لا ريب أبداً، أن ثمة بقية من طفولة، ما عتمت تتستر في زاوية من نفسي. في تلك الساعة تضخمت هذه البقية وغمرتني. وبسذاجة، ربما حمقاء، مضت تصفق للفكرة. أنا لم أنفذ أبداً من طريق أنابيب مجاريكم السقيمة المستقيمة هذه.. طرقي أخرى.. ملتوية في الأرجح، ولهذا ترتطم أبداً، باستنكار الإنسان. كنت أفكر في تلك اللحظة وبطفولتي الساذجة، وعبر طريقي المختلفة الملتوية، بأن ثمة وعد، في أن نجتاز حاجز الدم والعداء. هذا الوهمي الذي صنعتموه عبر أنابيبكم العمودية النتنة. وأنا سأجتازه أحمل معي حبي الطفولي، وأصبح جزءاً من الأرض الطيبة المشطورة، بعد أن تغدو هي، بتحد شاذ، ملتئمة من دون حواجز، وليزول من ثم هذا الظل الأبله المجنون الذي فلق الصخر، وبلا سبب فتح فوهة بركان ما زال ينفث دماً وصديداً إنسانياً.

طفل وساذج ومن أعدى أعداء الموت. والبول لم يحمل ساعتها أية دلالة غيبية. كان محض تعلة.. عن طريق التناقض، يمكن أن تبلغ أحياناً الطريق السوية.. وأقول لك، إنني قبل أن تتزوج تلك، كنت

أيضاً أتعمد البول في المرحاض المقابل لبيتها. وكان ذلك يتم بسرعة، لكن النظرات كانت تلتهب، والحب في الأحشاء يتأجج.. أرأيت إذن كيف يمكن أن يعقف التناقض تلك الأنابيب المستقيمة الرافضة للإنثناء ويطويها؟!..

ـ «حسناً. يبدو أنك قررت أخيراً أن تختصر الطريق. أمض.. وأوجز!..».

نظرت إليه. كانت تمازج خطوط وجهه، علامات رضى. بيد أنك يا سيدي مسكين!.. فأوهامك ما انفكت لا ترحمك. تغرر بك، كما تغرر بجميعنا اللعبة القذرة. إنها لا تهادنك لحظة. لكني أعلم، أن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تهادن الإنسان، وأنا أعذرك على هذا، مع أني لا أغفر لنفسي. ففي تلك الأيام كانت الأوهام ذاتها تتبجح، ولكن عن طيب نية. لا يصح للإنسان أن يستنتج من كل ظاهرة أموراً غاية في السخف ومع ذلك فأنا لا أشركك مع نفسي، لكي أغفر لك. ذلك أن السخيف دائماً يبدو متناهياً في منطقيته، شريطة أن يتطابق مع ما نهفو إليه. ولهذا كان الشعور، للأسف طيباً في اليوم التالي، من بعد أن تحقق الوعد. توغلنا في البستان. لم يكن في أدغاله الداخلية غير سلام وصمت. مع أصوات مكتومة لحشائش يابسة تتكسر تحت الأقدام.. أو.. أو تتحطم حين كنا ماضين في الطريق إلى اختراق الحاجز. لا جدار.. لا سلك.. ولا حتى علامة. لم يكن ثمة أثر للحاجز على الإطلاق.. بيد أنهم وعلى حين فجأة، توقفوا جذلين. كان هذا يعني أننا اخترقنا الحاجز اللامرئي فعلاً.. هم يعرفون هذا، لأن الحاجز في الواقع، مرسوم في قلوبهم هم.. في قلوب الطرفين معاً. وحين أعلن الرجل عن أننا في الطرف الآخر، وأن موعد البول قد حان، كنت أنا أسقط في بؤرة دهشة عميقة. سألت نفسي، وأنا أنسلخ عن بهجة تحدي البغضاء وحتى عن إحساسي الموارب بالحاجة إلى البول،

كتعلة، نفس السؤال المفضي إلى ما استنتجته وأنا أحدثك قبل قليل. «كيف؟.. وأية علامة تهدي القلوب إلى ذلك؟» وساعتئذ اكتشفت ما اكتشفته.. أجل.. إني أرفع صوتي في وجهك يا سيدي، وأؤكد أن العلامة في نفوسهم مرسومة.. عميقاً كانت محفورة بأظافر وحشية وسوداء كالليل.

أبداً.. لن أطيل عليك. إنك عدت تضيق بي ذرعاً.. أنت تتململ.. أعصابك الفولاذية تكاد تسيل. كان بودك، قطعاً، لو تجعلني صوت وجدانك الصادي المتلهف إلى امتصاص أنانيتك من جسدي.. إن عقلك، المحشور داخل الأنابيب، ممدداً بداخلها في استقامة وتعسف لا يمكنه أن يجلس أو يتحرك أو حتى ينفض ظهره، كان يسعدك أكثر لو قلت لك إنني مجرم.. أكبر مجرم في العالم.. وإنني اخترقت حاجز العداء عن سبق إصرار مورطاً معي غلاماً يكبرني سنتين. لو أقول لك، إننا ألقينا أنفسنا في أحضان «الأعداء» مدنسين الشرف والكرامة بإدراك صادر عن كامل قوانا العقلية؟! آسف يا مولاي!. فلو زلزلت الأرض، لن تسمع مني هذا. ذلك أمر لن يحدث رغم كل لعابك السائل داخل فمك وجوفك، يصدر عن رغبتك الملحاحة في وضع المفاهيم «الإنسانية» موضع التنفيذ الشامل، وبألا تحدث استثناءات.

حقيقتي هي أخرى.. لن أتخلى عنها رغم مصرعها.. تماماً كأبي. كان ما انفك يتمسك بإيمانه بالأسطورة حتى حين كان يحتضر ويموت. الأسطورة.. حق الإنسان في أن يتنقل.. في أرضه.. في الكرة الأرضية بلد الإنسان.

ومع ذلك أتناقض أحياناً. أكره. حسناً. جدير أن يُكره من يشهر معوله بوجه النور. لكن هذا عبء باهظ. حينئذ، سأنقض ظهري.. سأكره تسعة أعشار العالم.. سأصبح أطلس، أو الثور بقرنيه

العملاقين. . حسناً. . إني لا أخلو من نزوة. . نزواتي كثيرة أيضاً. . لكني لن أحتمل أكثر. ولهذا أتراجع.

أنت يا سيدي، لا تعلم، بأن في قرارة رأسي إصبعاً عجيبة في استطاعتها أن تمحق سيئات العالم. لا تعلم، كم من مرة، سترت هذه الإصبع سوءات من تهددني الآن باعترافاته عني. وأنه جدير بأن يبدو الساعة أكثر استحقاقاً للحب والعطف، وما دمت تحدقني يا مولاي، بهاتين العينين المتوقدتين وبقسماتك التي تقسو وتستحيل إلى قبضة مشهرة تتهددني هي الأخرى، فسوف أنقذك من غيظك، وأختصر الطريق.

الأيام الثلاثة، أسرعت مثل ماء زلال يهبط من منبعه العالي نحو المنحدرات. للأسف، أن أحداً، لم يدرك ساعتها هذه الحقيقة. أعني هبوط الماء الزلال إلى حضيضه الأزلي. لقد كان، على أية حال، ثمة إقرار اعترفت به تلك الأيام، بوجود أشياء جميلة تزاحم ذلك الحشد الهائل من نقيضاتها وتحاول أن تترك انطباعاً ما. وكنا متأهبين للعودة، يتخمنا الكرم، وترهق أيادينا سلال التين. والباص، واحد لا ثاني له، ويغادر المكان في وقت مبكر. وفجر ذلك الصباح، ولسبب لا يدركه إنسان، قرر أن يبدو ساحراً وودوداً ويحمل براءة تعد بالأمان والاطمئنان، كل الكائنات. ومن عجب، أن الظلمة ذاتها، المنهزمة أمام أطياف النور، كانت في ذلك اليوم مسالمة أيضاً. وفي الجو صمت يمكنك أن تسمع لو أرهفت اصغاءك فيه، أصداء قبلات ينثرها نسيم مضمخ بالنداوة وبرائحة التين والجبل، على وجوه منتعشة بلمسته حين يمر عليها لينفض عنها غبار النوم. ثمة، يستسلم المرء لأحلام منبثقة عن وعد وردي يفتح في أعماق النفس أشداقاً متفائلة نهمة لالتهام أحداث اليوم الآتي بشهية.

خرجنا إلى الشارع. كنا نحمل سلال التين. نحمل أيضاً نصف

ساعة من الانتظار. فالباص، لا يمكنك أبداً أن تزحزحه عن موعد طلوعه الثابت، وتجعله يخرج قبل هذا الموعد، حتى بدقيقة. الإنسان تعلم النظام الصارم، عن ظواهر عالمه، بيد أن الطبيعة العارية في ذلك الصباح كانت عجيبة في فتنتها، ولهذا أضاع الانتظار لوعته ومعاناته، إذ غرق في متعة متابعة مولد صباح جديد منزلق من أحشاء آفاق هذه الطبيعة الساحرة البريئة وعما قليل سيقلنا الباص العائد إلى السهل، إلى قلب الحياة الفارغة.. الحياة التافهة. القاسية. والفرصة نفدت. كل شيء ينفد أخيراً. وهذا الشعور، بالتهديد الذي تطلقه النهاية كشيء مؤكد الوقوع، يغرقك بمخاوف غامضة تفاجئك حين تكون في ذروة انتعاشك ونشوتك. وفي تلك الساعة، كان هذا الشعور على ما يخيل لي، يدس أنفه. وتمر عشر دقائق في محطة الباص. وفجأة قررت الجريمة الثالثة، أن تبدأ عملها. قلت له:

ـ «أشعر بحصر البول».

ـ «أنا أيضاً أشعر بالشيء ذاته».

ـ «لا أستطيع إرجاء ذلك. ست ساعات أخرى».

قال:

ـ «أمامنا عشرون دقيقة كاملة».

حقاً متسع من الوقت. في عشرين دقيقة، يستطيع إنسان واحد، أن يأكل ويضاجع، ويستمتع، ثم يفني العالم إذا شاء!. لكن هناك كان البستان وكان حصر البول. ونحن سذج أغرار. نخجل من ألا نستر عورتنا. وتجربة البول في البستان كانت ما عتمت برؤوسنا طرية أو قل متحجرة.. وأهون ما يخطر للمرء، أشياء ليست في حاجة إلى أعمال فكر أو إبداع. إذن، فالفكرة كانت مستلهمة من أحداث الأمس أو ما قبل الأمس. في مثل هذه الأحوال، حين تحاصرك أشياء، حين تسقط رغماً عنك في قبضة مفاهيم إنسانية لا يمكنك أبداً أن تبدع. وهكذا

فالعملية غاية في بساطتها. في غضون دقيقتين ستتم. هناك بين الأدغال بعيداً عن عيون الناس. والتربة ستشرب الماء الأصفر.. ونحن، سنتحرر من هذا الضيق الكامن في أسفلنا، الذي، كان بخبث متناه يجرنا إلى قلب الجريمة الثالثة.

وما أسرع ما انطبق الفخ. إذ ما أن دخلنا البستان حتى استحال إلى شبكة مفروشة لم تلبث أن انقبضت ونحن في أعماقها. وما كان يجري هناك، كان فوق كل عقل أو منطق. فالإنسان هو القانص الحقيقي.. لكن الأشياء الأخرى، هي برمتها الشراك والطعم.

الطبيعة في ذروة عرائها وسحرها. ستظل كذلك حتى تغدو الفخ الذي ينصبه الصياد، واذاك تفقد كل ما كان من طهرها وبراءتها. وتكتسب نية القانص الخبيثة.

منذ الخطوة الأولى داخل البستان، كنا قد سقطنا في الأسر. يد حريرية ناعمة كانت تدفعنا إلى الداخل.. الطبيعة في هذا الوقت الفجري أكثر نقاء. فهي الآن فقط، خرجت مستحمة من أعماق الليل. مغسولة بالطل. قطرات من ندى ما عتمت تبلل أوراق التين، تجعلها غامقة وأكثر خضرة وطراوة. والثمر مرتو بالرطوبة، منتفخاً يبدو، هشاً، نضراً، وشديد الإغراء وحتى الأنفاس كانت مشبعة برائحة خضراء والأشياء تفيض إرهافاً سحرياً، مقتحماً نفاذاً. وبأيدينا سلال التين.. فقدت محتوياتها، لم يبق منها غير عبء باهظ يشد أذرعنا ونحن نفج الأشجار المتشابكة، نقطف من هذه تينة، وتينة من تلك. والدقيقتان أضحتا خمساً. ربع الساعة فيها كفاية، ما دمنا فعلاً شرعنا نبول.

التينة التي رويناها ببولنا كانت شامخة ومتينة.. عجوزاً في الغالب. واحدة، من آلاف أشجار.. قد تختلف عن بعض أبناء أسرتها بالحجم.. لكنها كأبناء الأسرة كلهم، صامتة خرساء، تعجز عن إبداء رأي، سواء بالماء سقيت.. أو بالبول أو الدم البشري.

في تلك الساعة كان يكتمل رجس الثمرة. قلت إن التينة، كانت عاجزة عن أن تبدي رأياً.. ولعلي أخطأت. ففي اللحظة تلك بالذات.. كانت نفس الشجرة العاجزة الخرساء، تنقلب إلى غول له آلاف أذرع، تتلوى. كان ثمة مسخ رهيب من صنع آلة أهوج. بعبع قد نفخ صانعه فيه روحاً شريرة، تمتص الأرواح الخيرة، وتسحر الجمال كله إلى كتلة من قبح ودمامة. ولا تكتفي بهذا كله، إذ كانت توقظ ذلك الشيء النائم بغطيط على بساط الطبيعة لتشحنه بمغزاه ومعناه.. العداء! فجأة، ظهر إنسان. كان يرتدي زياً قروياً من أزياء «الطرف الآخر». كأنما صعد من أعماق الأرض. كان يقف أمامنا وجهاً في وجه. والعالم وجل وجفل كله. الهواء تلوث بأنفاس هائبة متوجسة. تراجع كل منا خطوتين على أعقابه. ثم تزاحمت البديهة مع وقع المفاجأة. وكان يخيل إليّ أنها أقوى من موقفنا الطارئ هذا.. كان موقفاً مصطنعاً لا شك. زيف يحط فجأة، وبوقاحة سمجة يحاول أن ينزع عن الأشياء حقائقها الخالدة. وكان لا بدّ من قشع هذا الزيف. ولا مناص من وضع الأمور في مواقعها، بعد أن غيرت أماكنها التي اختيرت لها. في الواقع لم يكن ثم ما يدعو إلى الارتباك أو الخوف. إنسان يقابل إنساناً آخر في محض الصدفة.. ماذا في ذلك؟!.. والفكرة البسيطة الخلوة من كل تعقيد، عادت تغمرني ثقة، وأنا عدت وتقدمت من الرجل القروي ويدي مبسوطة أمامي نحوه، وعلى ثغري ابتسامة. لكن الرجل ظل هلعاً.. تراجع مرة أخرى.. أمعن في التراجع.. وحين تحررت من عقدة لساني وحييته، كان ما عتم أخرس مرتجفاً. في الواقع، كان يبدو أنه لا يواجه إنسانين مثله، بل ربما شيطانين. وكان في الحالة هذه يتخذ موقف دفاع، ويتحسس شيئاً في جيبه.. وعندما عثر على ذلك الشيء، فيما يبدو، صاح بصوت يختلط فيه السخط بالرهبة:

ـ «ماذا تريدون منا؟!..».

ـ «نحن غرباء.. وأصدقاء..».
لم يصدق بالطبع.
ـ «ألم يكفكم أن قتلتموها؟!..».
ـ «نحن لم نقتل أحداً.. أقسم لك».
ـ «كلا.. بل قتلتموها.. وهي على هذه الشجرة تغني للحب «عتابا»».
ـ «لم نقتل أحداً.. لا نريد شيئاً منكم.. ضللنا الطريق.. دعنا نعود».

وجهه كان كصوته. خليطاً من غضب وألم.. رغم كل ابتهالاتي المكتومة إلى الله، في أن يلهمه الفهم، لم يفهم. كان يتشبث بالشيء المتخفي بين ثيابه.. يشد عليه بقوة.. صاح:

ـ «ماتت قبل أن تكتمل العتابا.. وانقطعت كلمات الحب».

ماذا دار في خلدي تلك الساعة.. أي شعور خالجني؟!. في الأحرى أني كنت من غير شعور أو أفكار.. أو أني، فكرت بألف فكرة وأحسست بألف إحساس. كنت لا شك في أعماق شبكة داخل ألف شبكة.. موقف لا أتمناه لك بالرغم من أن أفكارك «الإنسانية» كانت ستساعدك، وتدلك على المخرج من المتاهة الملعونة.. أنت بالطبع ما كنت ستقول للرجل القروي ما أنا قلته له، ما استخرجته من قلب الحيرة، ما كان بديهياً لي، حتى في باطن المتاهة الملعونة التي صنعتموها.. كل منكم صنعها، وكل منكم قذف بي إلى أمعائها المرتبكة.

ـ «لولا عداءكما الملعون، ما كانت تنطلق الطلقة الطائشة في أعماق الليل، ولما مات أحد».

بيد أن الرجل، كان من الطرف الآخر ولا فرق بين هذا الطرف أو ذاك.. في المفاهيم الإنسانية، المنسابة من الأنابيب العمودية النتنة..

لكني أؤكد لك، أن أحداً لا يمكن أن يلقي باللوم عليه.. فلقد كان مقتنعاً.. بالتأكيد أنه لم يفتر أقواله.. كان يؤمن بها إيمان عبادة.. كالكل.. من هذا الطرف، أو ذاك.

ـ «أنتم قتلة أولاد قتلة.. وجئتم لكي تقتلوا المزيد من الناس».

إيمان كجذور الشجرة التي حلت فيها اللعنة. راسخ وناشب في أعماق الصخر.. ينهل من الدم المسفوح، وبولنا الذي أرقناه الساعة. والكلمات. الكلمات التعسة المقلمة الأظافر، كلماتي العزلاء تصارع الزمن والفخاخ المنصوبة، والأحجار عاجزة عن زحزحة الجذور الماكنة الضاربة في الأعماق. كان موقف، نتحمل فيه كل أثام البشرية تلك التي لم نشارك نحن في صنع أي منها. لم يكن ذلك إلا قفص إتهام نقف وراء قضبانه، مهددين بخطر الإدانة بجريمة كنا نعارضها ونستنكرها في إصرار والمحكمة غاصة بمناقضات وملابسات كثيرة في حين أن الوقت يلعب دور البطولة.. دور الحاكم بالذات.. لكن زمام هذا الوقت كان قد أفلت من أيدينا. كان يمضي في حرية يسحب معه سخريته واستهانته وعدم اكتراثه.. وكان همنا الوحيد هو الإفلات من هذا الفخ واللحاق بالباص العائد إلى السهل.. وفي حوزتنا سبع دقائق أخرى. وكل ما في العالم من مشيئة الإنسان اجتمع في تلك اللحظة ومضى يحوم حول الدقائق السبع. كان من المستحيل أن أتصور وجود قوة مهما كانت يمكنها أن تسلبني حقي في إحياء ذكرى الرجل الذي أحببته وعبدته. ثم على حين غرة طائشة، انهتك الوهم. وإذا بالقوة هذه، موجودة. وهي تجاذبنا بأنيابها ومخالبها وطاقاتها الرهيبة. ونحن في أعماق الفخ. والإفلات منه يتطلب أولاً تحطيم مفاهيم.. إثبات حقائق كانت محاصرة كلها ومن جميع جوانبها بإطار من دم. وكان الوقت لا يرحم.. وبدا أن تحطيم الإطار الملعون، قبل انقضاء الدقائق السبع، ضرب آخر من مستحيل. بل هي ست دقائق أثرت. ونحن حبيسا فكي

كماشة، طرفاها مستحيلان. والزمن الناهب، يضحك بتشف من حمق البشرية، ومن الأخطاء المتراكمة سداً أبداً لا يمكن هدمه في بضع دقائق. آه لو تجمدت الدقائق الخمس الباقية كي يمكن هدم الحاجز.. آه لو تأخر الباص حتى يقتنع الرجل.. لو تعطل.. لو تأجل سفره ساعة أخرى.. ساعة مجهولة ضبابية الجوهر.. مع ذلك فلعل فيها يمكننا تصحيح أخطاء أفكاره.. غسل الأدران الرجسة.. وإثبات براءتنا.

بيد أن أغصان شجر التين ارتعشت فجأة. فرت من أعشاشها العصافير مذعورة. العالم، اهتز على صوت فرقعة ثقبت كل الأمنيات والأحلام. كانت الفرقعة طلقة نارية توالت على أثرها طلقات. وتجمدت الأطراف والأفكار والآمال. خفقات قلوب تسارعت لاهثة تلهبها سياط من رعب. ووراء الحماقة الكبرى كان الزمن يتخفى ماضياً في طريقه، يفعل كل ما يحلو له، من بعد أن انفصل عن الإدراك.

صاح القروي: النجدة لم تتأخر. امتلأ البستان برجال الدورية. رجال من «الطرف الآخر» ببزز صفراء. في القمة وقفت سيارتا جيب. أخذونا إلى إحدى السيارتين. قبل أن نستقل السيارة، نظرت إلى أسفل. كان ثمة حية فاحمة السواد تتلفت بين منعطفات الجبال، ومكعب أخضر مستطيل يزحف على ظهر الأفعى. يدب باتجاه الجنوب ولا يتوقف. كانت تلك لحظة الصفر. الوقت انتهى. انتهى الممكن والمستحيل. نحن في «الجانب الآخر».. في العالم الآخر.. بين العالمين يفصل خط مكهرب بالدم والعداء.. لقد أسدل الستار على أول مشهد، من مهزلة الرجس.

الفصل السابع

الحقيقة ما كنهها؟!.. في أي كهف مهجور تقطن؟!.. في أي سماء؟.. في أي أرض تكون؟!..

مبتلع في خطواتي العشوائية وفي هذه المعضلة. والكون من حولي يتقلص، ثم في مكان ما بداخلي يعود وينتشر. ويختلط الوجودان في فوضى ويستحيلان إلى مزق رمادية تسبح في فضاء الزنزانة. هذه الزنزانة. قفص في أحشائه تتبدد أفكار وحرية وأنفاس ونبضات قلب. ولم يعد باب القضبان المفتوح يعني شيئاً. أطبقته بكلتا يدي كي أقترب من الحقيقة. ترى ماذا تعني هذه الحقيقة؟!.. حملقت في اللاشيء محاولاً اقتفاء أثر ما لها. والنهار لم يحضر بعد. كان وراء كوة القفص جذلاً يمرح. وهناك على الجبل وفي الوادي وفوق صفحة البحيرة، يحتوي الكون بملايين أذرعه الناصعة، ثم تتطاول يد النهار الفضية وتمتد عبر الكوة الضيقة تحمل لي زهرة من نور. وأمد يدي لالتقاط الزهرة، إلا أنها سرعان ما تذبل قبل أن تنتقل إليّ، وينطفئ النور. هنا، لا يعيش إلا الظلام والشياطين. إنه النهار، وأنتم من فصيلة البوم والخفافيش، فكيف تتجرأون على خرق القاعدة؟..

قالوا:

ـ «بالنسبة لنا لا توجد قواعد».

تساءلت:

ـ «والحقائق؟!».

قالوا:

ـ «هي ملك من يخلقها ويفرضها فرضاً».

ـ «حتى لو خلقها من الكذب؟!.. من الزيف والباطل؟!».

قالوا:

ـ «إن كان يراودك الشك، فتأمل ما يحدث وتأكد».

ـ «ليلة السرداب كنتم صامتين والآن تبالغون في الثرثرة».

قالوا بتبجح:

ـ «كلما ضعف الإنسان، ازددنا نحن قوة».

أفحمت. ثم في الصباح وقع قاضٍ عسكري على قرار تمديد فترة توقيفي. وقفت بينهم مثل دمية خرساء وفكرت بالحقيقة والقوة. وكانت تجابهني معضلة منطقية مرهقة. فأي الاثنين ينتزع وجوده ورداءه من الآخر ثم ينتصب متلفعاً بذلك الرداء؟!.. اليقين يتدهور. ضاع في شتات الإدراك أو في هوة العدم. لا يبقى إلا الأطياف، وهوة عين كوبي امتلأت وتلألأت. كانت على سطحها فرحة ترقص برغبة بهيمية على وشك أن تتحقق. فرحة مصرة على اغتصابي «قوة» كانت «حقيقية» حتى الأمس، وأن تجردني من «حقيقة» كانت «قوية» حتى الأمس كذلك. وكان قريبي يمتلئ هو أيضاً بأشياء متضاربة. وتحت الكوة أنهيت مطافي وجلست بعد أن واجهتها أكثر من مئة مرة ثم أدرت لها ظهري. وكانت الشياطين تتزاحم هناك وتتحدث عن الحقيقة وعن القوة والضعف. أية ضلالة؟!.. وأطلت كذلك ليلة السرداب. اللحظة المتجلدة والثدي البض المشرع والبرد. وتحت كوة الزنزانة كنت الآن أكفر بتلك الأشياء وأبارك للآخر رعبه المجنون وتطلعه النافذ الصبر نحو الآتي المجهول. يومئذ كنت مليئاً بالقوة والحقيقة أما هو فكان متخماً بالزيف يستبق به الزمن بحثاً عن هذه الساعة، وتحقق الزيف وفشلت

الحقيقة، وضاعت المقاييس ليستأثر قريبي أخيراً بكل الأشياء.

وانجابت عن وجوه الأشباح الغارقة في الضباب، سحابة، فاتضح في اللايقين وجه ذو سحنة معروفة، وانداحت قسمات متغضنة غاضبة.

وأشار صاحب الوجه إلى أرض الزنزانة وقال:

ـ «في هذا المكان سوف تنتهي حياتك.. هنا ستحفر قبرك بيديك».

وسألته بسذاجة وبخوف:

ـ «لماذا؟!».

فصر على أسنانه وهمس بفحيح:

ـ «كلانا يعلم أنك كذبت على المحقق».

فسرى الرعب في جوفي كتيارات قشعريرة، وتعثرت وكبوت.

ـ «يجوز أن الذاكرة قد خانتني».

فقهقه مكابراً:

ـ «ليلة السرداب أردت تذكيري بأشياء، وحان الآن دوري لأذكرك بأشياء أخرى.. هل تسمعني؟!».

ـ «لو كنت تعلم بأني أملك الخيار لما تجرأت».

ـ «لقد خدعتني وغررت بي، يا وغد يا حقير..».

ـ «لم أخدع أحداً. كنت بكامل قواك العقلية».

ـ «.. أنا وعقلي وإرادتي كنا غارقين حتى الرأس في مشكلة، وعوضاً عن أن تخرجني منها ألقيت شباكك في الماء العكر ثم اصطدت».

ـ «كلانا كان بحاجة لأن يهرب من نفسه».

ـ «ذهبنا إلى القرية ونحن نضمر الغدر بأهلها الطيبين».

ـ «كيف تتحدث عن الغدر وأنت تغدر بي كل ساعة؟!».

ـ «قول الحقيقة ليس غدراً أيها المزور للحقائق».

ـ «الحقائق؟!.. أين هي الحقائق؟!.. لقد ضاعت منذ عام ونيف».

ـ «لا تراوغ واعترف أن الخطة اكتملت ساعة بلنا في الجانب الآخر من الحدود».

ـ «أبداً. لم نكن واثقين من شيء أبداً حتى اللحظة الأخيرة».

ـ «لهذا أبرقت إلى إسحق شرفنطح وطلبت منه القدوم فوراً».

ـ «إسحق الكاذب؟!.. ضع ثقتك في المستحيل ولا تضعها فيه».

ـ «أنت تقول هذا لأنه خذلك ولم يأت».

ـ «خذلني.. خذلك.. أنت تهذي..».

ـ «أنا لا أهذي.. أنت سلبتني عقلي وإرادتي وصيرتني لعبة بيديك».

ـ «لكنك تعلم بأننا كنا عائدين لإحياء ذكرى أبي».

ـ «لا تنس أني كنت معك.. لا تحاول أن تبيعني أساطيرك كما بعتها على المحقق أيها المفتري».

ـ «إنك أنت المفتري والمتقلب والتافه».

ـ «قل ما شئت، فكذبك على الأحياء والأموات فاق كل حدود».

ـ «إنك تهذي.. تعلم جيداً بأني أجللته في حياته وفي موته».

ـ «ومع ذلك كذبت عليه وعلى المحقق،..».

ـ «ربما كانت الفرصة كما قال المحقق، لا يمكن أن تعوض».

ـ «واخترعت أيضاً أكذوبة حصر البول والبول».

ـ «بلنا فعلاً قبل أن نلتقي بالقروي».

ـ «بعد أن تسلقنا الصخور ولهثنا كالكلاب الظامئة، من الخوف والتعب».

ـ «كانت الطريق شاقة. تخلصنا من سلال التين. وتركناها تحت شجرة ومضينا نتعثر لاهثين متوجسين..».

ـ «ثم ظهر القروي فجأة. أنا مت بجلدي عندما رأيته.. لكنه كان ودوداً وطيباً..».

ـ «أنا كانت جرأتي أسطورية.. اقتربت منه وصافحته وهو ترحم على الفتاة المسكينة واستغفر لأهل القرية ولعن العداء. هذا الساذج البسيط، كان يفهم الأمور أكثر مما يفهمها الساسة».

ـ «ثم بخبثك، بصقت على تلك الطيبة.. كذبت على القروي وظلمته.. قلت للمحقق إنه سمانا قتلة وهددنا بالمسدس ثم سلمنا للدورية..».

ـ «لم يكن يحمل سلاحاً؟!.. ربما.. ودللناه على موضع سلال التين.. ثم في أعلى الجبل، صادفنا مجموعة من الصبايا يحملن الجرار ويمضين إلى النبع.. أصواتهن العذبة وهي تلقي علينا بتحية الصباح ما زالت تعزف في رأسي».

ـ «تسكعنا ساعة، ثم ركبنا الباص، وعند إحدى نقاط التفتيش ألقي القبض علينا».

ـ «وفي المخفر، أطعمونا وسقونا وأعدوا لنا فراشاً دافئاً في الليل».

ـ «ثم احتميت أنت وراء صغر سنك، وتركتني أتجرع الأمرين يا وغد».

ـ «أنت تبالغ. لم نفترق إلا يومين.. وكنت قلقاً عليك إلى حد الموت..».

ـ «وبعد أن دفنونا في ذلك القبو المظلم الرطب في أقصى الشمال ستة شهور كاملة، أدركت الحقيقة واستفقت من الخداع».

ـ «ولذلك حاولت قتلي. أكثر من مرة حاولت ذلك.. لا.. لم يكن ثمة خداع لتستفيق منه.. بل هم خدعوك.. كلمة واحدة في رسالة خدعتك».

فقهقه عالياً وتشدق يقول:

ـ «كلا.. لقد فات الأوان. لم يعد باستطاعتك جري إلى التسليم بحمقي وتفاهتي.. وما عليك إلا الاعتراف بالحقيقة».

ـ «أية حقيقة؟!».

ـ «إنك أنت الأحمق التافه الذي حفر قبره بيديه».

وارتعدت فرائصي. انتفض بدني مثل غصن شجرة تؤرجحه ريح عاتية. وكنت ساقطاً في قلب بحر يعج بمخلوقات جائعة مفترسة. من كل جوانبي كانت هذه المخلوقات تحاصرني وهي تستهدف لحمي. والوجود في الخارج تلاشى، فلم أشعر بمحمد وهو يقتحم عليّ الزنزانة ويدخل. وحين نبهني إلى وجوده، كنت أقفز من قاع وسواسي المظلم وأعود إلى الحياة. وبادرني بدهشة:

ـ «وجهك ممتقع وبدنك يرتعش.. فهل تشعر بسوء؟!».

فتمعنت في وجهه الوديع الجزع من أجلي، وامتلأت حباً وقلت لمحمد:

ـ «إنها الحيرة يا صديقي».

وتكوم بجانبي. وكنا منحشرين في أقصى الزنزانة. كان ثمة على ما يبدو قوة خفية تدفعنا إلى الالتصاق بالجدار البارد، وتود أن نندفن في أحشائه الصلبة. وتساءل:

ـ «مم؟!».

فقلت محاولاً أن أجد الدفء في أحضان البرد والرطوبة.

ـ «إني أتساءل، إن كنت وقريبي قد ضللنا الطريق حقاً، أم اجتزنا الحاجز عمداً وعن سبق إصرار؟!».

حدجني بشك وغمغم في شبه بلاهة:

ـ «أنت أدرى بذلك مني بالطبع».

وضحكت ضحكاً طرب له الزيف المهيمن، وقلت:

ـ «أكاد أقتنع بأن الأمر كله ليس إلا أكذوبة سمجة من أكاذيب خيالنا البشري، مثل حكاية جارك الذي شاهد المارد وحاول أن يقتله».

فاعترض في إصرار:

ـ «حكاية جاري ليست أكذوبة. لقد شاهد الرجل المارد وأطلق النار عليه، فاختفى المارد وجن الرجل في ساعتها وما زال مجنوناً».

ـ «المضحك أن تصدقوا رواية حكاها رجل فقد صوابه ولم يشهد عليها أحد سواه».

فاحتج محمد:

ـ «لا تقل وحده كان حماره معه ورأى كل شيء».

وسقطت الضحكة الجديدة، بعد أن دوت، في مهاوي السهم. فالضربة الطائشة تفضي هذه المرة إلى حكمة للحياة كثيراً ما يضل المنطق طريقها. هل يكون هذا إذن، هو الطريق الوحيد المؤدي إلى الحقائق الضائعة؟!.. ربما. فإذا فقدنا الحقيقة في درب المنطق فلا بدّ أن نبحث عنها في درب اللامعقول.

وبرثاء تطلعت إلى وجهه البرونزي المنمش. هناك حيث تتكاثف الطيبة المتاخمة للغباء، فتلوا هذه الطيبة حبلاً وضعوه في عنقه ثم سحبوه إلى شرك الموت. هكذا فعلت أنت بقريبك ذلك الملاك المعذب بالطهر. ألقيت به إلى هاوية الرجس واعتديت على ملائكيته. سقطات تنتهي بارتباك المنطق وضياع اليقين. وها هو محمد الطيب يعاقب على طيبته والطيبة تولول ضارعة مطالبة بحقها. تلعلع على لسان قريبك، وتشير إليك أنت. أنت الشيطان المتسبب في مصرع خير العالم كله. غول أقام الدنيا وأقعدها. أنت واضع الحواجز وخالق الخلافات ومؤجج الحروب وزارع الدمار.. فمرحى لبولة صيرتك أعظم مجرم في الدنيا!.

وقلت لمحمد فجأة:

ـ «إياك أن تستأنف الحكم يا محمد».

وتوقعت أن تملأ دهشته الزنزانة، بيد أن وجهه نم عن ارتياح وقال ببشر وسعادة:

ـ «خشيت الاستئناف دائماً، وها بك تحذرني منه بعد أن كنت تشجعني عليه».

ـ «ما الذي أخافك منه يا محمد؟».

تطلع في السقف. وتابعته إلى هناك. بقع متغايرة الألوان بين الأسود والأبيض كانت متناثرة على هذا السقف. أشكالها بلا نسق. لعلها ذرق غامق قذفته الشياطين إلى أعلى في أوقات مختلفة، فالتصق بالجدار الفوقي منبسطاً على أشكال غريبة. وكان المصباح الكهربائي طامساً في حفرة داخل السقف، ومن أسفل تطبق عليه شبكة معدنية مفلطحة، وغبار كثيف يكفن المصباح بينما ثقوب الشبكة مغلفة بخيوط عناكب متخمة بالتراب. ولأول مرة أدركت كنه تلك الظلال الكركمية المبثوثة ليلاً من السقف إلى أرجاء الزنزانة، وهي تمهد الطريق لرقصة الشياطين. وقال محمد:

ـ «زميلي الذي كان معي، استأنف فضوعفت مدة حبسه».

فوجئت. وفي السقف لم يكن غير صمت وقذارة وبصاق شيطاني ومصباح عتم وضع ليخدم الجنون والشك. ترى لماذا دفن محمد ذاته في كل هذه الأشياء قبل أن يدهمني برده الحاضر المخزون في جمجمته التعسة، جاهزاً مثل كفن أعد بعناية لكل الأشياء الطيبة؟!.. وفوجئت مرة أخرى من هذا التوقيت الطائش البارع في اختيار الوقت الأكثر ملاءمة في تعميق فصام الأشياء، وتمرد الحقائق على نفسها والقضاء على تحمسي للعدالة. وبذلك الشك بكل ما هو كائن مضيت أتفحصه. دائماً لم يكن مقتنعاً. بيد أن إلحاحي عليه بالاستئناف، جوبه بصمته. محمد لا يمكن أن يكون داهية يتخفى بلبوس بلهاء. رغم ذلك بقي

الكفن مطوياً ومحفوظاً في صندوقه المغلق، غائباً عن أنظار وهمي المؤمنة بالمعجزات، حتى نبش القبر وأطلقت الشكوك عويلها المشؤوم معلنة عن موت المعتقدات بأسرها. الآن ينضي محمد الكفن ويه يلوح. أي خبث هذا؟!.. بل أي ضحك على الذقون؟!.. كان الغش إذن يتسرب إلى كل الأبعاد.. وخشيت من أن يحرمني من هذا الإنسان الوحيد الذي تبقى، فتريثت في الحكم متخيلاً صورة للموقف. وكان الخروف يتلاشى ليبدو من ثم شكل دمية لإنسان فارغ لا عقل ولا إرادة له. وثمة يد لا منظورة تحرك الدمية وتدفعها نحو مسلك قذر بعد أن تعبئها بطاقة من الكيد واللؤم والجنون. إن البشر المفرغين يمتلئون بالجريمة. والطوايا الحسنة يدركها الفساد بلا قصد والضحية توضع في قفص الإتهام. وتُحاكم. إنه الزيف بكل قوته.. وعبثاً حاولت العثور على تلك اليد الخفية الناشرة لهذا الزيف بدأب لا يتوقف.

ـ «لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟!».

حك رأسه. تلكأ. قال بحزن:

ـ «خشيت لو حدثتك من أن تشك بما رويته لك من قصتي».

ـ «ولماذا أشك بك يا محمد؟!».

ـ «لقد شككت بالفعل بنوع البضاعة، واعتقدت بأن ثمة في الأمر مواداً خطيرة.. أقسم أنها كانت مجرد ساعات».

فقلت وأنا أحملق بالبقع القاتمة المبهمة الأشكال على السقف:

ـ «الأرجح أن المواد المخدرة كانت معبأة داخل الساعات».

وبادرني محتجاً في محاولة لدحض فكرتي.

ـ «لكن الساعات كانت تعمل.. لقد سمعت التكتكات بأذني.. وأنا مستعد لأن أقسم بالمصحف على ذلك».

فاحتويته بنظرة رثاء وقلت:

ـ «أصدقك. ولكن أليس من الجائز أنها ساعات من نوع لا يعمل إلا بالهيروين أو الأفيون؟!».

فتساءل باستغراب:

ـ «أويوجد شيء كهذا؟!».

باقتناع قلت:

ـ «لا أدري. لكن من المستحسن أن نبحث عن مبررات معقولة لما يحدث».

بعسر تململ. وطلعته اتضحت حيوانية وتبحلق في أشياء ليست مرئية لكنها تفرض إحساساً ثقيل الحمل. وترك هذا الإحساس توتراً ضالاً ومعذباً على وجهه. ولاحظت أنه يهم بالحديث ثم يعدل عنه إلى هذا الصمت الذاهل المشف كأنما عن أفكار قد تصلبت أو تجمدت في رأسه. وكان يجب أن أنقذه من هذه المتاهة الجديدة:

ـ «محمد. خير لك ألا تفكر أو تسأل».

أطرق. انبسط وجهه محمراً في حياء. همس:

ـ «حاولت أن أفهم ما قلته فلم أوفق».

فضحكت وطمأنته:

ـ «لا ضير في ذلك. فالإنسان كثيراً ما يتفوه بأمور لا يفهمها بنفسه، وما قلته الآن لك هو من قبيل هذه الأمور المستحيلة على الفهم».

وتطفل صوت مستفسر من خلف القضبان:

ـ «أية أمور تلك التي يستحيل فهمها؟!».

كان ثغره منفرجاً إنفراجته المعهودة. وجثته الضخمة تقف دون قصد في طريق أذرع النور المحاربة للعتمة، ومثل سيف باتر تقطعها. والتصقت في تلك البسمة، بسمته هو. وهي ملتصقة في وجهه مثل أنفه أو فمه أو عينيه. لا ريب أنه شديد الحرص عليها، وأغلب الظن أنه لن

يتورع عن أن يفعل كل شيء من أجل ألا يفقدها. هكذا، كان لا يمكن حتى التفكير في محاولة اقتلاعها من وجهه وزرعها في وجوهنا نحن، إذ ما أسخف الفكرة؟!.. وقلت بعد أن عدت إلى نفسي وسؤاله:

ـ «الحياة يا سيدي».

وكانت بسمته تتعمق في حين كان محمد يهم بمغادرة الزنزانة. ولم يكن يبدو أنه مقتنع بما قلت، إذ لم يلبث أن قال ببساطة: «إن ثمة من يعقد الحياة بنفسه ويهبها الفرصة لإلقائه وراء القضبان، وإن ثمة قواعد ثابتة لا ينبغي أن ندعها تفلت من بين أيدينا»، ثم أضاف:

ـ «.. والأجدر بنا أن نوجد بيننا وبين الحياة تفاهماً يجعلنا نأنس إلى عملنا وأنفسنا ومن يحيط بنا، فها أنا مثلاً أفهم عملي وأحبه، وأفهم السجناء وأتقرب إليهم، وأحاول حبهم أيضاً».

ومكثت أحدجه بارتياب ساخر. ورغم ضياع وجودي بين سحنته المترهلة وجسده الفائض بالسمنة وبالسذاجة، فقد كان يخيل لي أن محاولة تودده كانت مثله في السماجة والغباء، وربما أيضاً لا تخلو من النفاق، وقد خطر لي أن أسأله عن مدى استعداده لأن يزوجني ابنته الجميلة التي أراني بالأمس صورتها، بيد أن غمامة من الأفكار الكئيبة اكتسحت هذه الرغبة الطارئة من المزاح، وبددتها.

على أنني عدت وفكرت بما قاله عن الأشياء والتفاهم، كان هذا السجان في الواقع يقترب من حيث لا يدري نحو حكمة نادرة وثمينة وكان ثمة بالفعل شيء يُصنع بيننا وبين الأشياء. شيء يختلف باختلاف الظروف والأشخاص، لكنه في ظرفي الراهن لم يكن تفاهماً أبداً. لقد كان هنا شيء ما حقاً، وقد بدأت أحس بهذا الشيء واعتاده. وفي الزنزانة حيث كانت خدعة امتلاكي اللحظات تكاد تتجسد أحياناً، متواطئة مع هذا الشيء الغامض، فإنني كنت وكنتيجة حتمية لذلك التواطؤ، أنزلق رغم أنفي إلى المستقبل الذي أفلحت حتى الآن في قطع

الطريق عليه داخل رأسي. وهكذا، كنت أجابه مضطراً رؤيا الغد بذلك الشيء الذي دعاه يوسف بـ «التفاهم». لقد كان «تفاهمي» هذا مجرد تسليم بقدري الذي خططوه لي، مشوب بخوف غامض، لكنه أبداً لم يكن استسلاماً. لقد بدأت أعيش الخدعة الجديدة مع يقين واحد، هو أنني لا بدّ سأعود وأجابه تلك الكتلة الثلجية ذات الوجه المترهل الكالح الذي سيمطرني بحصباء من تهمه وإهاناته ويوجه لي الأسئلة المدربة على إلقاء المرء عميقاً في إمعاء الخدعة. وعلمت شيئاً آخر كذلك. فلقد كنت مهدداً بتصديق الأوهام، وإنني معرض للاعتراف بما وضعه طيف قريبي في رأسي بمعاضده الشياطين القاطنة في هذه الزنزانة. كنت الآن في وضع أوشكت فيه أن أتبادل مع قريبي الضائع، كيانه وأغدو آلة. فجأة تغيرت الأشياء. وكنت لا أزال أسائل نفسي عن الحقيقة وسط عاصفة مجنونة تتطاير خلالها كل الحقائق ولا يثبت شيء في مكانه.

وواجهني الوجه الصلد ببسمة عريضة. ولما كنت عرضة لتيار الريح الهائج، فقد جابهت لحظة لم أتوقعها منذ كنت نسيت أهميته. لكن الملف الضخم الجاثم على الطاولة سرعان ما أعاد كل شيء إلى مكانه من هذا الواقع الذي كففت عن امتلاكه. أدركت، أن هذا الملف لم يكن هناك بمحض الصدفة. كانوا قد صنعوا له فماً وحشوه بأنياب وحش وروّضوه على أن ينقض عليّ في اللحظة الملائمة لهم. وعاد الغيم الأسود يجلل قبة السماء. وأنا آلة تنقبض للغيم.. تنبسط للصحو.. تخاف.. تهدأ.. آلة من تلقائها تعمل.. تعمل لكنها لا تنتج للآخرين شيئاً، فلا تكرههم ولا حتى تحبهم. وكانت هذه المناقضة الكبرى، التي تكاشفني تماماً عندما أصبح بين أيديهم مباشرة. ساعة أفقد ملكيتي على لحظاتي في غرفة التحقيق هذه، فقداناً مطلقاً محضاً.

ـ «هل تشرب قهوة؟!».

وسكت. في الشعبة الثانية هناك، جيء بالقهوة دون سؤالي. لم يكن ثمة ملف ضخم ولا تهديدات. كانت ثمة ورقة امتلأت بتفاصيل حياتي الشخصية، ليس هنا، بل من «الطرف الآخر»، الذي قذفني في زمن غابر إلى هنا. كان في تلك الأوراق، رقم البيت، رقم الهاتف، اسم الشارع. وكنت في عمري تماماً. مجرد طفل، وأحس برثاء «الجلادين» لي. طفلاً مفجوعاً. ثم شهور ستة تمرق خلسة وتمحق الطفل. لم يبق رثاء ولم يبق فجيعة. بقي موقف.. وملف.. والأشياء التي أحاول اللحاق بها وهي بمهب الريح.

ـ «حسناً. ستشرب القهوة ثم نبدأ.. أتدخن؟!».

وأجبت بالنفي القاطع. وكنت أحس بأني أمسك بطرف خيط حقيقة صغيرة هي فوق كل الشبهات، فأدرك أن استمرار هذا الخيط لا يعني إلا إصراري على هذا النفي.

وعاد الرجل يسأل، وأنا أنفي أسئلته. وعاد يردد ما قاله.. وأنا أردد ما قلته. وكنت محظوظاً إذ زايلني الخوف من أن يتطفل قريبي ثانية فيضع في فمي أقوالي. وشربت القهوة يلازمني إحساس متهكم. كنت أعلم بأني أتلقى رشوة. وأن الراشي لن يجني مني إلا إفلاسه. وكان بديهياً أن يتأجج حنقه مرة أخرى. وامتلأ بالحقد. وحرر شحنة منه على طرف الطاولة فسمعت فرقعة تحت قبضة يده. وشعوري التبس ثانية، لكني تمسكت بالخيط. وكان يصيح ويردد:

ـ «شهد قريبك!.. شهد قريبك!».

وازددت تشبثاً بالخيط.

ـ «شهد عليّ.. أليس كذلك؟!».

فصاح:

ـ «قال الحقيقة».

ورأيتها في أعماقي ناصعة كالثلج.. داخل رأسي وبين يدي.. ثم تذكرت بحثي المضني عنها، فاحترت وتساءلت:

ـ «وما أدراك ما هي الحقيقة؟!».

عدت إليها إذ شاهدته يسقط بين يديه. وقال مشيراً إلى الملف الضخم:

ـ «خيوطها هنا.. والخيوط القليلة التي تنقصها سنكشفها رغماً عن أنفك».

واحتشدت بدماغي خيوط كثيرة، بلا رؤوس.. أشياء مصحوبة بألم وبعلامات استغراب وسؤال.. وتعجبت من انقلاب الحب الدافق بغضاء طافحة في لحظة.

ـ «أهي أقوال قريبي وأهله؟!».

ـ «وهي أقوال (الفئران) كذلك».

واستطرد يتناثر من فمه زبد خاثر.

ـ «كل الفئران».

وكنت أوشك أن أوقن بأني فأر مغلوب على أمره. لقد دلّت على ذلك الأحداث، لكن مشكلة. بل مشكلتين، اعترضتا هذا التصديق فلقد أخفقت في تعريف معنى الفأر البشري، أو على الأقل التوفيق بين دلالاته المختلفة، في رأسي أنا وفي رؤوسهم هم. ثم هذه الغطرسة الإنسانية المكابرة على ما قد يكون وفق عقليات أسمى من عقليات الإنسان، حقائق صلبة. من ثم، انتصرت العقلية البشرية بي. إني لا أختلف عنهم إلا بأنابيبي الملتوية، أما مسألة الفأر، فمسألة أضع صوتي مع أصوات باقي البشرية ونحتج عليها. «لست فأراً.. كلنا لسنا فئران».. ورفعت الرأس إليه، ومع كل ما بي سمحت لنفسي أن ترثي له. وكان يلهث بطريقة سؤال أو رجاء في الأرجح:

ـ «ألا تريد أن تتكلم؟!».

ـ «تكلمت بأكثر مما يجب».

وابتلع لهاثه ثم عاد يتقيأ حنقه.

ـ «ثرثرت. لكن الكلمة التي أريدها لم تخرج من فمك حتى الآن».

وفجأة رقت لهجته فاستطرد:

ـ «قلها. وأعدك بأننا سنأخذ ظروفك بالحسبان.. مما سيخفف الحكم عليك».

كانت ضحكتي الآن تعسة. بعلانية أطلقتها في وجهه. فليسيء الظن. وليغضب الغضب الآخر. فهو لن يفهمني وسيفعل ذلك. وأنا أرثي له. ليس لنفسي أرثي بل للإنسان الأحمق. وهو في دربه الممتدة عمودياً كمدخنة أو بئر. وهو بأنابيبه الساقط فيها بقوة جذب قهرية وبسرعة لا يمكنه أبداً أن يوقفها. ولو قلت له ما يطمع بسماعه فذلك أهون من أن يتوقف عن خط مساره وإعادة نظره في الأشياء. لكني لو قلت له ذلك فسأضاعف من القوة الدافعة له وسأمده بالسرعة اللامعقولة الآخذة به للدرك الأسفل.

ولهذا فسأرفض. لن أرحم أبداً أوهامه. قلت بإصرار:

ـ «لن أقولها لأنها غير موجودة. أما الحكم فلن تصدره أنت. إنه حكم واحد ولن يصدر بحقي حكم غيره».

كان مستشيطاً. حك أسفل أنفه بيده.. أعلى شفته بأسنانه السفلى. وكنت أتأكد أن في هذه الغرفة يوجد إصراران. إصراري وإصراره. ولم أكن واثقاً من نصر أي الإصرارين.. أي منهما سيبتلع الآخر ويغيبه في أحشائه.. بيد أن إصراري راسخ، لكني ما زلت عنيداً في تحاشي الأطلال على المستقبل. ولم يكن بي استعداد للمغامرة ولا المقامرة.

وصرخ:

ـ «عليك إذن أن تعلم بأننا طرفان في لعبة كرة. وسنغلب اللعبة حتماً وستخسرها أنت بالتأكيد.. خذوه!».

وأومأ للحارس بإشارة، ففهمت أشياء وانتابتني رعدة خوف.. وتشاءمت. ولا بدّ أن سيمائي كانت في تلك اللحظة محتالة. إذ لا شك أني كنت مبتسماً، لا مكترثاً. ولا شك رآني العالم ودوداً معه كما لم يرني منذ أكثر من عام. لقد كنت أريد الاحتفاظ برعبي وبتشاؤمي لنفسي.. لي وحدي. وانجابت من الزمن الآتي أشياء. ورغماً عني تمعنتُ في تلك الأشياء. وكانت مرتبكة وغير مقروءة، إلا أني استنتجت منها، أن الجريمة الثالثة ما زالت غير مكتملة حتى الآن....

الفصل الثامن

بر الوعد بذاته في سرعة خاطر. إذ لم تلبث الجريمة الثالثة أن دخلت مرحلة كانت تبدو حتى الأمس كمجرد نكتة. وعلمت، أن النكات الحقيقية، كامنة في أننا لا نضع بالحسبان ما لا يخطر في الحسبان. وقريبي كالخلد تماماً. يتخفى عن وعيي تحت الأرض ويواصل حفر الأنفاق. أما أنت يا «محسن» فبعيد بعد حياتي المسلوخة المتعفنة في قفص صدء بارد.

ناجيت «محسن» كمناجاتي الله، وأنا أعلم بأنه لا يسمع. «محسن! لا شك أنك ما زلت مشغولاً برواية قصتك للمرة المليون». هناك. في القبو المظلم. في قرية نائية منعزلة. في أعلى شمال «الطرف الآخر». يدخل قادم. أفواج مساجين. قرويون. أو من عرب «وادي خالد». كان لعاب فضولي ينهمر مع غثياني. شاهدت عشرات من أنواع القمل. حتى أصبحت خبيراً بجميع الحشرات القاطنة بملابس الإنسان وشعره وبدنه. وعلمت أن ثمة أنواعاً حمراء وصفراء وسوداء، بل حتى القمل الأخضر رأيته. وعلمت أيضاً، أن من القمل ما هو طويل ومدور.. بمخالب أو بغير مخالب. وبطيء الحركة وآخر سريع العدو. كانت تيارات الآتين من الأعراب تثير فضولي، أعلم أنه سيغزونا الليلة قمل.. لكن ما نوع هذا القمل؟!. وعد آخر بار. كوعد قريبي وكوعد جلادي المهموس في آذان جريمة تتمحك بي عنوة. وهناك، دب يحجل كالسمان، أو كالقمل البطيء الحركة. والدب مترهل، تهتز معه

حين يدب عذوق من شحم. يتكوم بجوار آخر قادم. لا يتركه يلتقط أنفاسه أو يعتاد عشوة العين في القبو المظلم. والقصة تولد، مرة أخرى، كالنوار على شجرة أزلية عاصرت الإنسان منذ كان.

الأحمق!.. بيديه، حطم رثائي له، كانت «قضيته» تبدو منذ بدايتها حمقاء. هو نسخة معكوسة من هذا الكون. طفل في الثامنة عشرة وبليد وشحيم. صورة من طيبة لا تعرفها الدنيا، أو تعرفها باسم آخر يدعى «الحمق».

حين «محسن» اختلف مع والده في شأن فتاة، أقدم على أسوأ ما يمكن أن يقدم عليه إنسان مجنون. فر إلى هذا «الطرف الآخر». خال محسن يقطن في هذا «الطرف الآخر» في عرف «الطرف الآخر» ذاك.

ـ «كان ظلام دامس. بت ليلتي في ظل جبل. واستيقظت على وجوه آدمية تحدق بي. الألوان كانت كاكية. الرشاشات مصوبة إلى قلبي. فقدت صوتي. سئلت، فأجابت عني الرعدة. ضحكوا مني. اغتظت. حسبوني فيما يبدو مجنوناً. فأخذوني إلى حيث لا أدري، ثم حين أعدت، لم أرغب في العودة. قلت لهم «أريد خالي». فعادوا وضحكوا مني. قلت «أبي يرغب في تزويجي عنوة» ازدادوا ضحكاً. وبكيت، فضحكوا أكثر. أفهموني بالإشارة، أني كرة قد تدحرجت خطأ إلى جانبهم، وأن البديهة تقضي، بأن تركل ثانية إلى الجانب الذي جاءت منه. يا بيي على ما يحدث. كنت أخشى عقاب أبي. إذ ما كان يدريني بأني سأواجه عقاباً أكبر؟!».

ـ «أذابوا لك شحمك؟!».

نكتة. ومحسن يرمقني. على قسمات وجهه تتناثر طيبة لا تدري كيف تعاتب. في عينيه يتربع ألم إنسان لا يعلم لماذا تحدث أمور غير مدروكة لمن لا يسأل من أمثاله. قصته تتكرر خمسين مرة في اليوم الواحد. أسمعها. أسمعه وهو يرافع عن ذاته:

ـ «أقسم بالله العظيم. .».

وأقول:

ـ «دعني أنا أكمل قصتك. .».

يعلم محسن بأني أحفظ قصته عن ظهر قلب. إلا أن البقة ملتصقة في وجدانه. إنه لا يثق بي. أما البقة، فمحال أن تنتزع من وجدانه مهما أعاد حكايته. . وكرر. وكان جذع شجرة الأرز طامة قصة محسن، الكبرى.

ـ «رياضة الصباح!. . يا بيي على هالرياضة. . الشجرة لا يزحزحها فيل. نأتي ستة ونرفعها. بالقوة. . مجبورون. لو نعجز فالكرباج سيخلق فينا القوة. ونسير. إلى الأمام سر!. . والكرباج يلهب ظهورنا ونحن نسبح من غير بركة. نغطس في قاع بحر. يسار. . يمين. . يسار. . يمين. . فطست!. . والله العظيم فطست. إنهال الكرباج على ظهري. سقطت على الأرض. لا أسمع غير نباح الكرباج. وفقدت وعيي، لكن السوط ظل يلعلع وهو يضرب «تتخدعنا يابن الشرموطة؟». . ومن ذا يجيب؟. . كيف أجيب وأنا فاقد الوعي؟».

أفهم محسن. وأصدقه أيضاً. لكنني من أجل أن أنقذه من أعتى الآلام، أقطع حديثه:

ـ «وما أدراك أن الكرباج ظل يضرب، وأنت في غيبوبة؟!».

تجربتي في إبعاده عن كابوسه نجحت، محسن يبتعد عن قلب البركان إلى أطرافه.

ـ «في المستشفى اكتشفوا صدقي. لم أتظاهر بالإغماء. كشفوا أيضاً عن ضعف في قلبي. لا تغرنّك السمنة. قالوا هذا طبل أجوف. . كله فارغ. . جسمه خاوٍ وعقله خاوٍ، ثم قبروني هنا في «حلبا». التعذيب أضرَّ بي، ولهذا لا أقدر على صوم رمضان».

أرأيت كيف تختلف نكات الدنيا يا محسن؟!. . في رمضان

الفائت، امتلأ قبو «حلبا»، بجيوش بؤساء. كل كان يطهو طعامه، وأنت يا محسن كنت الذائق. ذقت مئة نوع طعام. بالذوق فقط جعلوك تصاب بالتخمة. حين كنت تذوق، كنت تصمت. كانت تغفو في أعماقك، قصتك المسكينة. الآن، ما انفك شهر الصوم بعيداً، فالدب الأحمق ما عتم، بالتأكيد، يتابع رواية القصة، ويجاهد في نزع البقة عن عقله. وأنا قصتي لم تبدأ إلا الآن. مشوقة ومثيرة. ومسرحها جسدي وشعوري.. كياني وأحاسيسي، مشدوداً أمضي مع الأحداث الجارية في كتمان تام. حلقة في إثر حلقة. أتابعها. لا أستهدي لنهايتها لكني أعلم، بأني أملك إيقافها لو بعت ضميري وفقأت عين الواقع، لو أسلمت الكلمة، الإكسير الشافي لأنانية جلادي المكلومة، لهذا الجلاد.

ومحال أن أملك إيقاف الأحداث، ما دامت الكلمة مفقودة. كانت في الرعب تبرز قدامي كسراب. وأنا أركض في حلبة في أعماقه. أُلقي هناك الشبكة في لا شيء. وبدأت القصة، مثيرة أكثر من أية مغامرة، وأي كتاب، فهي خصوصية، تبدو كجزء من ممتلكاتي الخاصة، ثم في الحال أدرك تفاهة ظني. فأنا أعانيها وحدي، لكني فيها محض مسرح أحداث. أما هم فكل شيء في الواقع. يخططون وينفذون. وهم القدر العارف بمصيرك ويكتمه عنك.. ثم يعطيك منه قطرات.. قطرة تعقب قطرة. لا يفعل هذا إلا حين يحلو له.. في الوقت الذي لا تختاره أنت.

وبروا بالوعد بسرعة حرمت مخاوفي من فرصة استشراف الأحداث. أعادوني إلى الزنزانة وأقفلوا باب القضبان. كانت هذه أول خطوة. وعوض أن أدهش توقعت أن تأتي خطوة أخرى. كانت إيماءة محققي ملتصقة بمخيلتي، وهي تعني أشياء يتولد عنها قلق، وتتكدس منها في أعماق النفس غمامات سوداء. وكان هذا أقصى ما أدريه. قرفصت في زاوية الزنزانة ودفنت رأسي بين ذراعي. لم أفعل شيئاً آخر. لم استبق الوقت. وكنت أعاني اختناقاً عقلياً يمتلك كل مبرراته، لكني

مثل محسن، عجزت عن كل سؤال. كانت الأسباب مختلفة، إلا أن النتائج في أي الأحوال لا شك تفضي لدرب واحدة، ثم لا تلبث أن تتلاقى. ولم أكن أرتاب من براعتهم، في كل مكان، في إبداع طرق التعذيب. وكان بوسعهم، لكي ينالوا بغيتهم على أكمل وجه، أن يتركوني، وببساطة تامة، مقتنصاً داخل قبضة غموضي ووسواسي وانتظاري، يوماً أو يومين. بيد أنهم، وكما اتضح لي وبسرعة، كانوا أغبى من أن يفعلوا هذا. فلم يطل انتظاري أكثر من ساعة. وعندئذٍ تحررت من مخالب ذاتي منتفضاً على أصداء فرقعة تأتي من جهة مزلاج باب الزنزانة.

كان هناك «كوبي» بذاته. وكان وجهه يتقعر مع عينيه الخندقيتين. ويتضور جوعاً «إنسانياً» بحتاً. واستعرضت حجمي. لو أني أتربع في «معدة» هذا الوجه، فهل سأفلح في أن أكفيه جوعه؟.. أم أن «المعدة» تلك، أشره من أن يشبعها، كياني كله؟!..

كوبي لا يترك لي وقتاً لتأمل هذا. إنه يقف فوقي تماماً. يمطرني حقداً من عليائه. حذاؤه يركل مؤخرتي، ويدق قصبة ساقي. والصوت جذوة مستعرة بالنار «الدائمة»، المتقدة في جوف هذا البدن البشري، العادي في جذعه وأطرافه ورأسه.

ـ «قم».

قمت. وقفت أمام «كوبي». كنت أطول منه بشبر واحد، لكنه أعرض مني ببوصات. وتساءلت أخرى «كيف سيأكلني كوبي؟!».

صرخ في وجه سؤالي:

ـ «هات يديك!».

وقدمتهما إليه مفتوحتين. وعلى الرغم من أنه كان «كوبي» بذاته، فقد لمعت قدامي، وبمخيلتي، صورة له عادية تماماً، ولإنسان عادي تماماً، وكان يخيل لي أني أصافح إنساناً.. أصافح «كوبي» بحرارة

وبود.. وقرصني خوف فجأة.. أفكنت أفقد عقلي بالتدريج؟!..

ـ «كلا!.. أطبق راحتيك وقارب بين معصميك».

وفعلت. وانطفأت الصورة السابقة كشرارة. والصورة الأخرى برزت تحمل شيئاً من صدق مع إحساسي بشيء آخر مادي. زحمة حول المعصمين المتلاصقين. برودة رطبة. حدود صلبة ملتفة حولهما كسوار. وكان كل ذلك إحدى حلقتي القيد. و «كوبي» يمسك بالحلقة الأخرى. يملك أن يسحبني بواسطتها. يملك أيضاً أن يطبقها، أو يضعها حين يشاء.

وانكمشت الأشياء. ومع الصورة الأكثر صدقاً نتأ توجس متعقب للحظات. و «كوبي» يلتهم هذه اللحظات ولا يسمح لها أن تمرق بهدوء. كان يلهبها بسوط جوعه «الإنساني» كي يشبع هذا الجوع. إلا أنه بهذا الاستعجال الشره المجنون للأكل، كان يبدو معي أكثر إنصافاً لحقيقته «الإنسانية».

والتف القيد الآخر، في لحظة، حول أحد قضبان كوة الزنزانة. فارتفعت قدماي قليلاً عن الأرض القذرة. أصبحت أطول. وقهرت علو الكوة، وألغيت مهمتها. كانت هذه الكوة، مجرد ثقب تأتيني منه هبة ريح تحمل معها في الليل الأشباح. ثقب تبرز منه نهاراً، قطعة سماء زرقاء، أو مكسوة بالغيم. وظلام كامل في الليل تثقبه بثور لامعة في بعض الأحيان. الآن، انكشفت قدامي مناظر من هذا العالم. حديقة وبنايات وأناس. ومكثت أحدق في الورد. وورائي يطبق باب الزنزانة. يقفل. وتحتي أرض ضاعفت من قوة جاذبيتها. فأحس شداً من طرفين متضاربين. لم أعبأ. كنت أسمر أفكاري مع عيني في الورد. وكان جميلاً ومسلياً. وله مقدرة على لفت الأنظار، لكنه في هذا الموضع بالذات، كان يكتم سراً في الأرجح. وبصفاقة حاولت أن أتغاضى عن شد الطرفين وأن اقتحم سر الورد. أخفقت. فالطوق المحكم حول

معصمي لا ينفك ينشب فيهما أسناناً وأظافر. ولم يكن مسند الكوة بالسعة الممكنة إياي من أن أتشبث فيه. وعندئذٍ، كان كوعي ينزلق عن هذا المسند فأتأرجح إذّاك كالمصلوب، لكني أتمنى لو أفقد مثله وعيي كي أتخلص من آلام تتقاسم كل كياني وتتوزع في أنحاء بدني.

ثمة، كانت أنواع المضايقات الروحية والجسدية مجتمعة. وتأكل في المعصمين. وعطل مؤلم حول الرقبة وفي منطقة الكتفين. في حين أن رد فعل الجذب المتوازي من فوق ومن أسفل، كان يشحنني بإحساس تشنجي عكسي. ولما كان دمي هو الشيء الوحيد الذي لا يردعه الجذب الفوقي، فقد رضخ للمغناطيسية الأرضية ومضى يتجمع في ساقي، ويفعمهما ثقلاً وكلالة، فيفرغ الرأس والأفكار، وتتلبد العينان بغشاوة شبه ضباب. وتلحان في طلب الراحة بالنوم ضمن عوائق مثيرة ومنبهة لا حصر لها. وإزاء هذا التطاحن المتناقض، كان يحتدم في الصدر ضيق وانقباض. يقبع ثم، حجر هائل كحجر رحاء، والرقعة من العالم المنجلي من فتحة الكوة، تصاب أمامي بدوار. تبهت. والورد القاني كالدم لا يأثر منه غير بقع صارخة حمراء كدمامل تنتشر في آفاق العقل. لكني، ومن حسن الحظ، أني رغم وجودي ضمن هذا كله، فقد أفلحت في عتق كياني من أفظع ما يكمن في هذا الفخ المطبق. الانتظار. وكان في عوني اعتيادي في الآونة الأخيرة، على عدم التصدي للزمن القادم. ورغم أن وضعي الحالي كان يمتلك القوة الجبارة لإرغامي على إحصاء اللحظات، فإن استسلامي المطلق للحظة كان في متناول اليد. وكان هذا أشبه بخلاص. إذ اتضح لي أني باستسلامي الكامل هذا قد حققت معجزة من أعجز ما يعجز عنه الإنسان. كنت أتيه. أهرب. أنتصر بذلك على آلامي ونفسي. أحبط في الوقت ذاته، غايتهم الكبرى وأقضي عليها. وفي هذه الحالة النادرة فقدت البديهة معناها، والقاعدة أمست استثناء. إذ كان يجب أن تتفاقم

معاناتي بمضي الوقت. لكن ما حدث أني تخدرت، ثم أفلحت في النوم، وبلغت عندئذٍ ما كنت أنشده من راحة المصلوب.

واستيقظت على صوت جلبة مصدرها باب القضبان. ورأيت ظلاماً خلف الكوة. والنور الشاحب يغمر أرجاء الزنزانة ويعاني من يرقان لا معهود. وتبينت أن الليل قد حل. وأعاد لي وقع أقدام صارم بعضاً من وعيي، ثم دار حديث. وعلمت من الأصوات أن «كوبي» قد عاد. والآخر كان «يوسف» في الأغلب. وشعرت بيد تمتد نحو الكوة، ثم تراخيت فجأة وسقطت على الأرض.

بصعوبة، شاهدت يوسف يقرفص حذوي. كنت منهاراً وكخرقة. وكما لو كنت في حلم، رأيت الشرطي ينزع عن يدي الطوق. مقتلعاً عن معصمي أنياباً حادة. وشابت آلام المعصمين راحة، إلا أن حالة اعيائي لم تسمح لي حتى بتنفس الصعداء.

وبوهن بالغ، حاولت العثور على «كوبي». لا جدوى. لا بدّ إذن أن «كوبي» قد أبلغ أوامره ثم ولى. وكان العطل الجزئي في أفكاري وشعوري يزول تدريجياً، فأميز بين الأشياء بوضوح يتزايد كل لحظة. لكني مع ذلك لم أتيقن من صواب تمييزي بعد. فلقد كان ما زال يترى على أفكاري بالية كجميع الأشياء الأخرى من حولي. وبهذا الشك في تمييزي الواضح خلت أن وجه يوسف وهو يحملق بي كان مصطبغاً بتأثر. وقال لي:

ـ «إني أرثي لك. أخشى عليك. إنني أعجب كيف تحتمل كل هذا؟!.. إنهم مصممون على المضي معك حتى النهاية. فلماذا لا تستغني عن هذه الآلام وتعطيهم الكلمة التي يريدونها. وتنقذ نفسك؟!».

ولم أرد عليه. بيد أني بآلية إحساسي وبوعيي المتزايد، كرهت يوسف في تلك اللحظة بصراحة، لأول مرة.

ولا بدّ أن ارتباكاً كان حاضراً هناك في اللحظة هذه. ففي الواقع، أن كل شيء انكفأ فجأة على وجهه وأمسى نقيضاً. كنت استيقظت تماماً. وكراهيتي الصريحة المفاجئة ليوسف، جاءت كمنبه طرد عن حواسي خدر الوعي، فنعقت اذاك آلام ممتدة برحاب وجودي المحسوس والآخر الملموس. وعدت أبحث عن كوبي. وحين بلغ صوته سمعي يقترب ثانية من الزنزانة، راودني إحساس نحوه مفرغ من كل الكراهية التي أغرقت يوسف فيها. وكان هذا، ظاهرة غريبة أخرى. مناقضة من أغرب مناقضات الإنسان. الاطمئنان للجلادين!.. كيف؟!.. كان بئر الالتباس عميقاً عتماً. وسقطت في أعماقه. ومرة أخرى تساءلت بجزع بل في رعب: «هل أن هذا بادرة لجنون يوشك أن يدهم عقلي.. كي يختطفه؟!.. أم هل أني مازوشياً دون أن أدري؟!.. أم هل كانت تولد بي نزعة إلى الانتقام من نفسي، حين لم يبق في العالم ما أنتقم منه إلا نفسي؟!.. أم أن المسألة لا تعدو رفضاً لنفاق يوسف العذب، وترحيباً بصراحة «كوبي» البشعة؟!..».

خيوط مشتبكة.. طريق مسدودة.. متاهة!.. والاحتمالات معقولة ومقنعة بأكملها. لولا أنها اصطدمت باحتمال آخر صلب كجدار من فولاذ، وعليه كانت تتهشم. كان الواقع أقوى. وكان مجرد لعبة تلعبها إحساساتي، لتسليني ولكي تسعفني في أحسم لحظة. كانت تختار لي الشعور الملائم.. تحذرني من أن أمقت كوبي. لقد كان خوفي منه يبرر وحده مثل هذا المقت. إلا أني كنت أريد أن أتحداه ولا أخشاه.

هي إذن، مواجهتي الحقيقية مع «كوبي». القوة الجبارة التي أعددتها له ولهذه الساعة..

ولم أحص اللحظات التي مرقت رغم أنها كانت كافية لتغيير المشاهد من حولي. وانقطع حبل أفكاري، فرأيت الآن ثلاثة أشخاص يزدحمون في باب الزنزانة. يوسف.. محمد.. كوبي. وكان يوسف

كالأبله، يحمل كرشه الهائل ويتنصت ويداه غائبتين في جيبي سرواله. ومحمد يحمل سطلاً صدئاً أسود ويحاول أن يعثر على عيني. ووجدها. وتبادلنا نظرة. وقال وجهه أشياء. وكان حزيناً. من أجلي بالطبع. ووجدت بي رغبة لأن أمسح عن وجهه هذا الحزن، فتبسمت له. وتحققت الرغبة. فانبسطت شفتا محمد قيد شعرة في شبه استجابة متواضعة لي.

ونظرت إلى كوبي، فرأيت الجوع ما انفك يصرخ من وجهه. وعلى غير ميعاد حضرتني النكتة. فتخيلت ذاك الوجه، معدة حيوان مجتر. وقلت لنفسي: إن كوبي أكلني ثم عاد وصعدني، وهو الآن يحاول اجتراري. وعلى حين غرة، صرت أصلب معدن. وطواحن كوبي عادت من طين. ونبتت في المعدن الصلب نتوءات مدببة حادة، وكان كوبي يبتلعني وأنا أنغرز في بلعومه.. أنشب في حنجرته.. وأختنق كوبي وراح يسعل. وتألمت من أجله. وتلبسني عطف صادق نحوه فتحولت ذبابة. وبخفة، طرت من حلقه وتسللت إلى فتحة منخاره الأيمن. وعطس كوبي. فمرقت من أنفه، ومضيت أحوم قرب وجهه بطنين مزعج.

وعطس كوبي. كان برماً. وأنا أضحك منه، لكني أرثي له. إنه وقريبي شيئان مختلفان، لكنهما ندان. الخلد يحفر تحت الأرض الأنفاق. وكوبي البقرة يجتر ويجتر. يشرق برذاذة.. يعطس. ثم تأمر البقرة:

ـ «ضع السطل هنا. واذهب لإحضار طعامه».

ولم يكن أسهل من أن أتصور ما يحدث. إلا أن «كوبي» أصر على جعلي غبياً مثله فقال بخوار مبحوح:

ـ «ستأكل، وتبول، وتتغوط، داخل الزنزانة، ولن يسمح لك بالخروج منها ما دمت مصراً على إنكارك».

واختفى قبل أن تهفت أصداء خواره. ورثائي يهرول في أعقابه، ويتلاحقه في اخلاص. ومضى يوسف أيضاً، وكان محمد قد مضى قبلهما، فبقيت وحدي ورأيت الأشياء بوضوح تام. الساعة، توقفت لعبة أوهام حواسي الموغلة في المتعة. من ثم، داهمني حنين حاد للأرملة المنكودة بوشاحها الأسود. تشوقت لحياتي كذلك. وتساءلت أيضاً عن موضع قريبي في هذه اللحظة. وعما سيجابهني.. عن مصيري ذاته. وضعفت فجأة. وتلبسني خوف سرعان ما تصاعد إلى رعب كاسح. هانت الأوجاع النابحة في جسدي إذ خفتت أمام زئير انطلق من أعماق كياني. واجتاحتني رعدة. ثم رأيت محمداً خلف القضبان، فكتمت عاصفتي.. وهدأت. وقال محمد:

ـ «نسيت المفتاح. سأمضي لإحضاره».

ونظرت إلى الطعام المعتاد. وعاء حساء. عدة زيتونات سوداء. ملعقة مربى.. ملعقة زبدة.. وشطيرة خبز.

وهاجمني غثياني الحاد. وصرخت من موقعي في أقصى الزنزانة:

ـ «كلا!..».

ورمقني بنظرة استفسار، فأضفت:

ـ «لن آكل..».

قال بتوسل:

ـ «بل لا بدّ وأن تأكل. فلو لم تأكل فستضعف. وستنهار.. وهذا كل ما يريدونه لك».

ـ «لو أكلت، سأتقيأ أحشائي».

ـ «لن يحدث ذلك. أنت جائع. كل. وسأجلب لك وجبة أخرى. ستقاوم.. وستأكل.. من أجل الله ستأكل».

الله!.. هل تذكر؟!..

كان بيني وبين الله شيء أشبه بتصفية حساب. وذهب محمد،

فجاء الله. وأراني كيف ولدت مع غل في عنقي.. غل حرير ناعم ملعون. هل تذكر؟!.. وضحكت من نفسي. كنت هذه الدمية الفذة المدعوة إنساناً. فأنا لا ريب الناسي. وتضاعف نسياني في السنة الأخيرة. وخشيت من أن يأتي محمد، فأفقد الله!.. كلا. جاهدت منذ ستة أشهر ويزيد، على ألا أفقد عهدي وإياك. إنك أنت الناكث. حقاً. وولدت مع القيد. وكان القيد حباً لك. وصلاتي تأتيك قبل افطاري كل صباح. ووصاياك أنفذها بنداً بنداً. ثم انكشفت اللعبة الكبرى. في «الطرف الآخر» جاهدت كي لا ينخرم حبل الحب. كنت أتناول الخبز الأسود وحده وأجف. وقريبي يلتهم اللحم ويسمن. وبحثت عن مواعيد أعيادك لأنفذ فيها كل وصاياك. وفشلت في أن أجدها.. وفقدتك. وأنت كنت تريد هذا.. وسددت عني أذنيك.. وخرمت الحبل بنفسك.. وتنصت. أرهفت سمعي المطنون.. فوقعت على وقع الأقدام.. وجاء محمد وبيده مفتاح الزنزانة. وسحلت ذاتي على الأرض التربة، ومحمد يتقدم نحوي. فتلاقينا في قلب هذا القفص الضيق الملعون. وسألته:

- «قل لي يا محمد. هل تؤمن بالله؟!».

فاستنكر سؤالي له.

- «ومن ذا لا يؤمن به جل جلاله؟!».

- «لماذا إذن، لا تعطيه حقه.. فتصلي؟!».

قال ببداهة:

- «إني أصلي لله في قلبي كل لحظة».

- «إن كل الأمر كذلك، فلماذا فرق بينك وبين أحبائك وألقاك في السجن؟!».

- «تلك حكمة لا يدركها سواه، سبحانه».

وضحكت، وسألته:

ـ «هل تتصور أن الله يمكن أن يرى ويسمع كل مخلوقاته في آن واحد؟!».

وظننت أني أطرح عليه سؤالاً سيرهق أفكاره، لكن محمداً لم يتردد. لقد كان يعرف أشياء ثابتة لا تتغير. وقال على الفور:

ـ «ما دام موجوداً في كل مكان.. وهو العليم الحكيم.. ولا خافية تخفى عنه..».

وسكت قليلاً. كانت هذه ثرثرة لا طائل منها. وثمة أسئلة أزلية وعويصة، تجثم كالتخمة فوق القلب، ما انفكت تفشل في الحظيان بأجوبتها. وهناك أيضاً أسئلتي الخاصة الشخصية. فلماذا أحاول التقرب منك وتقصيني؟!.. ولماذا اللعبة المغشوشة تملأ هذا العالم؟!.. ولماذا لا يشبع كوبي إبداً من نهش كياني؟!.. ولماذا قريبي ثور معصوب العينين؟!.. لم أفهم، فتطلعت بطعامي ورأيت، بركة فيها بول زنخ غامق، ورأيت ملعقة غائط بني، وصديداً أبيض، ونعل حذاء متقفع، وخنافس سوداء صريعة منكمشة خامدة الأنفاس. وصرخت بمحمد:

ـ «إرفع هذه الجيفة من قدامي!».

أمسك بكتفي. كان كالمصعوق. امتزجت رعدة كفيه برعشة كتفي:

ـ «هدئ من روعك أرجوك».

وتهافت. وتهافت معه. وتراجعت. وتألمت معه. كنت في لحظة، قد تقمصت روح الجلادين.. كنت جلاده بالإكراه. وأمارس إنسانية الإنسان بمجاريه العمودية.. ولكني الآن بعد أن عدت، لم أملك إلا أن أجهش، منتحباً بدموع. مزروعة أنظاري في الأرض. أرض الزنزانة القذرة التي لا يطؤها إلا الملعونون. كنت أحد هؤلاء الملعونين. أخجل بالعالم، وبنفسي أخجل أضعاف خجلي بالعالم.

فالأرجوحة، كانت أرجوحة طفل. رفعتني إلى سورة جنون، ثم هبطت بي نحو بحر ألم. استحلبت من عيني قطرات الضعف الراضخ. في غمضة عين ضعفت وتأرجحت. وجنوني أفرغته بضحية مثلي. وبنفسي. وهلعت، إني أتواطأ معهم. هذا محال. فنحن بمباراة كرة. ولا يحسن أن ينتزعوا مني أية نقطة. وعندئذٍ ثبت لصوابي فنفضت عني خذلاني ورفعت رأسي إلى محمد. كان جزعاً مسكيناً يتعذب. وشددت على يده وطمأنته. وعزمت أن آكل طعامهم الرجس من أجله، فقاومت غثياني. إلا أن فكرة ملحاحة كانت ما انفكت تحاصرني مذ أومأ محققي إيماءته الخبيثة، يقصدني..

ـ «لا تأكل!.. دافع عن نفسك بالإضراب عن الأكل!» وكانت الفكرة تحفر في رأسي، حتى لحظة قدمت لمحمد تضحية لم تحظ بمعناها إلا الساعة، فأكلت من أجله وحده. وقال لي وهو يرفع الفضلات:

ـ «سأسامرك الليلة من خلف القضبان».

وتأملت القضبان التي صنعها الإنسان مثلما صنع الحاجز اللامرئي. طرفان. أنا في طرف وهو في طرف آخر. وكلانا اجتاز الحاجز.. بصق عليه، لكن الحاجز عاد بمشيئة الإنسان، محسوساً ملموساً قضبانياً لا يمكن خرقه. مع ذلك قلت:

ـ «لا تعني القضبان شيئاً ما دمنا سنتسامر ككل ليلة».

وكنت فقط أطمع بتحدي القضبان. إذ كنت في الواقع أتمنى لو أخلد للراحة، وكان النوم ضرورياً لي لاستعادة ما أستفرغ من طاقاتي اليوم ولكي أتهيأ للغد. إني أعلم بأن هذا الغد سيحمل لي ألواناً أخرى من التعذيب. وكنت أجهل بالطبع ماهية تلك الألوان، لكني عاقد العزم على إحباطها كلها، مهما بلغت عنفاً وشراسة.

وتكوم محمد في الدهليز الضيق خلف القضبان. وتحادثنا.

وأدركت أن القضبان كانت موجودة بالفعل. وهي تقبع أيضاً في أعماق النفس، وتتحدانا بمثل تحدينا لها. تنتصب كالعقبة الجبارة، تجعلنا نقاسي حين نحاول أن نقترب ونتلاقى. وسألني «محسن» أكثر من مرة:

ـ «أتعتقد أنهم سيزوجونني من تلك، بعد كل ما حدث لي؟!».

وتفحصته. دب وبليد وشحيم. وفي رأسه تدور أسطوانة يتيمة، أبداً لا تسكت.

ـ «أعتقد ذلك..».

ويهوي عقل «محسن» داخل حفرة، وتتهشم كل «عظامه».

ـ «وما العمل إذن؟!».

أصعب سؤال يجابهني في كل حياتي. وهو يبدر عمن اعتاد أن لا يسأل. وحين يسأل من لا يسأل، فلا بدّ أن سؤاله من نوع لا رد عليه:

ـ «محسن!.. كنت بغنى عن كل هذا، لو كنت وافقت منذ البداية».

ويحك محسن رأسه ويحملق طويلاً بدياجير العتمة:

ـ «لكني هربت إلى خالي، فلماذا أعادوني وسجنوني؟!».

الحاجز!.. القضبان!.. اللعنة منتشرة في كل مكان!..

ـ «لأن ثمة حاجزاً يحظر عبوره؟!».

فيقول ببلادة:

ـ «ولماذا الحاجز هذا؟!.. أليست الأرض أرض الله؟!».

وأتيه. مثله. وأقهقه. ها هو ذا قد أفلح في أن يضع عقلينا في نفس القالب. كانت براءتنا في الزمن السالف، قد فعلت نفس الشيء. أثبتنا إنّا مجنونان.. لن أختلف عنك يا محسن في شيء!.. ونهرته:

ـ «محسن!.. لماذا لا تعيد عليّ قصتك، وتكف عن الأسئلة؟!.. أنت تسأل أسئلة حطمت عقلي في الرد عليها دون جدوى».

وتثاءب محمد وتساءل:

ـ «إلى أين شرد فكرك؟».
فتثاءبت خلفه، وشعرت بنعاس طاغٍ.
ـ «أبدا. إلا أني أشعر بنعاس».
ونهض الرجل الفارع، يغمغم:
ـ «سأتركك إذن، وأتمنى لك أطيب نوم».
ولمحت السطل الأسود الصدء، فسخرت من أمنيته وتساءلت:
ـ «بين الغائط والبول؟».
بيد أن السطل كان يخلو من الغائط حتى الآن. إذ قررت أن لا أتغوط فيه. لقد كان بالإمكان أن يحتمل المرء رائحة بوله، لكنه يعجز عن مقاومة رائحة الغائط. وكنت أعتزم ألا أفعل هذا ما دمت أقدر أن أصمد. من ثم، فقد تعززت في جمجمتي فكرة إضرابي عن الطعام. وهجعت لأنام مع هذه الفكرة، إلا أن حصر البول أيقظني بعد ساعة. وتكرر ذلك طوال الليل. كنت لا شك أعاني من توتر في الأعصاب. وأعاني من نومي المضطرب المتقطع، وأعاني من رائحة بولي الزنخة الملتصقة في أنفاسي تغمرني اشمئزازاً من ذاتي. كان هذا نتاجي الدنس البشري. نتني. مصدر جريمتي الثالثة التي أواصل مضيي داخل دهاليزها الدامسة أعشى العينين. ولدى هذا الوهم جنحت أفكاري فتوقفت. أفحقاً أن بولي كان مصدر إثمي.. سبب جرمي؟!.. لم يكن ثمة أي مستند إثبات.. ولا حتى بينة واهية وضعيفة. وسمعت في أعماق الليل، صوت الانصاف يجلجل ببراءة بولي من هذه التهمة الخرقاء.

ونهضت صباحاً مع كل هذا. بول ورائحة نتن وبراءة. وهذا الشطر من نفسي يشحن شطري الآخر بمشاعر خيل وكأنها أكثر ثقة من أي وقت آخر. فإزاء براءة بولي، كانت التهمة تلتف حول أعناقهم «هم» كالأفعى. والحاجز اللامرئي، يبدو كدليل قاطع. وثمة كراهية عرمة

تنبث مع نفحات النتن قاصدة أصحاب ملابستي الكبرى. وكانوا كثيرين. وهبط قريبي من صدر قائمة الرجس إلى آخرها لأسباب تحتم هذا. كان قريبي الآن، مجرد آلة يديرون دفتها فتسير بهم إلى حيث يريدون. وبينه وبين يوسف، اتضح شبه يختلف عن شبهه مع كوبي. فالاثنان، قريبي ويوسف، مسكينان، وهما مدعاة لكراهية لا يمكن إلا أن يصحبها رثاء. لقد كان يوسف كقريبي، ينافق ذاته في آخر الأمر. كان يجاهر بالعطف عليّ وهو يعلم لا شك بأن العطف يبدأ من حيث ينفد العدل.. وإذن، فقد كان يوافقني، ويتعاون مع جلادي في نفس الوقت.

بول ورائحة زنخة وبراءة في جانب. وثورة مكتسحة في الجانب الآخر. كان هذا كل حياتي ساعة استيقظت. والزنزانة ترسم لحياتي هذه صورة بريشة فنان بارع. لا ماضي في هذه الساعة. ويقيناً ألا مستقبل فيها. وينهمر في الخارج مطر واهن. يمتزج وقعه الخافت بزقزقة عصافير، ما من شك في أنها تنتفض الساعة مبللة برذاذات باردة رطبة وهي تواصل زقزقتها الأزلية. والورد الأحمر موجود أيضاً متفتح الأشداق منطوياً على أسراره وهو ينتعش بالغيث. وبدا كل هذا عبثاً. وكان أعجز من أن يحمل، أو يتضمن معنى. لكن ظمئي وغثياني وجفاف فمي ومرارته، أشياء لا يمكن تجاهلها. وكان هذا، مع ما أحمله في الشطر الثاني من نفسي، بمثابة أصدق صورة لحياة الإنسان على وجه الكرة الأرضية.. زنزانته الكبرى.

كانت الأقدام تضرب في كل أرجاء تلك «الزنزانة»، ثم تتجمد عند حاجز. والحاجز، قضبان. والحاجز أسلاك.. وهو أثير أيضاً. ينتشر على أماد هذه الزنزانة الكبرى. ينتصب أيضاً في أعماق البحر.. يشمخ في أجواز الأجواء. وهنا يتلبس هذه القضبان الصدئة والجدران. والأرض أشبار. وهي حياتي. وهي حياة البشرية. والوقت مبكر.

ماطر. وثمة خارج زنزانتي الشخصية، أرض زلقة، من فوقها شمس تكافح كي تصل العالم، دون جدوى. ومحمد يغسل الآن قذارة الإنسان، ويزيل الغائط المتراكم في حوض المرحاض. وكان هذا بشعاً. واحترت بسؤال بشع أكثر. فمن ذا الذي سيقوم بإراقة سطلي الخاص؟.. كان بولي يغمر ثلثه. وارتحت إذ ركنت إلى المنطق فخمنت، أني سأحمل بولي بيدي ساعة خروجي إلى الحمام. وكنت الآن أحمل حياتي المكنونة في كلا شطري ذاتي، وأنا فارغ الصبر. وسمعت وقع أقدام وحديثاً لم أفهم معناه. ثم أعقب ذلك ضحكات متهتكة غير عابئة بالدنيا. وتحفزت. ولعنت أشياء لم أعرفها. مجموعة أشياء فقدت ذاتيتها كالمستقبل وأضاعت هويتها كحياة الفئران البشرية داخل المصيدة الزنزانة. حاولت تبلع ريقي، إلا أن شيئاً لم يهبط في جوفي. وغضبت أكثر. وعجزت عن أن أعد جسدي باستعادة ذاته المغتصبة. وصككت أسناني، سأحاول!.. سأحاول!.. وطغى عطشي، حتى جف كل ما بي..

واقترب وقع الأقدام وكان يضرب داخل نفسي. يطأ إحساسي فأثور. وطالعني وجه الشرطي الأشقر. ولأول مرة تريث عندي. وتملاني من خلف القضبان، بمكابرة فوق طاقة الإنسان. وبألوهية، كان يشرب آخر قطرة من سائل أثر في بدني. وانتابتني غيرة على الله. أحياناً، كان الله سمحاً أكثر. أرحب صدراً من هذا المخلوق التافه المتعالي. كنت أناجي الله ويناجيني. في تلك الأيام المنصرمة، حين استجاب لدعائي أكثر من مرة، أحببته كصديق حتى سمحت لنفسي بإزالة ما بيني وبينه من كلفة. وتدللت عليه.. وعاتبته أحياناً.. ورأيت هذا الواقف خلف القضبان وهو يجذف في بحر فقاعات. ويتنفس أوهاماً.. ويحيا في دنيا آلهة تتعجرف بالزيف. واستفحل ظمئي حتى غدا مثل صحراء قاحلة لم يلمسها ماء منذ سنين. وكان الغضب يتصاعد

في أعماقي كحرارة متقدة تقفز بالزئبق إلى أقصى درجات المحرار.
وصرخت فجأة:

ـ «إني عطشان».

ولعلي خاطبت الريح، إذ لم أسمع إلا ترجيع صوتي.

ـ «وأريد أن أغسل وجهي وفمي».

كلا. فالريح كانت تسمع. وتغضن الوجه الأنثوي ثم ببجاحة غمغم:

ـ «ستفعل حين يطلب منك ذلك».

إذن، صدق ظني. أمامي دودة تتطاول على خالقها، وتتحكم بمطالب جسدي المشروعة.. تجعل من الله الحقيقي أضحوكة.

ـ «أريد أن أشرب».

ـ «تشرب، حين أقرر ذلك».

ـ «أنت لست الله، لتفعل هذا».

جن جنونه. بيد أني لم أندم على ما قلته. كنت ألطف من غضبي بتحدي أوهامه وبالكفر بكفره وبتبديد ألوهيته المزعومة.

ـ «استعد أقوالك واستغفر في الحال».

ـ «قلت إنك لست الله وتلك حقيقة».

ـ «وهل تصر عليها؟».

ـ «لن أشرك بالله أحداً».

ـ «وتصر أيضاً على أن تشرب الآن؟».

ـ «هذا حقي».

ـ «حسناً. ستشرب في الحال».

ومثل «آلة» لا مرد لقوله، شرعت «في الحال» هذه تتبارى مع أجزاء اللحظات كي تبدو نفسها فعلاً. حالاً!.. وارتفع مفتاح ضخم من بين مجموعة مفاتيح سلسلتها مربوطة بحزامه. ثم انفتح الباب «في

الحال». و «في الحال» كذلك، كان فوقي وتركلني قدماه. . تسحبني في الواقع نحو السطل. وتشير إصبعه المرتعشة إليه، ويتفجر الصوت في أمر قاطع:

ـ «اشرب!».

وقفت على أقدامي وجابهته. كان طويلاً ورشيقاً. مثل فتاة. وتخيلت «الله» المزعوم هذا، وهو لا أكثر من مومس قادمة من ماخور. حالاً! . . وتهتك الصوت العاهر المتأله:

ـ «اشرب. . إني آمرك بأن تشرب حالاً!».

عهر وألوهية. . ورشاقة وشراسة. . الوحشية شقراء و «جميلة». في الليل تخدع الفتيات الغريرات. في الليل أيضاً، يمتلئ دبر «الله» هذا، بأشياء صلبة تعود لرجال معتوهين. . في الظلمة يتمرغ هذا «الله» في ذلته وشذوذه. جبار بجنونه. . نجس في تفكيره. . مغمور بالبول حتى قمة رأسه. . لن يتخلص منه ما لم أشرب بولي «في الحال»!.

ـ «قلت لك اشرب!».

ـ «اشربه أنت!».

فتلقيت لكمة. تفتق عندئذٍ في وجهي مزراب. وكان يهطل ماء أحمر فوق الفم. وفتحت هذا الفم، ورفعت رأسي. استقبلت الوابل. وكنت الآن أمتلك ريقي وبصاقي. . رغم عطشي لم أبتلعه. كانت طلعة «الله» المتعجرف قدامي أحق به مني. وقذفت البصقة في هذا الوجه. . فاقعة حمراء. . بصقة دم محض. . طاهر. .

وتأكدت بسرعة من أنه، في فقدانه لصوابه، قد عاد لصواب الإنسان العادي. فكف عن أن يكون إلها. فلقد كان يشمئز ويمسح وجهه، ويوشك أيضاً أن يتقيأ، ولما كنت أستبعد أن يتقيأ «الله»، فقد تعزز يقيني، من أني أفلحت في جرجرته إلى حضيضه البشري وسرى عني. إذ أصبحنا، في هذا الموقف، ورغم عدم تكافؤنا، ندين. وإذن،

فقد كان الآن بظروفه الجديدة وتكشف حقيقته المنكودة، ينتزع عني استنكاري أمره، ويزيدني قوة في مقاومته كإنسان وكوحش فاجر. وعلمت أنه لن يتنازل عن «إنسانيته» كما تنازل عن «ألوهيته» بسهولة. مع ذلك فقد ساورني رعب، بمجرد أن الشرطي الأشقر عاد إنساناً. كنت أعلم أن الله سبحانه لا يرعب. وفي الآونة الأخيرة أدركت أن الرعب قد خلق في الجبلة البشرية من أجل أن يرهب الإنسان، إنساناً آخر. هكذا، طالعني الخوف من هذا الإنسان، الذي جردته من أوهامه وعظمته، الإنسان الذي تبصق في وجهه «حشرة»، وتصر على ألا تشرب ما درته من بول.

وكنت في رعبي هذا مدفوناً في طيات زمن غاب عني بوجوده. فلم أشعر إلا والشرطي الأشقر قد عاد يسحب معه أحد كلابه (ويبدو أنه غاب في تلك اللحظات الضائعة عن إدراكي)، واذاك تمالكت وعيي مرة أخرى وتهيأت.

وقال الشرطي الأشقر في لهجة تتضمن أمراً ووعيداً:

ـ «حسناً. الآن ستطيع وستشرب بولك».

بيد أني لم أشرب البول. فأطلق في وجهي كلبه، وهو يخاطبه بألفاظ لم أفهمها. وانقض الوحش الكاسر عليّ، وكان أقوى مني فتراجعت عنه، صدتني جدران العلبة. كانت الجدران منتشرة في كل مكان. وليس ثمة من مهرب. وحياتي أشبار تتضاءل مع اندفاعة الوحش تجاهي. تتقلص بين وثباته ومخالبه وأنيابه، وتتلاشى بداخل أصوات التحريض المنطلقة عن إنسان يعجز عن أن يعترف بحقارته «الإنسانية» فيواريها بوجود إنسان آخر.

وتقلص رعبي الكاسح أيضاً، من بعد أن ملأته غريزة جبارة في الذود عن نفسي. ولما انعدم المهرب، فإن مقاومتي أضحت شيئاً مفروغاً منه. إلا أن الوحش ظل أقوى مني. وكان يمزق لحمي قبل

ثيابي. ينشب أنيابه في هذا وذاك. وأنا لا أنطق. لا أحتج. تغرقني فكرة أن لا بدّ من أن أختار أفضل شرّين. غرقي في رجسي، أو غرقي في رجس الإنسان الآخر. كلا. الساعة، حين افترسني الوحش، أيقنت من أن الكلمة الملعونة، سبب غرقي في أحد الرجسين، لم تخلق في رأسي. لا يعرف أن يلفظها لساني. إنها ببساطة ليست موجودة عندي، وإذن، كان الآن هذا الاختيار الفرد وحده. أن أتمرغ في لب الحقيقة الناري، هذا التمرغ الدموي «الإنساني».. وتمزقت، لكني لم أصبح غيري. بل حتى بولي الذي انفصل عني.. لم أشربه!.

وتداعيت أخيراً، فسقطت على تربة هذا القبر أرويها بدمائي. والكلب تراجع عني. إذ كان سقوطي يعني في عرف الكلب أني قد استسلمت. كانت مهمة هذا الوحش تقتصر على أن يقضي على كل مقاومة يبديها مارق حتى يستسلم. وما دمت سقطت، فقد كف الكلب عن نهش لحمي. رغم استمرار تحريضات سيده «الإنسان» له في أن يمضي بذلك. وكنت أتمعن، وسط ضباب متكاثف، في باب الزنزانة. ورأيت، كما لو كنت أنظر من عالم آخر، جمهرة مساجين تسد هذا الباب، وهي تتملى بأسارير منبسطة أحداثاً ممتعة ومثيرة، فتلذ بها وتصفق وتهلل جذلة. رأيت، كذلك، الرجل الفارع الطيب، وهو يفج الزحمة ويدخل باب الزنزانة. لم أشهد وجه محمد، لكني شاهدته وهو يختطف سطل البول ويمضي. وعندئذٍ، ورغم كل ما بي تنفست الصعداء. كنت قد سجلت لنفسي أول نقطة في لعبة الكرة القذرة هذه. وقبل أن أفقد وعيي ثانية، أدركت أن اللعبة ما عتمت في أولها. فوعدت نفسي بالإضراب عن الأكل منذ هذه اللحظة. كان هذا أقصى ما يمكنني صنعه كي أصمد. وابتلعتني الغيبوبة وأنا في حومة قراري هذا...

الفصل التاسع

ومع أني وهنت كثيراً، فقد كان يبدو وكأني أفلحت. ولم يكن مهماً أبداً أن أفعل هذا على حساب طاقتي وصحتي إذ كنت أفعله مختاراً وبمحض إرادتي الذاتية. فضلاً عن أن إقلاعي عن الطعام عزز من وضعي اللامتكافئ وأوقف في نفس الوقت حملاتهم التنكيلية ضدي، بل وحولها إلى حملات إقناعية تحاول ثنيي عن صومي. وكان يوسف يقوم بهذا، ولهجته كالعادة لينة وودودة وتنم، أو تتظاهر، بالنصح المخلص. بل حتى لهجة كوبي أضحت تحمل شيئاً يبدو كصداقة، لكنه حين أخفق في إقناعي بالعدول عن الصوم، عاد صوته خشناً يتوعد. أما محمد فكان يفقد رأيه. لقد كان في وضع لا يملك سيطرة على ما يجري وإذا كان قد سلّم بظروفه الشخصية، فقد عجز عن التسليم بظروفي الخاصة، فكان في وضع العاجز هذا يحتار ويسهم ثم يلعن الدنيا أو يلجأ لله.

وكان يخيل لي، أني في صومي أتحصن ضد المجهول. مكثت في قوقعتي يومين لم يختلفا عن ليلة السرداب بكل دقائقها لكن من دون قريبي وفتاة مشرعة الثديين، وأعابثهما بيدي في لحظات مرقت مثل قطرات. والقطرات كثيفة لزجة وثقيلة تتابع في بطء مثل قطرات من شهد تفل مصنوع من صبر أو علقم. وأنا في قرفصة متحجرة لا تتغير. مستتر رأسي داخل فرجة ساقي. غائبة أفكاري أو كامنة داخل المحارة.

لا أنتظر شيئاً. أحيا في لا شيء. مدسوس في لا نوم أو لا يقظة. وأنام فأسقط في قبضة لسان يغرقني بثرثرة مبهمة تضنيني فأفيق وكأني من صحو بشع أستيقظ، حتى إذا ما استيقظت سقطت حواسي في خدري وخمولي ونعاسي، . . وعدت في لا نوم أو لا يقظة. كان الصوم حقيقة وحده. واعتدت عليه بسرعة، فكان رفيقي، ويشاطرني لحظاتي الباهظة، من حيث فقدت الماضي والمستقبل بحدودهما المتاخمة لوجودي الآني ذاته. لم يبق إلا وقت أمضيه ومحمد بين طرفي القضبان. يتلاءم هذا الوقت كذلك مع أوضاعي، فيداخله صمت مجبول بكآبة. احترت كيف أبدد هذا الوقت. فبحثت عن أوجاع تنفثها أفواه قروح بدني التي أحدثها الوحش بي، كي أتسلى بتلك الأوجاع. لكنها لم تسعفني. فقد اتضح لي أن تلك الأفواه قد انسدت والتأمت من غير علاج. وأدهشني الأمر بادئ الأمر، ثم تبينت، أن الصوم قد طهر جسدي ونقاه فساعد على اندمال قروحي بأسرع مما يفعله أنجع دواء.

وجاء اليوم الثالث يحمل لي أحداثاً لم أتوقعها. وكان الوقت ضحى في الأرجح. إذ إن محمداً أنهى كنس الممر المحاذي للزنزانة وأنجز مسحه. وهو يفعل ذلك بعد التاسعة في العادة. ومنذ أغلق عليّ باب القضبان كان يتريث حين يصل هذا الموضع، مختلساً بضع دقائق يحاول فيها التسرية عني. وكان عندئذٍ، يبدو وجلاً إلا أنه ملتصق في إيمانه بالله وحين يراني في وضعي هذا، أدرك من لهجته وأسلوب حديثه، أن إفلاسه مما في الدنيا يضحى كإفلاس جنين هبط في التو إليها وهو في عري كامل، ساعتئذ لا يملك محمد إلا ظل الله، يغلفه هذا الظل كالطبقة اللزجة البيضاء التي لا يملك سواها ذلك المولود العاري المفلس لحظة يهبط من بين ساقي أمه. ويحاول الرجل الطيب الفارع مشاطرتي وإياه هذا الظل. بكل ما أوتي من قوة يحاول هذا.

فتتجبر إذاك سذاجته المحضة وتغدو في نظري كالقوة الجبارة، ويراودني عطف دافق نحوه، فأنا أعلم بأن الظل لا يمكن أن يتجزأ، فضلاً عن أن الله يختار مواطنه بذاته المتميزة بدبوقتها الملتصقة وبطبيعتها الشمسية في ذات الوقت، وأنه كان يحتجب عني ويدي قاصرة عن منعه، مذ كف عن أن يستمع لمناجاتي بعد أن قرر أن يكشف لي عن فحوى اللعبة القذرة ويلاحقني بجرائم هذا العالم. ولهذا، لم يفلح محمد في ملء دني الخاوي. ومكث الظل وحده يغطي على إفلاسه ويشل يديه عن تقسيمه والجود به. كان كرمه، في نفح جزء من ظل الله لي، يصبح من ثم، نوعاً من عجز المخلوق عن التصرف بخالقه الأعلى.. الطائق الجبار.

وكان محمد قد فرغ من تنظيف الدهليز ومن محاولته الفاشلة في اسباغ خيمته الواقية عليّ، حين مثلت في سمعي أصداء نقرات تخترق الجدار القائم بين الزنزانة هذه والأخرى المتاخمة لها من جهتها اليسرى. كانت هذه النقرات تنسل عبر قوقعتي ثم تطرق رأسي المتخفي بداخلها، في قوة. ثم بعناد تتابع. إذاك ينتشر في نفسي يقين، من أن النقرات المتعاقبة ليست ضربات قلبي الثائر، المندلقة داخل جدران رأسي. كان ما أسمع، أصواتاً يحدثها شيء أو في الأولى شخص موجود خلف الحائط. وأطل رأسي من درعه.. وانتصبت آذانه.

ووجدت ذاتي أزحف نحو باب الزنزانة. وقبعت في جانبها الأيسر بجوار الحائط.. أرهفت سمعي.. وتأكدت.

غالبت خدري وخمولي بمساعدة النقرات. كنت أصيخ السمع. أتلمس، مع سمعي، اليقظة بفضول كان يخيل لي أني أضعته. لكني حين الآن عثرت عليه، كان يواجهني بضراوته الغابرة المنسية. فأدرك أن حياتي لم تأسن في جوفي.. لم تتحجر. ثم اختلطت النقرات مع همس بشري. صوت. والصوت يدعوني باسمي من خلف حائط عازل

كالكمامة. وغرقت في النقرات وذهولي. كان الخاطر أغرب من أن يعقل. بيد أني دُفِعتُ إلى قلب اليقظة التامة. وكانت بحراً متجمداً لا يلبث ويجمدني معه. فتسمرت لحظة بمكاني، ثم.. وبهمة، شرعت في تحطيم جمودي.

فعلى حين فجأة، انفتحت تحت فوهة بركان متفجر. قذفتني مع حممها نحو الأعلى.. إنه هو!.. شب في نفسي إحساس ناري.. كيف تجرأ؟!.. ثم خبت جذوة إحساسي الناري هذا من حيث تكشف لي طرف من مجهول كنت حتى ما قبل ثلاثة أيام أتساءل عنه. وبلغني صوته بوضوح أكثر وبإلحاح. وكشفت فيه عن رهبة من يتجاوز شبه المحظور كرهبة محمد ساعة يختلس من عمله اللحظات فيحاول التسرية عني. حاولت إلقاء الحلفاء في آخر شرارات إحساسي الناري الخابي، بيد أن الحلفاء خنقت الشرارة فلم أغضب. هذا النذل التافه يضيف لذاته صفة مخزية أخرى.. كيف يجرؤ؟!..

كنت الآن في قلب اليقظة أسبح في ماء فاتر. أفتقد الغضب والحقد. وكان لا بدّ وأن أصارح ذاتي بما ساورها من راحة. إلا أن المنطق كان بالتأكيد يستنكر هذا الوضع الشاذ، ويحملني على استنكار شعوري. فهل كان بالإمكان أن تعمل تلك الإصبع الإلّهية في ذاكرتي، حتى بعد اكتشاف خطأها وتخلي الله عني؟!.. كلا.. بل إن دعوة الآخر تترى وتغدو شبه دعوة فاتنة مومس لرجل نهشته أنياب الغلمة حتى فقد وعيه وصوابه.. الدنس الفاجر!.. قد فجر زق قاذوراته ورفع المعول في وجه الشمس. فماذا يريد بعد هذا؟!.. هل جاء ليحقق ما عجز الجلادون عنه؟!.. ليشككني في ذاتي؟!.. ليعيد على أسماعي أقوال طيفه المحمولة إليّ عبر الكوة العتمة، حين منها، في أعماق الليل، ينسل شياطيني السمّار؟!.. كلا.. الهمس يتوالى.. تتعرى الفاجرة الحسناء أمام الرجل الشبق المحروم.. صوته وأنا.. شيطان

وضحية.. إغراء وسقوط.. كلا.. هل نفد الغضب من هذا الكون؟!.. في جسدي فتشت عنه.. رأيت خدوشي.. كدماتي.. مزقي. شاهدت نحولي وغروبي داخل قوقعتي.. لكني كنت خارج كل هذا.. وكل هذا انفصل عني.. كنت مسلوخاً عن كل معاناتي وعذاباتي.. ضاعت برمتها في طغيان الضعف والإغراء.

لأول مرة كنت مثله.. ضعفه يجذبني.. وشعرت بأني محتاجه.. قاومت.. إذ كيف يحتاج المرء إلى قاتله أو يتشبث به؟!.. وهو يدعوني.. بتوسل وبروعة.. صوته يتلبس نبرة صوت محمد الإنسان.. يستدرجني.. إني أتدهور.. ثم، محروماً من غضبي الضائع أرد عليه.

وتأتي همسته الأخرى، أكثر جرأة:

ـ «إقترب من باب الزنزانة والصق أذنك بالحائط».

فعلت هذا. وازداد صوته وضوحاً.. وكان يأتي من خلفي.. تماماً خلف أذني:

ـ «إني بجوارك. اليوم جاءوا بي. هل تسمعني؟!».

وإذ لم يأته ردي، استطرد:

ـ «هل تسمعني؟!.. إني آسف من أجلك.. لم أتصور..».

على غير توقع، جاء الغضب فجأة.. عثرت عليه.. كان هناك موجوداً في كلماته.. عندئذٍ قاطعته:

ـ «أنت أحقر مخلوق شاهدته..».

وسكت. وكنت أبتلع ريقي. أسمع في الوقت ذاته لهاثاً من خلف جدار عازل.. ثم تنصب في أذني كلمات:

ـ «قل ما يحلو لك.. لكني.. لكني.. أدركت خطئي.. سأصحح ما يمكن تصحيحه».

وصرخت، في غمرة نسياني نفسي:

ـ «إذن، ما كذب المحقق.. أنت فعلت ذلك.. أنت فعلته يا وغد».

وسمعت الجدران تفح:

ـ «سأصحح كل شيء.. أقسم لك».

وتفاقم الغضب المخلوق الآن طرياً جداً، ومضى يهتف من تجويف فمي الجاف الملغوب:

ـ «أنت مجرد ثور مدار أعمى!».

ـ «صدقني.. أحاطوا بي.. حوصرت.. والشرطة وعدتني بالإفراج عني لو ألقيت عليك التبعة.. وأنا قد ضقت ذرعاً بالسجن».

من أعماق الحزن الطاغي انفلتت ضحكة مرة مشبعة بالسم:

ـ «الشرطة أو أهلك.. ما الفرق.. إنك أنت الثور الأعمى!».

أجاب الحائط:

ـ «الاثنان أوغاد.. وأنا ثور أعمى كقولك».

يومئذ كان الثور عجلاً. وهي غانية ساحرة وصغيرة.. سمراء وزرقاء العينين. ربطته بمدار رحى. وهبته جسداً لكنها استلبت مع جسده الروح. ثم في يوم صحو نبذته. ظل يدور معصوب العين. في حانات الخمرة.. حول موائد الميسر. إني اقتلعته من حقل الدمن.. وكان مجرد عجل يومئذ.

وهناك، غولة تتلون. تدعى شقيقته.. وتبدو، في صورة إنسان. حين أنظر في الوجه، ينقلب نغماً عذباً. أبداً.. كان الوجه نهراً يتدفق عسلاً وحليباً.. عذوبة عاطفة سيالة تنصب بحناياي. طفلاً كنت. كانت الغولة شابة. نفحت بي سحراً ملعوناً أخاذاً. تسرقني روحي. حين الطلعة اختلجت صامتة ساعة عيناها تسمرتا بكياني. ثم في الظلمة تحاول، كانت، سرقة جسدي مع روحي. والعجل معصوب العينين. والغولة تدفع يدها صعداً بين فرجة ساقي. في حركة تبدو لا شك

بريئة.. بالصدفة.. تجوس. ثم بالصدفة تتوقف عند قطعة لحم لي.. القطعة تلقائياً تتصلب.. تتضخم.. حين بها ترتطم اليد صدفة. يتلبسني خوف لا يشبه خوف الناس.. أغرق في بحر من سهم يقظ مرهف.. بذهول مضطرب، أفحم.. ثم تتشابك الأشياء. والعجل معصوب العينين، حين الغولة تستلقي قدامي عارية تحت ضوء مصباح أصفر. في خيمة لا يشركنا فيها إلا غطيط النوم العاتي. عين الله كانت يومئذ تثقب قاووق الخيمة. نزفر مع أنفاس الغولة المتظاهرة بالنوم. أسقط إذاك بين فكي الكماشة.. أغمض جفني فأرى الجسد البض ما زال يتمدد داخلهما.. أفتحهما، فأراه أمامي لا يبرح، ويقطع أنفاسي. وطويلاً أتردد حتى في وجل اللص أقوم.. مثله أمشي على أطراف أصابع قدمي.. أنفاسها تتسارع إذاك.. أسمعها تعلو.. أقترب منها.. الأنفاس تتصاعد.. تسرع.. أنفاسي أيضاً. أكتمها كجميع حواسي. إني لم أذهب كي أعبث باللحم البض. لن آكل اللحم البض.. إني أعشقه عشقاً لا معقولاً.. لكني لا أقوى أبداً على قضمه.. والعجل معصوب العينين.. وأنا أغطي لحم الغولة الفاتن.. في جوف الليل أستره بلحاف. لا يشهدني إلا غطيط النوم العاتي، وعين الله اليقظة المفتوحة.. وأعود لفراشي. أدفن فيه وجودي المشبوب.. أسلم ذاتي للغيبوبة.. ثم أحلم بالغولة.

وجاء يوم. اللعبة انكشفت فيه. وإذا للغولة أنياب ومخالب.. وإذا ثغرها ينفث سماً.. يبصق ماء النار.. ووجهي يتلقى البصقة السامة الملعونة. كانت البصقة شيطانية. مسخت الشاب اليافع في لحظة شيخاً مهدوماً في السبعين. والشيخ متوكئ على عكازه والشيب يغزو شعره من رأسه حتى قدميه.

وكان ثمة ثور أعمى.. في (حلبا) وخزته كلمة في طيات رسالة سطّرها خفاش. كيف جاء بالموسى ليلة حاول أن يقطع احليلي؟!..

لا أدري حتى الآن.. إلا أني كشفت الموسى حين أنامله كانت تتسلل معها نحو ذلك الموضع، كأنامل الغولة.

وتداركته.. وأنا لا أفهم شيئاً:

ـ «ماذا تفعل يا مجنون؟!».

كان كالأفعى.. يرشح كله زعافاً. صوته مرتجف في بلعومه.. شيئاً أبداً لم أعرفه من قبل:

ـ «أخصيك!.. لن تنجو مني أبداً!».

لم أفهم شيئاً من قوله قط. كنا حتى قبل ساعة إخوان صفاء!.

قبل ساعة قرأ خطاب أخيه الخفاش.. لم يطلعني عليه.. ولحظت عليه كدراً لا معهوداً. استفسرت. بدا برماً بسؤالي.. نوبة كآبة اجتاحته.. قال إنه حن لذويه.. صمتنا.. بعد ساعة هجعنا لننام..

ـ «أهذا وقت مزاح يا مجنون؟!؟!».

لكنه كان يحاول إنقاذ موسه من بين يدي بعصبية. كلا.. ذاك ليس مزاحاً أبداً. من حسن الطالع، أدركت حقيقة أمره قبل أن يرتكب فعلته المجنونة الأخرى. كانت في القبو أجساد منحشرة هاجعة في أحضان الموت الأصغر. ألقيت الموسى بعيداً عنا خلف الأجساد. غمغمت:

ـ «أنت جننت. لا شك إنهارت أعصابك».

على أن قريبي لم يلبث أن ضحك في وجهي:

ـ «هل صدقت؟!.. كنت فقط أمزح.. كنت أمتحن أعصابك أنت».

عبثاً. إذ لا شيء يحملني على تصديقه. نام، فقاومت نومي كي لا يأخذني في غرة. كانت عيناي مفتوحتين وتقتنصان الخطر المحدق بي في الظلمة. والزمن صنماً عملاقاً، أسمع في الصمت حفيفه، أسمع

أيضاً حشرجة الصمت. والموتى رقدوا. وأمام عيوني المعشية تتكاثر أذرع وسيقان. كان هناك أخطبوط يزحف في قلب العتمة ووجهته عنقي.. يقصد موتي. تلك، بشكوكي كانت إحدى رؤى الليل الهاذية الحمقاء. أحياناً تتكاثف في الديجور البقع السوداء.. تتحرك. لا أؤمن بالأوهام. لكني لم ألبث وزعقت في صوت هلع مبحوح. كانت القبضة تطبق حول عنقي. الأوهام تتجسد. وأنا أحدث جلبة. والظلمة تمتلئ أشباحاً بشرية. ثم شرب النور، البحر الأسود. كان هناك، مئة إنسان حي يشهد.

وتراجعت القبضة.. خاوية مبسوطة مرتجفة.. ونجوت.

ـ «كذلك أنت.. لا يمكن أن تتغير.. أبداً لا تتغير!».

قال الحائط:

ـ «العنّي ما شئت.. لكن ثق بي أرجوك.. إني أعدك.. سأصحح أخطائي».

لا أدري. لكني بقناعة طارئة ما زالت ترفسها أقدام شك هوجاء، سألته:

ـ «ماذا ستفعل؟!».

وتناهى قرع أحذية تدك أرض الدهليز وتتقدم.. فتحولت إلى أقصى الجانب الآخر وحشرت كياني في زاويتي.. وتقوقعت.

ـ «ارفع رأسك!».

كان هذا صوت الشرطي الأشقر. وكنت أؤمن بأنه في الواقع يتمنى أن أبقى مدفوناً مغموس الرأس في الدقعاء، فتحديته ورفعت رأسي.. وكان يلوح كإله حقاً. كالبعل مقدود من حجر صلد.. وقال:

ـ «أتريد أن يعتذر كلبي منك لكي تتكرم بإنهاء إضرابك؟!».

لعنته في سري. كالمتألهين جميعاً كان. المرئيين والمحتجبين عن الأنظار. إله من آلهة الرهبة. همجيته مبثوثة في أعوانه.. وبآلات دمار

يصنعها بيديه.. وكان الكلب، بطبيعته الممتثلة، عبداً للسيد المتأله.. وبريئاً من حيث لم يفعل إلا ما شاء مولاه. وكنت بغنى عن إثارة جنونه البشري العاصف، فتحاشيت الرد عليه، فأشار نحو الزنزانة الأخرى وباستهزاء قال:

ـ «وقد جلبوا لك قريبك أيضاً، وجعلوه بجوارك.. فماذا تريد أكثر من هذا؟!».

ثقتي بالأشياء أمست هشة. ثقتي بقريبي مهما أقسم، أكثر هشاشة. كنت يوماً قد أدركت أنها كوعاء فخاري. ولقد هوى هذا الوعاء منذ زمن غابر حتى ضاعت أشلاؤه.. أكثرها ضاع.. وعدت قبل قليل أبحث عنها.. أحاول أن أجمعها بيدي.. ثم جاء هذا الشرطي فامتد لسانه نحو ما أفلحت من جمعه من تلك الأشلاء.. وضرب على يدي. ونظرت، فإذا كل ما استجمعته تناثر أخرى في أرجاء الأرض. وراودني الشك في لعبة قذرة طرية.. إلا أن صوت قريبي تناهى إلى الخارج بادي الضعف لكنه يتساند بالإصرار:

ـ «أطلب نقلي للتحقيق فوراً!».

ورأيت الشرطي الأشقر يلتفت نحو قريبي ثم ينسحب يساراً خطوة. وتساءل:

ـ «ولماذا؟!».

وقال قريبي:

ـ «عندي أقوال هامة».

ـ «لكنك أكملت تحقيقك وستخرج بعد إنهاء الإجراءات المعتادة».

فصرخ صوت قريبي المتهافت:

ـ «لديّ تصريح هام.. وأصر على الافضاء به في التحقيق».

وتعثر الصوت المتأله الأشقر وهو يتناهى مقطوعاً ومتردداً ومفاجئاً أيضاً:

ـ «حسناً. سنبت في طلبك. لكني أظن أن تحقيقك قد أغلق. مع ذلك ما دمت تريد التصريح ببيان.. فسنبحث في الأمر. حسناً؟!».

هل يمكن أن يخطئ هذا الشرطي الأشقر.. أن يتردد. أن يتلعثم صوته؟!.. ولماذا؟!..

ومضى يدق حذاؤه الأرض ويترك هذه المعضلة لي. وكنت أتساءل «لماذا يضحي قريبي بالنسبة لهم هذا الإنسان الهام إلى درجة تفقدهم أحياناً حتى الثقة الإلهية الذاتية؟!.. حين يضحى الخطأ شيئاً معترفاً به.. وتتلعثم الألسن النحاسية ذات الإيقاع الثابت بالنسبة لي مثلاً؟!».. ومرة أخرى همست من خلف الحائط:

ـ «ماذا ستصنع؟!».

وشق صوته هذا الحائط الفاصل بيني وبينه.

ـ «إني مصر على تغيير أقوالي».

ـ «أأنت متأكد من إصرارك هذا؟!».

ـ «لن يرتاح ضميري ما لم أفعل ذلك».

قلت، وقد كف الشك عن رفس القناعة الطارئة بأقدامه:

ـ «ستواجه ضغوطاً وعراقيل كثيرة».

فقال بإصرار:

ـ «سأرغمهم على سماعي مهما كلف الأمر».

ـ «ماذا ستفعل؟».

ـ «تريث وستر».

وتريثت. لكنه لم يتريث مثلي. وانطلق صوته في التو يدعوهم في ضجة. وبسرعة جاءوا فامتلأ الدهليز بالبزز الزرقاء. وكان هناك كوبي

كذلك. وأنا جاثم في زاويتي أسمع لغطاً أشبه بكلام يتساقط في سوق ملأى بالرواد والمارة. وأحاول دفع فكرة حشرت رأسي عنوة، ومضت تقنعني بأن الشبه بين قريبي وكوبي قد بدأ يلفظ أنفاسه في الخارج. وكان ثمة مباراة تجري بين رجال الشرطة وتستهدف إقناع قريبي بالكف عن طلبه، في حين كان ما انفك يصرخ بعبارة واحدة لا تتغير وكأنه ببغاء لا يتقن من كلمات الإنسان سواها:

ـ «خذوني للتحقيق.. خذوني للتحقيق».

ورأيت المعول يتراجع عن قرص الشمس. وابتسم الله في تلك اللحظة ووهبني ظله أيضاً. وكان أسخى من هذا إذ عاد وملأني مع ظله بالحب. وحتى قريبي عدت وأحببته بحذر، إلا أني كنت أحب محمداً دون تحفظ. وتذكرت محسن. كنت أحبه وأرثي له في آن. وعدت أفعل هذا. وحضر أشخاص من «الطرف الآخر».. رجال درك ومساجين. وغرقوا في بركة حبي الطافحة التي فتقها في جوفي الله. وكان حبي لهم خاصاً مثل حبي لأبي. بل حتى الغولة غفرت لها رغم بصقة ماء النار. إلا أن خيطاً من اشفاق داهم إحساساتي فجأة. فلماذا انقطعت عني الأرملة المفجوعة؟!.. ولماذا أمكث منبوذاً في هذا الجحر العتم الضيق لا يذكرني فيه أحد من أهلي؟!.. ولماذا لم أتلق حتى رداً على الرسالة التي ذكرت لهم فيها مكاني وطلبت ثياباً لمحمد، وقد مر على إرسالها وقت يكفي أن تصل فيه عشرة ردود؟!.. وخامرني إحساس جافل.. فهل حدث ثم مكروه؟!.. ثم انقشعت ضبابات أفكاري السوداء، فرأيت الشمس تمد أذرعها من خلف سحب متكاثفة. كانت تبعث اشعاعاتها مخترقة أحشاء الغيم الداكن مثل مدايا، ثم تمرق عبر الكوة. وابتسمت فوق الأرض الرطبة التربة، بقعة نور ساطعة الطلعة.

وكانت الجلبة تهفت في الخارج. ووسائل الإقناع قد فشلت فيما

يبدو. وقريبي، ولأول مرة، يفلح بتمسكه بإرادته حتى آخر لحظة. ومضى الخفراء ورجال الشرطة وهو يرشقهم بتوعد ضاج ساخط:

ـ «إما أن أؤخذ للتحقيق في الحال، أو أعلن عن إضرابي عن الطعام منذ الآن».

وتوقعت أحداثاً شيقة ومثيرة. وقلت لمحمد إذ مر في الدهليز صدفة:

ـ «استأنف الحكم!».

فرفع وجهه المنمش الحائر نحوي وتساءل:

ـ «ولماذا؟!.. أفلم نتفق على أن الاستئناف مجرد خدعة؟!».

فقلت بقناعة وحرارة:

ـ «شيء ما أقنعني بأن ساعاتك لم تعمل على الهيرويين. كانت ساعات عادية ولذا فالأمل في تخفيف الحكم عليك، كبير».

رفع كتفيه وهو يهم بمغادرتي، تمتم:

ـ «احترت، والله، معك. مع ذلك سأفكر بالأمر شريطة ألا تغير رأيك مرة أخرى».

وفي الظهر، أعاد محمد طبق الطعام من زنزانة قريبي ممتلئاً. ورمقني بنظرة من يستفسر. وكان يمقت قريبي مذ حدثته عنه. فرفعت لمحمد كتفي رداً على استفساره. ولم أكذب. إلا أني تأكدت من أن قريبي ما زال يسير في هذه الدرب التي اختارها حين اكتشف ضميره بي. وهو ينفذ أيضاً تهديده.

وعاد محمد ثانية، ليسائل باستعطاف:

ـ «وماذا عنك؟!.. أفلا ترحم ذاتك من هذا الصوم المتواصل؟!».

ونفخت. فاحت رائحة عفنة في أنفي. أدركت أن عفني لم يستوف بعد. وأني كنت في الواقع أنتصب فوق ذروة جبل شامخ كي أتهور.

وكيف يمكن لهذا أن يحدث في قلب الصحو الأكبر؟! وقد سئم الجلادون من جدوى إقناعي، فتركوني أتعفن في جحري.. بيد أن إضراب قريبي شيء آخر، لا ريب.

وشعرت بتخاذل الرجل الطيب وهو يحمل طعامي أيضاً كي يلقيه مع الفضلات. أو لتأكله عني كلاب الشرطي الأشقر كي تزداد شراستها، ولأبقى أنا في صعودي الجبل الوهمي وإطلالي منه على خرافات.. وزفرت أخرى، فهويت لحضيضي من شاهق. كنت في الواقع معدة خاوية لا تحمل إلا النتن والوهن والضعف.. وإراداتي الصلبة تتبعثر في آفاق أهداف حشروني بداخلها. كنت بمشيئتهم أتحرك ضد مشيئتهم، ثم فجأة، تتضح الكذبة الأخرى، ساعة الأشياء تتخذ مسراها وتتلاءم، فينقشع الضد ولا تبقى إلا مشيئة مستعبدة ملعونة..

وأفحمني الإضراب الآخر.. إضراب قريبي. كنت مقتنعاً بأنه من صنف يختلف رغم أني لم أعرف كنهه. في نظرهم، كان قريبي بطلاً قومياً وكنت أنا لا أكثر من خائن مجرم. فالشيء الواحد حين يشاؤون يغدو هذين الطرفين المتضادين. هكذا إذن، كفّ هو، وكففت عن أن نكون رفاق الرحلة القذرة المشؤومة.. وشاء جلادي أن أصبح جلاد رفيقي فأصبحت.. وهو، ما دام الأمر كذلك، كان حتى صباح هذا اليوم ضحيتي التعسة.. وتمرد الضحية ليس كتمرد جلاد.. وصدقت في حدسي. وامتلأ الدهليز بهم مرة أخرى. كانوا مذعورين. كانوا أمام قريبي من دون أقنعتهم الخاصة المزهوة.. كانوا أنفسهم فئران هلعة يسحقها الرعب. ليس بإضرابه يتهددهم بل بضياعي منهم. وفي هذا الحرص القاتل باستبقائي لديهم، كنت أبدو مهماً في نظرهم، حتى ليخيل، أني لو أفلت من قبضتهم فسيضطرون إلى إشهار الإفلاس.

كان هذا السبب الأوجه في تفسير تضرعاتهم الموجهة له. كانوا وكأنما نكصوا على الأعقاب، ينسون ألوهياتهم فيجثون أمام قريبي

كرب يبتهلون إليه. تفعمهم أطماع في الحظيان برحمته ورضاه. وقالوا له: إن كل طلباته سوف تلبى بمجرد أن يأكل. فقال بدوره: إنه لن يأكل حتى تلبى تلك الطلبات ويؤخذ للتحقيق. وبفشل هذه اللعبة الأخرى كنت أتحول شيطاناً. ورجمتني أعينهم بالسخط، وأوجههم باللعنات، ساعة عادوا ثانية مندحرين.

وسألته من خلف الحائط:

ـ «ماذا لو رفضوا أخذك للإدلاء بشهادتك الجديدة؟!».

فقال:

ـ «إني مصر. فإذا رفضت الشرطة أن تسمع، فسأدلي بها في المحكمة على رؤوس الأشهاد».

واعتورني أكثر من شك فرددت لنفسي:

ـ «يبدو أن الوقت قد فات في الأرجح!».

وفي صباح اليوم التالي، في وقت باكر، جاءوا ثانية. وفتحوا باب الزنزانة.. زنزانتي أنا. وأخذوني، عوضاً عنه، إلى التحقيق. ورغم الدهشة صممت ألا أتهور. وكان الجو في الخارج عتماً وعيون السماء تبكي بصمت. وهم يتدثرون بمعاطفهم الواقية وأنا بثيابي التي مزقها الكلب. كنت مكشوفاً للمطر وللصقيع البارد ويغمرني مشهد السحب الدكناء بكآبة تفيض في وجداني. وثمة خيوط مائية تسيل من رأسي نحو عيوني كضباب، ثم ينحدر السيل إلى فمي ويجرف معه قذارة متراكمة في وجهي.. ودخلت غرفة التحقيق فانقلب البرد قيظاً، وكان لهذا القيظ أكثر من مصدر. كانت بجوار جبل اللحم الهائل مدفأة تتوهج. وكان وجهه جذوة ملتهبة أخرى.. وكيانه كله، غابة تلتهمها النيران.. كان حريقاً من غيظ. وبهذا الغيظ الشائط لسعني صوته:

ـ «أنظر حالك!.. أنت الآن تبدو كقطعة روث عفنة».

فتساءلت، وحاولت أن يبدو سؤالي لا مكترثاً:

ـ «ألم تشأ ذلك أنت؟!».

ـ «لماذا لا تغتسل وتحلق ذقنك؟!».

ـ «لن ترغمني قوة في العالم على الاستحمام ببولي!».

كنت جازماً وشديد الوضوح. وأحنى جبل اللحم وجهه ثم عاد ورفعه، كان قد وارى بداخله كل حنقه المحروق:

ـ «ألديك ما ترغب في قوله؟!».

ـ «قلت كل ما عندي».

ـ «ومع ذلك، لعلك تذكرت شيئاً تريد إضافته. لأقوالك».

ـ «لم استدع نفسي للتحقيق. أنتم فعلتم ذلك».

فزفر وهو يتمتم:

ـ «اسمع. إياك أن تتوهم أن إضرابك عن الطعام سيفزعنا..».

ـ «هل طلبتني لتقول هذا لي؟!».

ـ «ولكي أحذرك أيضاً».

ـ «مم؟!».

ـ «أنت شيطان فلا تتغاب».

ـ «إني لا أدري عمّ تتحدث».

ـ «لن تنجح مهما حاولت!».

ـ «في ماذا؟!».

ـ «أنظر ماذا فعلت بقريبك بمجرد أن أصبح بجوارك».

ـ «لم ألتق به.. وأنتم على علم بذلك».

ـ «كيف، إذن، تبرر إصراره على تغيير أقواله؟!».

قلت ببساطة:

ـ «إن كان حقاً ينوي ذلك، فلعل ضميره قد استيقظ».

حملق بي كالمجنون.. كان مجنوناً بالفعل.

- «سيستيقظ ضميرك أنت.. إني أعدك!.. إما أن يستيقظ ضميرك، أو تتفسخ جثتك العفنة في الزنزانة».

وتبلّع ريقه ثم استطرد:

- «وشيء آخر. منذ اللحظة، محظور عليك مخاطبة أي إنسان مهما كان».

وأعدت. وإيماءته الملعونة بقة ملتصقة بضميري. وكان المطر قد ضاعف من سرعة هطوله، والجو ازداد كلاحة. ماذا تعني هذه الإيماءة الأخرى؟!.. واختلطت في جسدي رعشة خوف مع قشعريرة برد ناغز. ولم أملك إلا الاستسلام لهما، إذ كان الاستسلام لغيرهما، لا يعني إلا استسلاماً للزيف. لم أعثر على أي شيء آخر. كنت تعباً. عدت وشككت بالأشياء وبجدوى صومي. ولم يكن الأمر كذلك فيما يتعلق بجدوى صوم قريبي بيد أن الشك اكتسح ثقتي في استمرار عزمه وفي امتلاكه لإرادته الذاتية حتى آخر الشوط.

وما أن أغلقوا خلفي باب الزنزانة، حتى كانوا يسدلون على باب القضبان ستارة كثيفة كانت بطانية من بطانيات الحبس. ولم ينسوا أيضاً تذكيري بالحظر المفروض عليّ بمخاطبة أي إنسان، وتحذيري من نقضه. وكانوا يريدون كتم أنفاسي، إذ تحولت الزنزانة إلى قبر يسكنه إنسان ما زال يشعر ويحس لكنه محكوم عليه بالصمت.. بالموت داخل هذا الصمت. ولكي يجتثوا من رأسي كل فكرة قد تخطر فيه عن خرق هذا الحظر، فقد تعمدوا إشعاري بوجودهم الدائم ومراقبتهم الصارمة لي. لقد كان ثمة شرطي يوجد خلف الزنزانة. وكان يتعمد، بين الفينة والفينة، أن يكشف طرفاً من البطانية المسدلة عليّ ويحدق بي بتشف إبليسي، ثم يرفع يده عن طرف البطانية، فيعود ينهدل من تلقائه، وتزول الثغرة، وأبقى وحدي مرتمياً في مزبلة العالم.

أبداً. ليست هذه مزبلة العالم. لقد كان المسلخ الإنساني بروائحه اللحمية الزنخة يتواجد في هذه الرقعة من الأشبار. المسلخ المنتشر في آفاق الدنيا. يبني له فيها خلايا متعددة الأصناف. وخراف البشرية تنحر، وتعلق من قوائمها بالمقلوب. وبقرت بنفسي بطني بمدية أفكاري، فعثرت ثم على أحشاء يابسة كعظام، ويحاول رأسي قضم الأحشاء الجافة فتتكسر أسنانه. وكانت تلك مشيئة القصابين. وكان في الطرف الآخر إنسان يحيا بأمعاء كلب، وقصابه ما فتئ يتبجح في قبو (حلبا) الأعمى.

ـ «جئت إلى المقهى وسلمت عليه. أشاح بوجهه عني كالكلب. كان حين تغاضى عني يلعنني بسكون. صمته كان يتهمني في أمي. أصبحت في نظره ابن زناء في تلك اللحظة. كان لا بدّ من إطفاء السبة. ومسدسي نفر من محمله تحت خصري. لم أتريث. بل أشهرته ثم جعلته يتقيأ طلقاته في جوف الوغد.. مزقت كل مصارينه، وهو يعيش الآن بفضل الكلب الذي انتزعوا من جوفه أمعائه ثم شتلوها في جوف الكلب البشري. إنسان يقضي حياته بمصارين كلب. وأنا محبوس في قبو (حلبا)، لكني إنسان كامل..».

واعتصرتني أمعائي. كانت قد جفت على أيديهم. وأنا كبش منحور في مسلخ الإنسانية البارة. في بيت خلاء المسلخ هذا. والقصاب يرمقني من خلف القضبان بتلذذ أكلة اللحم البشري. وزفرت. خنقتني رائحة نتني. دوار كالدوامة هاجم رأسي، لكني رغم هذا الموت الشاذ، كنت محكوماً بحياة حتى لو كان في جوفي أمعاء الكلب. وقررت، وبدون تمهيد سابق، بل في فجأة مطلقة محضة، أن أنهي صومي. وكنت لا بدّ بقراري هذا أتحدى شيئاً ما. مرة أخرى. شيئاً ما أجهل كنهه وأتحداه. وعلمت شيئاً. كنت أُغزر بمشيئتهم وبأفعال المسخرة على أيديهم. فقد كانت أصواتهم تتناهى لسمعي وهي

تستعطف قريبي وبحرارة ترجوه أن يأكل. . وكان يتمسك في رفضه. وعندئذٍ تحديت هذا الشيء المجهول. وطلبت طعاماً. ووضعت مع طلبي هذا شرطاً. . أن يسمح لي بقضاء حاجاتي في المرحاض، كباقي الموقوفين والمسجونين.

كان الشرط هذا، من أقصى رغباتي الآنية. كنت أستفظع أن تمسي الزنزانة ثانية مستودع قاذوراتي البادية للعين. هذا شيء يفتت إيماني بقيمة ذاتي كمخلوق يكمن فيه ظل الخالق، ويلقي بقذارة الإنسان الجسدية أمام عيني فضلاً عن رجس جبلته البشرية. وبالفعل فقد كنت بدأت أغبط النملة والنحلة بل أحسدهما، وأنا أرفع بهما لمصاف لم يرقه لحم بشري. وكان هذا مثار عتاب وجهته للباري، من حيث وضع في أصغر خلقه فضلاً لم يحظ به من يضع ذاته في أرقى مرتبة بين مخلوقات الكون بأسره. ومع حسدي النملة والنحلة تفاقم شكي في فضل الإنسان، وسخرت من هذه الفرية البشرية الذاتية. . ومن خدعة الإنسان لنفسه، وتشدقه بالفضل على العالم، وبأنه ليس إلا صورة مصغرة لكنها طبق الأصل من الله!.

وقالوا لي «تريث» مصحوبة بجفاء، إذ كانوا منهمكين على ثني الآخر، نافذي الصبر إزاء تعنته الأسطوري اللامتوقع. وكانت أهميته تنبع من أهميتي في الواقع، ولذا فقد انصبت فيه إلى حين يعدل عن إصراره. أية سخرية؟!. . هذا الجزء القذر الآخر في لعبة دنسة وحقيرة!. . فطنت إليه. تتعرى إذاك مغالطة اللفظة الفخمة «الهامة». «أهميتي». . «أهميته». . أية سخافة هذه؟!. . وأهميتي أو أهميته لا تعني إلا «أهميتهم» هم؟!. . أهمية العنصر الإلهي الخادع والضال؟. . بل أهمية «الصيد» لدى «الصياد». . أهمية مسبغة على الفخ الذي لا صيد يتم بدونه؟!. . ويقولون: «تريث!». . وأنا انزلق من بين أناملهم مع شبكة فقدوها في أغوار البحر. . وكانوا لا ينفكون يبحثون عن

الشبكة المفقودة كي يقتنصوها فيقتنصوا معها السمكة. فإذاك، إذاك فقط، سوف يوجد الصيد، فيوجد من ثم «الصياد».

وما دام الأمر كذلك، فيما خيلَ لي، فقد كان يمكنني أن أتريث إلى أبد الدهر. لكني تريثت حتى الظهر وحسب. وهنا خامرني شك واستغراب. وكان «الواقع» يدأب على محو كل تبريراتي لظواهر ما يتحلقني من أشياء. إذ رضخوا أيضاً للشرط، وحل بمكان الشك سؤال ظل يطرح نفسه.. «فهل يعني هذا أن درب تنازلهم قد بدأت؟!.. وأن الإعلان عن إفلاسهم الكامل مني قد أضحى مسألة وقت لا أكثر؟!».

وأكلت الخدعة. فقد تناولني طعامي عوضاً عن أن أتناوله بنفسي. ولم ألبث أن كنت أهضم في أحشائه، فيتضاعف عجزي وفتوري ويتزايد اعيائي وصداعي، وتتكاثف الظلمة في عيني بالرغم من أن السحب الداكنة كانت تتمزق في الأجواء. فمن الكوة تراءت بقعة سماوية زرقاء، إلا أن البقعة لم تلبث أن لاشاها الليل في ظهر يوم لا تاريخ له.

وكان هناك تراب ورطوبة مع عفن من حولي، ومجموعة أشبار من فضاء مصيدة موصدة من كل جوانبها، وعليّ ثياب من طبقات ملتصقة في جسدي بغراء قذارة، مشققة وممزقة كهلاهل. وثمة بقع حمراء جافة وأخرى بيضاء ورمادية عليها. وخليط روائح ذفرة تنبعث من قلب الغثيان. روائح دم وبول وحوامض بدنية وغبار. وقد فاحت مجتمعة بفعل هواء الزنزانة المشبع برذاذ المطر الراحل، لكنه الباقي معي في مأمن من أذرع الهواء الطلق وألسنة الشمس الجادة في لعقه بالخارج. ورسوت في قاع هذا الوعي الفاغر أشداقه. وكنت بحاجة لأن أتلاشى. وكان وجودي يحارب ذاته. لا جدوى! فالحرب فاشلة كانت. ووجودي هذا يترسخ ويتوطد في بؤرة القاذورات. وهو موجود حتى

خارج لحدي، وتماماً خلف كفنه المسدل فوق باب القضبان. هناك يكتسب أهميته القصوى.. يضحى غاية... ويدور في أذهان خاوية إلا من أوهام قوة مشروطة، ليحققها. لا جدوى. كنت موجوداً، حتى لو أقضي نحبي. فلو مت فسيبقى وجودي لديهم.. وسيمضون في التنكيل به.. ثم يغتالونه بعد الموت ويعيدون إحياءه، كي يبقوا أنفسهم موجودين!.

وتريثت أيضاً. وكنت لعبة كل الأشياء. لا شيء لم يحظ بحصته مني. وأنا معتوه وسط هذه الأشياء. وقريبي لم يفقد حتى الآن رباطة جأشه. فهو يقفز إلى أول صف في الأشياء المحوّمة من حولي.. وأنازعهم أهميته القصوى.. في صمت تام. وبحذر هائب. وأنا متريث في وسط الأشياء. وما زال أمل ثم، في أن تغدو أهميته المتنازع عليها قدراً لي. ها قد حرن الثور، وانتزع البرقع عن عينيه.. أفحقاً؟!.. وكنت أهضم في بطن طعامي، وعصارات سامة تفرز من حولي وتفسخني. ثم هبطتُ إلى أمعائه، وكنت أحس بوضوح بشعيرات الأمعاء هذه، وهي تمتص خلاصة ذاتي دون هوادة. وكان هذا يتم وسط أصوات لتحطم أشياء. وكنت اجتزت مرحلة التحطم، والأصوات تنهار من خارج الزنزانة برنين لم أخطئ فيه. حقاً.. إنها انهيارات جسدي المطحون. كانت تتهافت بعيداً عن الزنزانة في صوت شقيقته الكبرى. الأوغاد! لا ريب استدعاها الأوغاد على جناح السرعة. وتداعيت. هي آخر فرصة لهم. وتداعيت. هي أوعد فرصة لهم.. وانهرت.. هي أخطر فرصة لي.. وكان هذا الصوت الحاقد من دون تبرير، يجلجل وهو يسحقني:

ـ «حذاري من أن تتخاذل.. دمره!.. لا بدّ من تدميره حتى لو أعطيت من عمرك عشر سنوات للسجن».

لماذا؟!.. لماذا أنت متفانية في تحطيمي؟!.. لماذا، يا ابنة

عمي، تتهالكين على تدميري وبهذا الثمن الفادح من عمر أخيك؟!..
عشر سنوات من عمره.. مقابل عمري كله؟!..

أصوات تتكسر. الموت! إنه يجهر بشكره في صوت تهشم الأشياء.. في صوت «ابنة عمي» القادم من منبع طاهر مصدره جد واحد ورع ناصع الطوية. وبحثت عن مبدأ السوءة، فعدت بالإخفاق. كنت تماماً فوق الحاجز الدموي الملعون. أبول عليه ولا أفهم كنهه. الحاجز ذاته، الدموي الملعون.. في لعنته الأخرى.. يشطرني الآن شطرين. و «هي» مع «الطرف الآخر» و «هي» مع «الطرف هذا».. وهي مع كل الأطراف تحاربني.. والكل يحارب الكل.. والأسباب لم تخلق بعد.

«دمره!.. دمره!».. كانوا جميعاً يشيرون إليّ ويصيحون. وأنا أطلق سيقاني للريح. وأرادوا قطع طريقي.. زرعوها بآلاف حواجز رجسة ملعونة.. وتخطيت الحاجز تلو الحاجز. وكنت أتحداهم. وثاروا جميعاً.. ثم يدك الصوت الفاقد رأسه.. رأسي.. «دمره!.. دمره!».

ودخل محمد لأخذ صحون طعامي، لكنه همس في أذني:

ــ «قريبك يتناول وجبة غدائه».

وغاب معي في جوف طعامي. وطعامي يغدو معدة من مادة صوتية.. لها نبر ووقع ورنين.. كلمة غائرة التجويف.. وهي تتردد في أرجاء الكون، ثم تواري هذا الكون.

«دمره!».. تطلقها جوقة. ألف جوقة!.. مليون جوقة تطلقها في وجهي. وهي تتضخم. يحفرها الصوت الثاقب بملايين معاول.. تمسي مغارة تبتلع الدنيا. ومع الدنيا تلتهم الجرثومة الصغرى العالقة في ذرة من ذرات المعموزة البائسة الخربة.. أنا.. أين أنا؟!.. وانعدمت كل هوية. لم يبق مسموح أو محظور. وهربت بالجزء المعتوه إلى

الحائط. وقرعت الحائط الأيسر بجنوني. كنت أنتظر النقرة القادمة إليّ من طرفه الآخر، تنقذ هذا العالم ثانية من شره. وتطمئن قرص الشمس على ألا تلوح إليه بالمعول. وطرشت. لم أسمع النقرة.. لم أسمع إلا «دمره»!.. وهي تتردد في كل مكان. وهي هدهدة طفل يهجع في مهده.. وهي تسبيحة للخالق.. أنشودة حب ولهة للمعشوق.. ترنيمة تمجيد للإنسان!.

«دمره» في كل مكان. ظلت تتردد حتى العصر، ثم في العصر التقطت أذناي أصواتاً أخرى. ولم أكن أطرش بعد. دفعت سمعي نحو مصدر الأصوات. وكنت أتوقف عند جهة باب القضبان اليسرى. وازدادت الجلبة في أذنيّ. كانت تأتي من زنزانة قريبي. وسمعت ضحكات. وازددت فضولاً لمعرفة ما يحدث، وتجرأت. أزحت طرف البطانية المنسدلة، شعرة ونظرت. وكان قريبي يخرج من باب الزنزانة بثياب العيد. وحقيبة صغيرة سوداء يحملها بيديه، وذراع كوبي ملقاة على كتفه.. وثلاثة خفراء، يبتسمون لقريبي بسمة النصر.

وتراخى الساعد فانسدلت الثغرة. وبصعوبة وقعت على مكمن قوقعتي في أقصى الزنزانة. ورميت نفسي في أحضانه. ثم غرقت في ضحكة مجنونة، لم تتركني إلا مخنوقاً أسعل دون هوادة.

الفصل العاشر

كان القبو في «حلبا» أرحم. في أمعاء ذلك القبو مخلوقات أصبحت أحن إليها كل لحظة. يتملكني أحياناً شوق طاغٍ. . يجتاحني حب. . في الأحرى، حنين لهذا الحب.

وفي مزرعة الصرائف الخشبية المهترئة، تتكون في هذه الأيام مستنقعات لا تلبث أن تتحول لمخاضات وحلية. هناك، «بيوت» الناس، أكواخ منخفضة، منحنية، تسجد للأرض. هناك أيضاً، أثرت من تناسخ تلك الأرض السابق، أشجار اكلبتوس عملاقة، ليس ثمة في ذاك الموضع أشمخ منها. وإحدى هذه الأشجار، ما عتمت تكلكل بجوار صريفتها. إني أكاد أنسى ملامح طلعتها. نسيت، فيما نسيته أيضاً، ما اسمك يا «نايف» أو «نواف» أو «نوفل»؟

قال لي:

ـ «هنالك أمور أكثر أهمية من اسمي».

فحاولت أن أتذكر لون عينيها واسمه. إلا أنه عاد يقول مستاءً:

ـ «قد تتذكر اسمي فيما بعد. هذا شيء استثنائي، فالمهم الآن أن تصحح أخطاءك بالنسبة لما حدث لي».

ورأيت عينيها بوضوح. لونهما شهد خالص. ورأيت بشرة الوجه. بيضاء ميالة إلى الحمرة. وهي واقفة متجمدة تحت شجرة الاكلبتوس، ترمقني فتتضاعف في طلعتها الحمرة. ريانة نضرة. دخيلتها مصطبغة

بحليب ناصع. فوق وجنتها اليمنى منقوشة أخت بغدادية في حجم الفلس، تجعلها أكثر روعة.

وألح نايف أو نواف أو نوفل عليّ بأن أتذكر. أفحقاً أنك لم تطلق النار إلا على مجرم؟.. أحقاً كان صاحب أمعاء الكلب هو البادئ؟. حقاً. وأصيب صديقك فأطلقت عياراتك النارية من أجله. أنا لم يخطر في بالي أن أقتل الشيخ السارق. كنت يومئذ طفلاً فجاً. وهو لم يخطفها مني. أنقذني معها من ثرثرة الحب الصامت. أبداً لم نتبادل كلمة. عينانا تكلمتا. وجهانا. ما كفت يوماً عن أن تلتصق بي. وهي تتلفت. وتلفت معها. وهي تحكي لصديقتها. وحكيت لقريبي الثور المعصوب العينين.

الأخرى، الغولة، جريئة وقحة. ألقت من فمها الكمامة. نزعت عن معصمها القيد. حين أنت مزقت أحشاءه وضعوا هذا القيد بيديك. كنت وصديقك في المقهى. ترى هل عنّ لك أن المأساة حاضرة تتربص بثلاثتكم، وهل أدركت وسمعت صدى تسللها من بين اللحظات، وهي تتستر بغلاف هذا الغيب الملعون؟!. إني، أخترق الساعة هذا الغيب، فأراها تحمل طفلاً بيديها، والشيخ يطوقها. إني مخطئ لا ريب. فجدير بي أن أتفحص هذا الغيب بحذر. أن أتقن قراءة الأحداث المختفية عني. إني تعجلت. أخطأت. وهي لا تحمل طفلاً بيديها. إذ ما زال الطفل يقطن في الغالب هذا البطن المنداح. والشيخ يطوقها فعلاً، وهي منيمة رأسها فوق كتفه، وعلى أسفل حلقها تنهار غثيانات، تتعالى إليه إحساسات ضاغطة وكريهة. نَسِيَتني لا شك. يداهم النسيان الذاكرة البشرية كثيراً. فاعذرني إن كنت نسيت، يا نايف أو نوفل، أو نواف، سبب تمزيقك أحشاء من يقضي الآن بقية عمره، وهو يحمل في جوفه أمعاء الكلب.

حين وضعوا الطوق بيديك، كانت «الغولة» من غير طوق. كانت

تحتضنني. ولسانها ذرب طلق. تتنهد وتقول بحلاوة:

ـ «رجلي أنت.. وحبيبي».

وتلفني بذراعيها. وأنا أرتجف فرقاً يشبه فرق «محسن» ساعة في «الطرف الآخر» جلدوه. ساعة وسموا ذاكرته بالأحداث الدموية.. وَسْماً لا يمحوه إلا الموت، أو لا يمحوه حتى الموت.

ـ «ذاك لم يكن فرقاً. كان شيئاً اجتاز حدود الرعب».

ـ «معذرة يا محسن!.. وضعي لا يسمح لي بالتدقيق في استعمال الألفاظ».

ـ «كيف يمكن لمن سمع القصة ألف مرة، أن ينساها؟!».

ـ «لن أنسها يا محسن. إني أحفظها كلمة كلمة. أتريد أن أحكيها لك؟».

ـ «وإذن، فلماذا تغالط؟!».

وتدخل نايف أو نواف أو نوفل، منتهراً:

ـ «لا بدّ من ترتيب الأحداث، كي لا تقع الأخطاء، أو سوء الفهم».

فضحكت من سذاجتهما «المخطئة» بحق الواقع.

ـ «سوء الفهم هذا يحدث كل لحظة. لم يعد الأمر في أيدينا يا إخواني. قد أفلت منا. أقسم قد أفلت من أيدينا».

وشلالات الوحل تتستر بالظلمة. كانت تعانقني ونحن نسير. يرتجف وجهها على وجهي. يبدو في النور شلالاً يختلف عن شلالات هذا الوحل. محياها جابهني يومئذٍ بعهد صادق ومحال أن يتحلق من حوله الشك. تتقلص شفتاها منطويتين على نداء صارخ. فوق الشفتين تدب رعدة سرعان ما تهبط نحو الذقن فيتكوز. يغدو أكثر حدة. ثم تبذر قبلاتها في جسدي. حتى وهي بعيدة كانت شفتاها ترشقانني بالقبلة، ثم رشقتني بالبصقة، وكانت تحمل ريقاً من ماء النار.

وأشار جلادي إلى ملف مثله منتفخ الأوداج ومضى يهتف:

ـ «كل الفئران هنا!.. كل الفئران!».

وقلت لحبيسيّ «حلبا» المسكينين المنكودين:

ـ «أرأيتما كيف يدغدغنا سوء الفهم بسماجة، فيبكينا ويضحكنا، في آن، ولا يتركنا نهدأ لحظة؟!».

اعترض محسن:

ـ «لكنك، تعلم حق العلم، بأن ما وقع لي قد وقع في «طرفكم» وليس في «طرفنا» أبداً».

ودغدغني استحكام غبائه، فمكثت أقهقه، وشددت على أذنه، تماماً مثلما كان يحلو لي فعله، وسألته:

ـ «أويوجد فرق بين «هذا الطرف» و «الطرف الآخر»؟!».

أفحم. بيد أن الآخر، انصافاً للأحداث. ظل مصراً على تذكيري.

ـ «كنت وصديقي في المقهى. ثم جاء الثالث. صديق صديقي كان. وكان يبدو أنه من حيث لا يدري يريد أن يحيا بكيان نصف كلبي. كنت وصديقي منهمكين في لعبة «رامي». أقسم لك. صديقي لم يسمع الآخر حين حيّاه. مع ذلك، أطل الحنق من وجه الآخر وصرخ «لماذا تتغاضى عني؟ أسمعت أني قواد؟!» أحياناً تنتاب المرء نوبات مرح.. أو نوبات مزاح. رفع صديقي رأسه وتساءل: «من يدري؟». كان مسكيناً حقاً. لم يدر أن مزحته هذه ستكلفه كل حياته. الآخر، اغتصب ضحك صديقي بشراسة. ضاعت الفرصة في شدق غضب الإنسان. وبسرعة، انطلق الموت من داخل أنبوبة بارودة سوداء. نحو صديقي. رأيت صديقي الضاحك، يسبح فجأة في بركة دم. كان بطنه مفغوراً.. أحشاؤه مدلوقة، تضيء في وهج الشمس. جف صوابي. أدخلت الأحشاء إلى جوفه بيدي. ثم ناديته. لم أتلق جواباً. كان أعز صديق لي. ميتاً بين أحضاني. حتى لعبة «الرامي» لم نتممها. والأوراق

مضرجة بالدم وجسم صديقي. وشهقت. كنت أجهش ببكاء ساخط متوجع. لم أتصور كيف في لحظة حمقاء فقدته. أعز صديق لي. والحمق يولد الحمق. كلا. كان ذلك حمقاً فرداً لا بدّ وأن أقضي عليه. وقضيت عليه وأنا أستغل المنطق والواقع. لطخت يدي بدم القاتل والمقتول. كنت أطلب العدل. قاضيت المجرم ثم فتحت عيوني. وفقدت العدل فإذا بي هذا المجرم الذي يقاضيه العدل».

وتأملت أقواله. ضعت فيها ساعة ثم قلت:

ـ «لكني لم أقتل أحداً. حتى ولا نملة. لم أُلحق الضرر بمخلوق.. لم أخدش فأراً ومع ذلك أصبحت مثلك. لا نختلف حتى في شعرة».

وكانت كتلة اللحم المترهل والشحم، ما زالت مقتنعة بأننا جميعاً.. مجرمون.. وفئران!.

وافتر ثغر الغولة. ومن عجب أن فمها كان يخلو من أنياب الغيلان. ثمة، انتضدت أسنان بيضاء وصغيرة كاللؤلؤ. واستفتيت الفاتنة الغولة:

ـ «هل حقاً نحن فئران؟».

وتحرك رأسها يميناً وشمالاً ينفي الشبهة في إصرار، ويقول:

ـ «بل أنت رجلي وحبيبي».

فساءلت بعذاب:

ـ «والبصقة؟.. ماذا كانت تعني إذن حين من فمك انطلقت تغمر كل كياني؟!».

غضت الطرف. قالت بحياء.. بأسف:

ـ «كنت مندفعة.. مثله».

ـ «هو ميؤوس منه تماماً.. قد حطمني».

قالت متنهدة تغرقني بسمتها الطافحة بماء الكوثر:

ـ «سيأتي يوم يولد فيه الماضي. إني أريدك. وسأمسح عن وجهك آثار البصقة.. بألف قبلة جديدة».

وذعرت. أصبحت أكثر روعة.

ـ «الماضي؟!.. أرجوك.. قد مات هذا الماضي، وتخيفني فكرة بعثه».

ـ «لكنك لا تحيا غيره».

ـ «رغماً عني. حين لا يوجد حاضر أو مستقبل، لا يمكن أن نحيا إلا فيه».

فوعدتني واثقة ومواسية، كل جوارحها ترشح عاطفة سيالة:

ـ «المستقبل موجود. والحب كذلك. صدقني!».

أأصدقها حقاً وأنا فأر داخل مصيدة موضوعة خارج كل زمن ومكان؟!.. وأنا محروم من رؤية أية إنسانة؟!.. حتى امرأة سرداب الأمن العام في «الطرف الآخر» كانت قبضة ريح.

وصرخت في وجه «محسن»:

ـ «أنت لا شك أكثر غباءً مما يشي به مظهرك هذا!».

فتغضن هذا المظهر حتى سال كآبة:

ـ «ماذا كان يمكنني أن أفعل؟».

ـ «كان في حوزتك أنثى. ففررت من رحمة الله الكبرى إلى أحضان بشر لا يدرون معنى الرحمة».

وتَفَكَّر «محسن». وكان يطمس في أرض سائبة من حزن قاصم:

ـ «ماذا أصنع؟».

ـ «إن قدر لك أن تفلت يوماً من قبضة البشرية هذه، فتزوجها!».

كنت أحدثه عن زمن لم يأت بعد. المستقبل!.. وهو موجود في أيديهم.. أيدي هذه البشرية. هل تدرين أني فقدته؟!.. فأنا لا انتظر إلا الوجبة المعتادة. عما قليل سيدخل الجلاد يحمل سوطه. وساعتئذ

سأفقد حتى مخاطبة نفسي. هل تدرين أنهم حظروا عليّ مخاطبة كل كائن؟.. إني أسخر منهم. أتحداهم إذ أخاطبك الآن، وأخاطب «محسن»، وأخاطب أيضاً «نايف» أو «نواف» أو «نوفل». لا أدري لماذا لا أتذكر اسمه لكني أخاطبه بتعدد الأسماء. محمد، أضحى يخاطبني بعينيه كما فعلت في الزمن الغابر، الأخرى المنداح بطنها في هذه الساعة. بعينيه. ثم يرتفع رأسه نحو السقف. هو لا يقصد بالطبع هذا السقف المبقوع ببراز شياطيني. هو يقصد شيئاً أعلى من ذلك بكثير. ابتسم هذا الشيء في أعماقي قبل أيام، ثم راوده ندم صارخ، فتلاشى. بيد أن محمداً ما انفك يرفع رأسه نحو السقف. لا ينسى أن يفعل هذا كلما جمعتنا صدفة. فهو لا شك يبتهل لإلّهه الشخصي، أن يعيد الفأر بشراً كالسابق. كيف يعقل أن يستجيب إلّهه من بعد أن أصبحت الدنيا متخمة بالفئران البشرية؟ روبين القصاب.. كرجي م.. يوسف ك.. إبراهيم ش.. مير ز.. إسحق «شرفنطح».. عزرا خ.. وشقيقة عزرا، جولييت.. أهلي جميعاً.. وأنا. أرأيت كم كثرت الفئران البشرية؟.. أفلا تخشى أختك الكبرى من أن يكتسح الطاعون الدنيا؟!.. هذا الطاعون واقع لا ريب فيه، ما دامت الفئران تفرخ وتتكاثر. فاحترسوا من هذا الطاعون. من كل قلبي أحذركم!.. أزجيها إليكم أغلى نصيحة!.. كفوا عن مسخ البشر التعساء البررة، فئران تجارب لألوهياتكم المأفوفة.

يحتجون وذريعتهم في أيديهم.

ـ «اخرس! محظور على الفئران الحبيسة من أمثالك، أن تنطق».

لكني أحدثكم أنتم!.. قلت له: «إنه من أنبل خلق الله». واهتز جداره الهائل باشّاً للنكتة. إذ من يجرؤ أن يَسم «الفئران» الأخرى بالنبل؟.. بالطيبة؟.. أولئك في القرية الملعونة كرماء، لكن الطيبة هربت منهم تعدو. وقريبي طيب، لكنه طائش، مندفع وضعيف. ثور

معصوب العينين. وهي الأخرى طيبة للغاية. يحدث أن يكبو اللحم. وهي لحم طيب يكبو أحياناً. وسترضيني بألف قبلة. لا تستغرب هذا.. إني متأكد!.. هذا ضعف من نوع آخر يدعى «ضعف الطيبة». ولهذا انقلب «نايف» أو «نوفل» أو «نواف»، القاتل حتف أنفه. ولهذا نحن فئران حقيرة تتحرش بحاسة تقززكم الإنساني، أنفتكم البشرية المقدودة من صخر قذفته السماء يوماً على عاموراء وسدوم. وفي جوف تمثال الصخر، انفلق القلب الحجري حزناً على عصفور دقيق جرمه، في حجمنا نحن الفئران، إلا أن صخر تكبركم هذا يزداد صلابة كلما اصطدتم فأراً بشرياً آخر. وسيضحى فولاذياً يوم لا يبقى في العالم إلا الفئران البشرية، والبشرية صانعة الفئران. احترسوا. إني أحذركم فالطاعون قادم يا من قسمتم الدنيا، وجعلتم العالم أطرافاً متنافرة بحواجزكم النارية الدموية.. وبالكلمة الملعونة... وبالـ..

وركعْتِ أمامي. دمعتك تصنع لك طلعتك العذبة. ورفعتِ إليّ الوجه. باكية مبتسمة مبتهلة. عاشقة متألمة نادمة على ما كان منك. وقلت بهمس كالحلم، أو كنسيم:

ـ «صدقني. ستشفى الدنيا من هذا الداء، فلا معنى لأن تقتل نفسك يأساً».

بل ضحكاً أقتل نفسي. فقديماً كنا نصطاد الفئران. طفلاً كنت. وأنت غريبة. منقطعين من غير سبب. أبداً لا أجرؤ على نطق الكلمة الملعونة. والتاريخ يعيد نفسه. كانت المصيدة تطبق حين تصيد. أهرع جذلاً. لأرى الفأر مضغوطاً في قبضتها. والذنب الناحل يتراقص وحده كالأفعى حتى يخمد. قديماً، لُقّنا أن الفأر يحمل جرثومة الطاعون. واغتلناه كي نغتال هذا الطاعون. الآن، ازدادت الفئران العملاقة. كرجي م، مثلاً ضخم عملاق.

ويقاطعني جبل اللحم الثلجي:

ـ «كلا!.. أرأيت الملف؟.. إنه مصيدة الـ..جرذان.. مكتظاً بهم. وهذا الذي تتحدث عنه بداخلها مع كل الفئران الأخرى».

تعساء!.. فمجاري قاذوراتكم العمودية، هي مرتع الفئران. أمست الكلمات السحرية كظة دنيانا المبتلعة في أحشاء التجويف المحفور بأعماق كلمة شقيقته الكبرى.. دمره!.. الطرف الآخر!.. بغضاء الأهل!.. «الإنسان»!.. الفرية السوداء!.. «هوكس فكس»!.. يا شمهورش!.. أهيه أشر أهيه!.. الفأر.. الفأر!.. حذاري من الطاعون!.. كرجي م، العملاق مضغوط بين طرفي الصفحات السوداء مع كل الفئران البشرية الأخرى. جاءوا من أحد «الأطراف». كثرت «الأطراف» بفضل السحر الأسود.. البغضاء. القوميات. المجد لي وليس لك. خيانة!!.. مجرم من يجتاز حواجز «الأطراف».. سنحارب!.. النصر لنا!.. كان إبراهيم ش، يصمت. كثيراً يصمت هذا الإنسان. كرجي م، مدير سابق لمحطة قطار في ذلك الطرف «الآخر». يحمل مكنسته. يرقى السلم الحجري إلى أعلى جبل.

كان يوماً «مثوى ظل الله».

ـ «قالوا لي، إنك تخدم ولياً من أوليائه. أرأيت كيف؟.. أدخل الحضرة وأكنسها. في السابق كنت أُجلّ أولياء الله، أصبحت من فرط عنائي أبصق على القبر. ثم تنكشف لي أشياء على دفعات مثل جرعات سم موقوت. إني أكابد إحساساً مر الطعم لا أعرف شيئاً عنه، حتى جاء يوم. مكثت زائرة كهلة ورعة ترمقني في حزن ورثاء. ثم مدت يدها داخل حقيبتها الرثة وحين خرجت منها كانت منطوية على شيء حرصت على أن تخفيه بعناية. حشرت المرأة ذاك الشيء بين يديّ وولت. وفتحت يديّ فوجدت بداخلها قطعة نقدية. لحظة طويلة مكثت مرتبكاً لا أفهم، ثم حين فهمت اختنقت عيناي بالعبرات وقذفت القطعة النقدية إلى أعلى. مال الله يعود إليه. وقلت له: (خذ صدقتك، فأنا لا أقبل

الصدقات). وكنست وأنا أثير من حولي تراباً أشبه بالعاصفة الرملية. ها أنذا أعاني من داء الربو، من كثرة ما استنشقت من أتربة قبر ولي الله. وأخيراً أدركت أني لا أكنس إلا ظلي الإنساني. أرأيتم كيف؟!».

وقلت ليوسف ك، يوماً بعد فراغه من صلاة الصبح:

ـ «هل أنت حقاً متدين؟!».

قال، بفعل العادة:

ـ «كان أبي حاخاماً معدوداً بين العشرة».

ـ «مع ذلك، فأنت تتعاطى السحر.. أعني خداع الناس».

ضحك يوسف ك، ببعض ارتباك وقال:

ـ «النفس تواقة يا ولدي.. جاءتني يوماً أرملة، فقدت البعل حديثاً. قالت إنها رأته في الحلم يأكل سمكاً. اذاك تذكرت أن ثمة شيئاً ما يدعى سمكاً. فقلت للمرأة: (إن روح المرحوم مشتاقة إلى أكل سمك، وما عليك إلا أن تجلبي لي سمكة كبيرة وتليق بمكانته وأنا سأقوم بالواجب أزاء المرحوم). و.. أكلت السمكة.. لأول مرة منذ...».

قاطعته:

ـ «والله؟!.. إلا تتورع عن منافقته، أولا تخشى عقابه؟!».

قال:

ـ «هو مشغول. إنه يندب عاقبة صنعه. عباده قد مرقوا فهو يبكيهم كل ليلة.. وينتحب على فعلة الخلق النزقة الخرقاء».

يصمت إبراهيم ش. يذهل. يسحل ذاته منهوكاً، في ملكوت الأحزان. وروبين القصاب متقاعد ويقتل وقته في لعب «المحبوس». يشعر أنه بات كبشاً مشكوكة قوائمه بالكلاّب.

ويدوي صوت جدار اللحم، كصوت مروق طائرة مخترقة لجدار الصوت:

ـ «أقمتم بلداً! . . فئران موتورون!».

كانوا يجتمعون. جمعتهم شوكة. في وجه كل منهم انغرزت شوكة صبار سامة.

ـ «خلق الإنسان حراً!».

مير ز، يتفلسف:

ـ «جئنا للدنيا طرحاً مخنوقاً. كنا وما زلنا مخنوقين».

كانت أسرة خ، تمتلك في الزمن الغابر، في أحد الأطراف الأخرى، أراضي شاسعة خضراء. وعزرا خ، لا يبدو كالفأر أبداً. بل هو شاب فارع نحيف ورقيق وتطاوع عينيه الدمعة. يعزف على العود ويقرأ دواوين من صرعهم العشق من متيمي العذريين.

ـ «الفئران التهمت بيادر حنطتنا!»:

شقيقته جولييت هي مناقضته الكبرى. يوم جُمعوا من كل أطراف الأرض وألقوا في السجن، قالت جولييت لمحققها:

ـ «هل تعلم؟! . . يوماً سافرت قرابة ثلاث ساعات، من أجل هدف واحد. . سام».

قال لها، والفكرة المسمومة تتحدث بلسانه:

ـ «أعرف هذا الهدف السامي. كان لا شك جزءاً من خطة هربكم إلى بلد الأعداء!».

فأجابت بصراحة:

ـ «أبداً. إنما قصدت أثراً خاصاً، وأنا لا أنوي إلا أن أبول عليه، وأعودا».

صرخ الشرطي بجولييت:

ـ «أين؟!».

ـ «ليس هذا من شأنك. لكني أؤكد لك، أن الموضع ذاك، كان وسيبقى أحد مصادر تعاستنا البشرية».

ـ «أقسم إنك أروع مومس!».

جوليت خ، لا تخشى أن تصفع أو أن تبصق في الوجه. مع ذلك، كان ثمة ما هو أنجع.

انفجرت ضاحكة في وجه الشرطي وقالت:

ـ «أنت كريم! . . وتريد أن تقاسمني شرف ابنتك، لكني أفضّل أن أبقى بدونه».

غضب. في الأرجح. إنها هي التي تلقت الصفعة أو كادت. لغة سكان المجاري العمودية هي الصفعات. لم تعبأ. قالت ببرود:

ـ «ولماذا غضبت؟ . . صدقني ألا شرف أكبر من هذا. أفليس شرفاً أن تصبح ابنتك، عاهرة في دنيا أفضل شيء فيها الماخور؟!».

كانوا يجتمعون. فثرانك يا مولاي المحقق. الناس الطيبون الأبرار. يجتمعون من أجل أن ينتزعوا من على وجوههم الشوكة المؤلمة المسمومة.

ـ «لنخرج!».

ـ «إلى أين؟!».

ـ «بعيداً عن بؤرة تصارع القوميات».

ـ «قل لي، في أي مكان لا يوجد صراع القوميات؟».

ـ «حيث يوجد صراع الأجناس!».

ـ «أو الأديان. . أو المذاهب. . أو الألوان. . أو الآراء السياسية».

ـ «أين يوجد الإنسان، من غير هذا كله؟!».

ـ «ربما في العالم الآخر. . لكني لا أعطيك ضماناً على هذا».

ـ «مهما يكن، فلنبعد عن فوهة البركان».

اتفقوا. ذهب كل منهم إلى مكتب جوازات السفر. عادوا جميعاً من غير جوازات.

ـ «رفضوا!».

ـ «نحن أناس من غير هويات!».

ـ «لكن الناس ولدوا أحراراً. . لماذا لا يريدون أن يفهموا هذا؟!».

ـ «إن شئت الدقة، فعليك القول، إن الناس ولدوا مع خدعة الحرية».

ـ «إني أكره أن أكره. لا بدّ أن أهرب بعيداً عن بحر الكراهية هذا».

ـ «وهم مصرون على أن نبقى فيه. . وأن نكره».

وجه إسحق شرفنطح يشبه وجه المسخ. غدد لحمية ونتوءات تشوه هذا الوجه، قال:

ـ «خير طريقة أن نستأجر باخرة، ثم نلجأ للبحر».

عادوا وافترقوا. بوجوههم ما عتمت ناشبة الشوكة. وبحر البغضاء يطفح. ثم عادوا أخرى واجتمعوا.

ـ «تعبت!. . يأسي يوشك أن يجرفني في تيار البغضاء الملعونة».

ـ «لا تضعف!. . احذر من أن تلقي بنفسك إلى فوهة الطاحونة!».

ـ «لماذا لا يتركوننا نمضي؟!. . لو كنت مكانهم لقلت لكم (ولّوا. إلى ألف جهنم!)».

ـ «تستعر القوميات. وهي بحاجة لوقود. ألا تعلم هذا؟!».

ـ «وهي في الواقع محتاجة إلى ماء يطفئ جذوة النار المستعرة».

ـ «هل في وسعك أن تصبح أنت في الماء؟!».

ـ «بل قل هل في وسعي أن أتحرك؟!. . إني أصبحت مستودع أمراض».

ـ «اللعنة!. . لا بدّ من أن نصبح خارج اللعبة».

ـ «كيف؟!».

إسحق شرفنطح يعود ويشتدق بأوهامه، وأكاذيب إسحق، داء يجعل منه أحياناً أسمج إنسان.

ـ «وجدتها!.. سأهربكم!».

مرة أخرى تغاضوا عن أقواله. إن أحداً لا يكترث بإسحق شرفنطح.

ـ «طنجة!.. لا فرق هناك في القوميات..».

قوطع:

ـ «بل طنجة ملاذ حثالة البشرية».

ـ «حثالة البشرية، من يرضى أن يمكث في موقع تتصارع فيه البغضاء القذرة، ثم رغماً عن أنفه، يدخل مسار هذه الحلقة المسحورة».

ـ «نطلب أن نصبح مواطني العالم. لا حل إلا هذا».

ـ «نلجأ للأمم المتحدة. نحن أناس لسعتهم حرب القوميات النكراء. ليكن موطننا هذا العالم».

فكرة رائعة حقاً. إلا أن مولاي المحقق ثابت على فكرته «الإنسانية» الذاتية. أنت على حق.. فمهمتك هي أن تخلق للناس جرائم. وجريمة شنعاء، أن يجتاز المرء جريمة القوميات ويغدو إنساناً دولياً. إنه بهذا يقيم بلداً.. لكن وصفتك مضمونة. إجعله فأراً ثم نكّل به!.. والكلمات السحرية ناجعة المفعول.. خاء.. يا.. فاء.. ألف.. نون.. هاء.. راء.. المصيدة أضحت محكمة الإغلاق. أبداً لن يفلت منها فأر مارق. وخطابهم لم يصل الأمم المتحدة.. ضاع في أول الدرب.. فهل وصل أمي، خطابي؟!.. لو كان وصل حقاً، لجاءت تسعى إليّ ولو كنت في جزر واق الواق.. أين جزر واق الواق؟!.. أفلم يكن أفضل لو لجأنا إليها عوض البحث عن هويتنا الإنسانية الدولية المفقودة؟!.

تعالي معي يا ابنة عم. نيمم شطر جزر واق الواق. نحن في عصر السرعة. وسنبلغها في سرعة صاروخ. الخاطر أسرع من أسرع صاروخ. فلنبلغها قبل أن يخطفها منا صاروخ عابر للقارات. يهبط فيها فتتوارى في قاع البحر. هيا. مجرد نزهة. قرة للعين. حلم وردي يزري بأنفس أحلامك. أين منه ساعة أنضيت ثيابك ثم دسست إبهامي في قلب الكأس المفتوحة في بطنك؟ أترين؟!.. ما أبدع جزر واق الواق؟.. هنا، لا نخل، ولا أشجار الأرز، ولا نفط، ولا صبّار. هنا، لا أمطار ولا وحل ولا شمس تكافح ملهوثة كي تبلغ أرض العالم التعسة. هنا، لا حواجز، لا طلقات نارية، لا قتل، ولا فئران. فأرض واق الواق غمامية فضية. تحت أرجلنا لجات لجين متموج. في اعلانا أثير متكاثف نوراني أخضر. يومض إشعاعات لا تؤذي العين. ونحن نتحرك. في أبعاد أربعة نسبح. ونحلق في كون ليس فيه نار أو دم. أصيخي بسمعك يا ابنة عم. من أين تتناهى الأنغام العذبة؟.. أسمع أيضاً ترنيمات طيور ليست أرضية وبلابل أسطورية. وأشم ضوع شذى العنبر والكافور. وأحس سكينة محروم منها الإنسان في الدنيا. فأنا لا شك ميت. وفقدت ذاكرة الأحياء.. إحساس البشر الأحياء. لكننا بطلاقة نجوب هذا الكون الفاتن. حيث لا أقفاص مكفنة قضبانها بستائر عازلة أو جدران. ثم ها أنذا أسمع صفير الصاروخ. دوي يخشن.. تتكسر الأصوات كتساقط أشياء فخارية. والدنيا أمست كالحة النور. في قلب العتمة ظل أصفر شاحب. وهنا لطخة زرقاء تشبه ظلاً إنسانياً يكبر ثم ينتصب بشموخ حذوي. يرفع سوطاً بيديه. وسيلعلع هذا السوط، في الحال. وخسارة أن تنفذ هذه النزهة كشربة ماء نزرة. جاء دور الوجبة اليومية. والغيبوبة منتظرة في الدور. وأنا منهار، لكني ثابت. وعليّ أن أهيّئ نفسي، فأشيح عن جزر واق الواق وعنك، وعن كل الأشياء... إني إذن مضطر أن استودعها.. وأستودعك معها.... الله!.

الفصل الحادي عشر

رفع يوسف طرف البطانية وتطلع بي. حمل وجهه انعكاسة من ترتطم عيناه بأبشع منظر. كان هلعاً ممهولاً بالحزن. مفحماً متغضن القسمات. وتنهد.

وكنت أتحجر في وضع استنكار منبثق عن رفض لا يتهاود. ربما أخدع نفسي.. ربما أمحو الواقع وأفر إلى أحضان الأسطورة.. وتساءل يوسف:

ـ «حتى متى؟!».

وكان يضغط. كان يحاول بتعنت أن يضع الواقع المسخ نصب عيني بطريقة القديسين الحاملين لخطاة البشرية اللعنة ويجانبها البركة، أو نذر الويل الصاعق مع بلسم التوبة والغفران. كانت هذه، شعوذة تسقمني فوق سقمي المتفاقم. وأظافرها المقلمة تمسي في أحيان، أنشب في الروح من أنياب سياطهم العاضة. وبصراحة، فإن سؤاله هذا أصبح يتردد، في الآونة الأخيرة، ويدور في خلدي مع تصعيد أنفاسي، لا يتوقف. في ساعات جنوحي إلى هذا الكابوس المرعب، لكنه يمرق بشعاب تفضي لدلالات هي غير ما يومئ إليه يوسف هذا. كنت أجدّ خلفه طمعاً في رؤية مصيري. وكان يوسف يلقيه، فيشير من طرف موارب نحو نهاية ما عتموا يبغون تحديدها لي في جهد لم يتورع استبعاد كل رادع يمكن أن يوجد بأحاسيس كيان بشري أو حيواني. كان

سؤالاً يلقيه كل منا، مع ذلك كنا مختلفين بما نضمره ساعة إلقائه. بيد أن اختلافنا هذا في الغاية، لم يمنع أن سؤالنا ذاته انبثق دوماً عن ظاهرة واحدة، وحقيقة لا يمكن أن تنكر. وكانت الظاهرة والحقيقة تقيمان معي في هذه الزنزانة منظورتين باديتي السوءة، لا يمكن اخفاؤهما مثل بطن الحامل. ومثله تنتفخان بمرور الوقت. لكن أحداً لا يعلم ماذا سوف يتمخض عنهما. وكانتا عالقتين بي منبثتين بكل خلاياي وبروحي وثيابي أيضاً. ظاهرة تعسة وحقيقة شريرة، وتثيران سؤال يوسف وسؤالي كل لحظة.

ونكت بأصابع ناحلة كالخوص غباراً أمسى كل حياتي. وبدون أن أرفع من قوقعتي رأسي، غمغمت:

ـ «محظور عليّ الرد عليك».

ـ «أنا لست أي إنسان».

حقاً!.. فأنت معدود على الذين حظروا، بيد أنك مع هذا ما زلت أحياناً تنتزع شفقتي عليك. أما إن كنت صادق المخبر، فذلك يعني أن كلينا يلعب الآن لعبة هذه الشفقة.. كلا.. بل دعني كي أدعك، فأنا لا أقوى على هذا..

لم يتركني وشأني فاستطرد:

ـ «صدقني إني أخاطبك مثلما أخاطب ابني.. وثق أني أخشى عليك من عنادك هذا».

هل ينبت في هذه الزنزانات «أبناء» ليكونوا أكباش فداء؟!..

تحاملت على نفسي فقلعت عيوني من الإسمنت. وخرج رأسي من درعه بين ساقي، بمشقة. كان قد اعتاد هذه القوقعة من حيث انعدم كل ما يستحق الاطلالة منها عليه. الساعة، اشرأب العنق لترى العينان هذا الشيء الأبوي الفائض رقة، لكنه يتواجد هنا في هذا الموضع مرتدياً البزة الزرقاء.

ـ «لماذا لم تدافع عن نفسك؟!».

وكان الدم يغطي وجهي. وتساءلت ساعتها عما إذا كان غبياً بالفطرة. إلا أن الرد ما انفك يتأرجح حتى أصبحت «ابنه»، وغدا الدم يغمر كل أعطافي، وكأني إنسان حي بالفعل.

ـ «اتساءل لماذا لا يوجد هنا من يخشى عليّ غيرك؟!».

وأفحمته. فحتى لو لم يفهم مغزى لسؤالي، فهو لن ينجو أبداً من قبضة الإحراج. وهناك احتمالان يتيمان. فإما أنه ينفذ دوراً مرسوماً، أو أنه ملاك يتعايش مع زمرة شياطين. وكان سؤالي له يهتك عورة الوضع الأول. أما الوضع الثاني، فبوسع يوسف لو جابهه بشجاعة أن يدخل تيهاً لا مخرج منه. والعقل، إن كان سوياً، فسيستنكر موت مبالاة الإنسان وصمم حواسه في جلبة أجراس الأخطار وهي تدق في أذنيه دون هوادة. وسيستغرب أيضاً، أن يضع المرء شعوره في بؤرة لا بدّ سيأسن في داخلها يوماً. أما أن يمتلك الحس المرهف ثم يلقيه مختاراً وعن إدراك تام في بيئة تتحرش فيه وتعذبه باستمرار، فهذا أمر، من الأفضل أن تهمس به في أذن أي حمار تلقاه في الشارع صدفة، فلعله يعطيك التبرير بهزة تلقائية من رأسه.

سل ابن عمتي فسينفحك الرد القاطع الفصل. يوماً اضطر لكي يحظى بكفاف يومه أن يعمل سجاناً. كان سليم النية. لم ينظر في قاموس السجانين ليتأكد مما تعنيه لفظة السجان، ثم بعد أيام بفضل ممارسته الفعلية، اجتمع لديه ألف مرادف تعني تلك اللفظة بالذات. كل مقيت كان يعنيها. السجان يعني الجلاد.. الشيطان.. النذل.. يعني شخصاً يرغم سجناءه على أن يشربوا بولهم عوض الماء. يمسح عنهم ظل كل ما هو بشري.. وتشبث ابن عمتي بضميره. كان حريصاً على إبقاء ظل الخالق المبثوث في خلقه. فتقيأه الوضع بسرعة. سمع

الأجراس منذ أول لحظة. . رفضَ أن يتعاون على تحويل المخلوقات البشرية إلى فئران.

وتمعنت في وجه يوسف المرسوم داخل ثقب بين الحائط والبطانية، واحترت في أمره.

وعاد يقول:

ـ «صدقني. أنت مطوق من كل جهاتك. وأحد لا يعلم بمكان وجودك. . وقريبك شهد ضدك، فقل الكلمة وانقذ نفسك».

حملقت بيوسف وبكل الأشياء. ووقفت منتفضاً كلي. ورأيت أشباحاً سوداء في كل مكان. الآن فقط أدركت السر. وليس سر يوسف ما أدركت، بل سري أنا. هذا الموت المرحلي الجاري في السر. وتيقنت من أصداء بكاء الأرملة المسكينة وتضرعها الذي طرق سمعي أكثر من مرة. ذلك لم يكن محض هذيان أو وهم سمعي. إني إذن أتفسخ في منأى عن كل العالم. إني معزول أعزل من كل سلاح قد يوجد ليدافع عني. العدل!. . هذا الشيء، لا شك كان موجوداً في غير هذا الموضع. يقبع بمكان ما خلف جدران القلعة الصفراء الجدران، التي لم يخجلوا من زرع الورد في داخلها. . حقاً، قد غربت عن بالي أشياء العدل!. . مهما حدث فهو يشع على البشرية كي يحميها. لن يتخلى عن مخلوق، حتى يلفظ هذا المخلوق آخر أنفاسه. وابتلعتني رعشة. إني الآن أفهم سر إلقائي ودفني في هذا القبر. . ولماذا اخاطوا فمي وكفنوا الأشياء من حولي حتى باب القضبان. . ودهمني الخاطر يحمل لي روعة أبشع موت. وكان يضحك في وجهي بأشنع طلعة. أنيابه تتدلى من ثغره مثل أنياب الفيل. ولا عيون في محاجره لكنه يحملق بملايين خلاياه المسدودة. قرنان على رأسه وقرنان في أذنيه وقرن آخر يخرج من فتحة منبعجة في وجهه المسخ. أصلع. . مجذوم. . يدب لحمه فوق بدنه كطوابير عقارب. . يتشكل صوراً

مفزعة لا تبلغها مخيلة بشرية. يمحو نفسه ثم يكتبها في ذاتي. وبسرية تامة يتقمصني.. موت مسخ لم يخلقه الله. يتكون داخل جماجم مكتظة بنجاسات الدنيا. في كتمان يوجد. ثقب يقذف في أحشاء كياني.. يشربني جرعات عذبة في غرة من أمر العدل.. في السر يحدث كل هذا.. في السر أعاني.. في السر أتآكل.. في السر أتناقص.. في السر أذوب.. وستكنس مني الزنزانة في السر كذلك بمجيء الوقت، لتواريني بقعة مجهولة لن يعثر أحد عليها حتى العدل نفسه. لن تجدني أمي.. لن يجدني الإنسان البار.. لن يفضي يوسف، هذا «الإنسان الطيب» بمكاني. ومحمد اجتثوا لسانه من أصله. والغولة النادمة الحسناء، أتراها تعلم بما تعلمه شقيقتها الكبرى؟!.. وتعرف ما يعرفه شقيقها الذي لا يكف عن دورانه حول الدائرة المفرغة كأي ثور معصوب العينين؟!.. وحين سيعود ويستيقظ ضميره، في الأحرى حين سيتمرد مرة أخرى فسأكون أنا في لا موضع.. وسيصرون على «أننا لا نعرف عنه شيئاً».. ليس هنا.. ليس هناك.. ليس في أي مكان!.. أفألجأ إلى جزر واق الواق وأنا ميت في دنيا الواقع؟!.. هل أتحدى هذا «الحكم»، باستحضار شخوص لن تسمعني حتى ساعة ألسنتها تلعلع كي تستفتيني؟!.

كان الواقع يحكم من حولي طوقه. في عتمة الزنزانة شاهدته وسمعته وشعرت بوجوده. فاحت رائحته من أعماق روائح عفن رطوبة حاذقة منحشرة في كل مساماتي، أيقظ ريحه هذا غرائز أدركها خدر عات منذ شهور. ويفيق الغد أيضاً.. المستقبل اللامستقبل.. أفكنت محض نعامة؟!.. هل بشعور مكنون غامض كنت أخشى مواجهة الغد هذا؟!.. الساعة، أبصر فيه موتي القادم بخطوات متئدة.. كيف سأتخلص منه؟!.. موتي.. كيف سأوقف خطواته المقتربة؟!.. كيف سأنجو؟!..

وسمعت اصطفاقة روحي وهي تغمر صوتي حين ساءلته بما يشبه إستغاثة أو صعقة رعب مهموسة:

ـ «أتظن إذن، أني لن أخرج حياً من هذه الزنزانة؟!».

وتغضن وجهه. لاح عليه استنكار.

ـ «دعك من الخرافات.. أن أحداً لم يقل لك هذا».

وخذلني صوتي فأرتعد إذ حاولت أن أصرخ فيه:

ـ «بل أنت قلته الآن.. وأنا أعلم هذا حق العلم».

فقال ببرود:

ـ «أنت أسأت فهمي.. كنت أقصد أنك تعاني.. وهذا يكفي».

وحل صمت طارئ. صمت ضيق محدود لا يختلف في شيء عن هذا الواقع. كان إطاراً للواقع والواقع اطاري الذاتي، وكلانا تتخلى عنه خطوته الذاتية. كانت هذه الخطوة بحاجة لشيء «حيوي» لكي توجد ثم تتحرك. وهنا كان الموت وحده. وأنا أعرف مصدر هذا الموت. وسألت يوسف:

ـ «وماذا سيكون مصيري لو قلت لهم الكلمة؟!».

أجاب دون تردد:

ـ «في كل الأحوال، سيكون أكثر «إنسانية» من وضعك هذا».

وتركني. وزحفت إلى مكاني المعتاد وأمامي كان الكابوس. ودخلت قوقعتي فألفيته في داخلها يتربص بي. وكنت اقفقف.

برهة رجعت إلى ليل السرداب، ثم ركلتني أحذية الماضي فاجتزت اللحظة. ورأيت كابوسي في كل مكان. والبرد يستفحل. إني أموت!.. في السر أموت!.. لا يعرف أحد شيئاً عن موتي. والشرطي هذا، جبان. وسيحاول أن ينسى مثلما عاد وأنكر تحذيره لي.. فكفاف عيشه يحتم هذا النسيان والنكران. وفطنت إلى استعماله لفظة «الإنسانية» فتأكده، كل شيء في الإنسان.. حتى إنسانيته هذه. لقد

كانت يوم ولدت غير مجزأة بعد، ثم بترت أعضاؤها وفق الأذواق البشرية. وكنت بذاتي نكد الطالع فحصلت من الإنسانية تلك، على هذه القطعة التعسة، كي أشهد نتائجها من حولي. قطعة منكودة مثلي. دنسة متعفنة لا تقربها حتى وحوش الغاب. وكانت كل «الإنسانيات» المتغايرة الكنه تقاتل بعضها بعضاً مثل صاحبها الإنسان. وعلمت أن هذه الإنسانيات برمتها، ستموت، رغم اختلافها في الجوهر، بمجرد أن ينقض البعبع المصنوع منها والمدعو الموت. إنه سيزدردها بشهية، ثم يبقى وحده من غير «إنسانيات»!.

وماذا يمكن أن أصنع؟!.. لقد كان يجب أن أبقى حفاظاً على بعض تلك «الإنسانيات» ولكي لا يلتهمها الموت. إني لا أخشاه، قدر ما أخشى تصدع إنسانية أولئك التعساء. حدث هذا يوم اختطف الموت رجلاً أحببته وعبدته. كان من عسف الجور أن يصبح الأسود، اللون الثابت لوشاح المرأة الأرملة المفجوعة. المرأة التي أنكروا عليها مكان وجودي. واحتضرت الجدة وسؤال لم يبرح فمها يتردد «أين هو؟!.. أتراه حي أو ميت؟!» لم تقلع عنه حتى جاء هذا الموت وأسكتها.

ولم أغالط نفسي. فساعتئذٍ علمت بأني مهزوم.. وجبان.. وأني خسرت اللعبة فلم يبق شيء إلا الاستسلام.

وكتبت الإقرار معترفاً بأني مجرم. وبأني لجأت إلى «طرف آخر» فخنت بهذا بلادي عن سبق إصرار. وبأني لم أفعل هذا وحدي بل ورطت معي شاباً آخر تسببت بترديه معي لحضيض الخيانة والإجرام.. وأضفت إلى إقراري هذا، وبناء على رغبتهم هم، جملة «أقر بهذا وأنا في كامل قواي العقلية».

ولم يبق سوى أن أضع توقيعي في أسفل هذا الإقرار. وكنت سأوقع دون تردد، لولا فقرة «بكامل قواي العقلية»، التي أضيفت في آخر لحظة. إذ سرعان ما حدث عطل ما في عجلتي الدائرة تلقائياً

وبأقصى سرعة. وكان ثمة آلة أخرى شرعت تنشط داخل رأسي وأحاسيسي لحظة داهم الخلل العجلة التلقائية. ودلفت إلى هذا الرأس أراقب ما يحدث فيه. ووجدت أني بكامل قواي العقلية فعلاً. وقد انسلخ عني شبح الموت الذي كنت أخشاه. وعلمت بأنه كان يطاردني حتى جاءت لحظة التوقيع، وحينئذ توقفت العجلة المجنونة الآلية وأصبحت في كامل قواي العقلية هذه.

طيف الموت تبدد. توارى تماماً. وأنا أمتلك عقلي لا ريب. وبيدي ورقة كانت بيضاء ثم سوّدها جبني بإقرار قاتم في زيفه كالقار. والإقرار هذا لا ينقصه إلا التوقيع.

ـ «وقع!»:

وتفحصته. أساريره كانت مكتنزة بشيء غير اللحم. كان منتصراً إلا أنه متوتر. ولجأت إلى إقراري أبحث فيه عن مصدر نصره وتوتره اللامنطقيين. وكنت بكامل عقلي فوجدت هذا المصدر. كان نصره يتمدد بين كلماتي، وتوتره يبحث عن راحة في كلمة تافهة القيمة لم توجد بعد على وثيقة الإقرار، فيقض غيابها مضجع نصره ويتهدده بضياع كامل. الإقرار القذر المسطور في ظل شبح الموت، عدت وقرأته. كان منتزعاً من كل خداعي لذاتي.. مسروقاً من خوفي.. كان فقداني الذاتي لوجودي.. استسلامي للشيطان. وهناك على الطاولة البنية ما عتم الملف الضخم ينام.. مصيدة للجرذان والفئران. وفي وجه جبل اللحم نشوة ظفر شاحبة اللون، منتظرة بفراغ صبر أن تتورد بالدم وتلاحق سكنات أناملي الممسكة بالقلم السيال.. تتعقب اللحظات.. لحظاتي بعد أن استعدتها منهم مذ عاد لرأسي كامل قواه العقلية. وتفحصت الورقة وقرأت وأعدت وترددت. والأشياء منبلجة تسطع فأراها بوضوح تام. وأشاهد الفئران البشرية ترسف ما انفكت في الأغلال لكنها منفصمة الحلقات. القيد، ما زال واهياً منقطعاً.. وبيدي

هذه الورقة القذرة.. الحلقة المتممة المفقودة.. وهي مقتطعة من هذا الوجه المكتنز المترهل.. وبمجرد أن أضع التوقيع عليها فستغدو جزءاً مني، وسيغدو القيد المقطوع، مكتمل الحلقات.

كلا يا جلادي!.. اللعبة لم تحسم بعد. لن يسقط وجهي ليرتفع رأسك في غطرسة مريضة مجنونة. إني أمتلك عقلي ولحظاتي.. وإذن، فأنظر اللحظة القادمة، ماذا تحمل لك.. أرأيت كيف يتمزق نصرك مع هذه الورقة الملعونة؟!.. وجهك كيف يخبو؟!.. يسقط مع أشلاء مستند الزيف في باطن سلة نفايات؟!.. بين ساقيك تماماً؟!.. هاتين المرتعدتين؟!. أنت تعود الآن «إنساناً» من حقه أن يغضب. قد أخفقت في دسي بجوارك داخل الأنبوب الضيق المتعفن الريح. ثمة، آلاف جرذان حقيقية ناقلة للطاعون. نحن ما زلنا هنا خارج بؤرة القاذورات.. نحن لا نحمل الطاعون لأحد مهما كان. نحن لا نكره مهما زرعوا أوجهنا بالأشواك الموجعة السامة.. نحن ما زلنا بكامل قوانا العقلية!.. وعلى حين غرة، امتلأ العالم بأصوات عجلات معتملة دائرة بكل طاقتها. أصوات أشياء تقضم وتتفتت. أشياء تفرقع وتتهشم.. أشياء تصطفق ثم تنهار. وكان ذلك كله يجري داخل الوجه المترهل. كان ما زال مكتنزاً. أوداجه تنتفخ دون توقف. حقد غامق يلتهم في لحظة، نصر الأوهام. يتجوف ما تحت الوجنات وما حول العينين. يُحشى جمراً يأخذ بتلابيب الصوت، فيئز أزيز النار.

ـ «ما هذا؟!.. هل جئت لتغرر بي؟!».

ـ «كلا يا مولاي.. كل ما في الأمر أني كنت بغير كامل قواي العقلية».

ـ «هل أنت مجنون، أم تتظاهر؟!».

ـ «أبداً. فلقد عدت الآن إليها».

ـ «عدت إلى ماذا؟!».

فتمتمت:

ـ «القواي العقلية يا سيدي المحقق».

ـ «خذوه إلى الزنزانة! خذوه إلى الزنزانة!».

لا تتوقف اللعبة. مرة أخرى في أحضان الهول. إيماءته الثالثة محفورة في صفحة ذهني مثل وسمة كي. صراخها داخل جمجمتي ليس مجرد وسواس. صلبوني في وضع مقلوب. جمع كاحلاي ثم حبسا بالقيد وربطا في قضبان الكوة العليا. من حسن الطالع أن ذراعي مكثتا طليقتين، فتوكأت بكفي على الأرض. وانهارت أحشائي ثم شرعت تضغط حلقي في قوة. مارست من ثم، مجهوداً أسطورياً من أجل أن أتقيأها دون جدوى. واندحر المجهود الأسطوري ليبقى غثيان حاد مشوب باختناق، ثم اختنق رأسي أيضاً. وكان يغرق كله في الدم. يغمره إذاك ثقل ودوار وضباب. ثم يولد الشبح الأسود ثانية. وأنا ألبسه الآن كمعطف شتاء غامق وسميك. ولكنني تجاهلته، أو لم أقو على الإحساس به. كنت أجالد وعياً يشبه قنديلاً لم يبق من زيته إلا قطرة. أطمع في تخليد القطرة هذه كي لا ينطفئ المصباح. وكنت أغالط نفسي في تصديق أكذوبة «التخليد». إذ لا شيء يخلد في هذا العالم. وفي اللحظة تلك أدركت بالضبط كيف تخبو الأشياء.. وتموت!.

ثم خانتني تجربتي هذه، فلقد استيقظت. ومعنى هذا أني ما زلت حياً. وكنت أحتضن الأرض التربة القذرة. ملتصقاً فيها بعنف وكأني أضاجعها. كان فمي منفغراً يطبق على لحم الأرض العاهر هذه، يلثمها. وقد سال لعابي فتكون في موضع سيلانه طبقة طينية لزجة تشبه حيوانات منوية في حجم قذفة واحدة من إحليل بشري. كان هناك، لا شك، جماع بالإكراه.. أو بطريق الإيقاع في شرك الإغراء.. وتساءلت «من منا اغتصب الآخر أو أغواه؟!». بيد أن استسلامي للأرض وجذبها لي لم يبق على شك في أن الفعلة كان فعلتها بالذات. وعلى غير وعي

مني لعقت بلساني جسدها العاري ثم روعت. كان طعمها تفلاً وكريهاً ويثير الاشمئزاز. نكهة جيفة.. وصحوت تماماً. ولعنت هذه المومس المبتذلة التي لا تنطفئ في أحشائها شهوة. أبداً هذه الأحشاء متقدة كالنار. وهربت منها وأنا أبصق الطين فوق بدنها القذر العاري ثم رأيت ثغرة في باب القضبان مليئة بعين ترمقني خلسة. وفي التو، انسدت الثغرة وتوارت العين. وتماديت في الصحو، فإذا به يطرق أبواب خلايا أعصابي ومخي. ثم لم يلبث الشبح الأسود أن عاد وتجسد من تلقائه قدامي.. سأموت في أحضان المومس الشمطاء هذه.. لا بدّ ستمتلكني عنوة لتغيبني أحشاؤها في غرة من أمر الدنيا والبشر التعساء..

وقهقه الشبح الأسود ثم صاح بي في صوت كالرعد:

ـ «أنت لها رغماً عن أنفك!».

وارتجت أمعائي في بطني وهتفت:

ـ «لا.. لا.. أمي تبحث عني.. وفتاتي تنتظرني».

ـ «أنت غض يافع.. وقد عشقتك!».

ـ «وهي رطبة.. شمطاء.. سعلاة.. متسخة شعثاء.. قذرة باردة مثلك!».

ـ «ستوسدك رحمها. وأنت ستغيب في النشوة الجبارة.. لن يبقى بعد إحساس برطوبة أو بقذارة أو برد.. ألم تتأكد في تجربتك الأولى؟!».

الغيبوبة!.. حشروها بكياني في السر.. شحنوه خطايا.. ثم وصموني بها من دون أن يشعر العالم!..

ـ «لا.. لا.. تلك لصوصية.. إكراه.. وأنا أعزل وبعيد عن إدراك الدنيا».

ـ «قل ما شئت، فأنا من يصدر الأحكام هنا!».

ـ «أهو الموت إذن؟!».

وحملق بي. وأشار نحو الأرض العارية المتهتكة بفجور لا يرحم.

ـ «اختر!.. فإما هذه المولهة حباً بك.. أو..».

ـ «أو ماذا.. بحق الله تكلم!».

ـ «الكلمة!.. أعطهم الكلمة. وانج!».

ولهشت. وكان البرد يشبه برد ليل السرداب.. في «الطرف الآخر».

ـ «إذن، فالإنسان شاء هذا!.. لماذا الإنسان يشاء هذا؟!».

وفجر ضحكته السمجة الفظة في أرجاء وعيي.. وتشدق:

ـ «أنسيت أنه حليفي وحبيبي؟!».

وتوليت عنه.. وتداعيت. كانت التجربة مغثية وفظيعة. وعليّ أن أختار. وسقطت بين جحيمين، فلقد كنت غمست لساني في عمق التجربتين وتذوقتهما. الطعمان صنوان. وفمي ممتلئ بمذاقهما اللاسع، السم. أبداً لا فرق بين الطعمين. واحترت.. أيهما أختار؟!.. وكان لا بدّ هناك طعوم أخرى قد لا تبعث في النفس شهية، لكنها حتماً محتملة وأقل مرارة.. وما دامت تلك الطعوم موجودة فأين عساها تكون؟!.. وببديهة أدركت، مرة أخرى، أنها تقبع خارج هذه الجدران، فهي إذن في حكم اللاموجود. ومحال أن تدركها أذرعتي مهما امتدت. إني ناشب في أنياب هذا البعبع. مضغوط بين فكيه. وببطء تزداد اطباقة الكفين.. وكان عليّ، أخرى، أن أختار، إلى أي الفكين أنحاز؟!.. قبل أن ينطبق الفكان عليّ تماماً.. ورفضت قدري.. الظالم القاهر الذي لم أختره.. كنت ما زلت أقاومه من غير بديل، وأقاوم أيضاً احتمال جنوني، فجنوني كان أعجز عن تغيير الأوضاع. وحضوره يعني بالتأكيد أني سأستسلم، وسأمنحهم حقاً، ما زال ملكي حتى اللحظة هذه.. وسأبدو أمام العالم، فيما لو انهتك السر يوماً، وكأني اخترت ما لم أختره أبداً.

اللعنة! . .

كانت صرخة العاجز عن كل الأشياء. تعوي بها كل حواسي. كانت ذاتي أنا. . تطفح بي ثم تغمر هذه الأشياء الضالة. وانفصلت عني فجأة. واقتحمت البطانية المسدولة فوق باب القضبان فسمعتها تعوي في الخارج. تتقمص صوتاً يهدر. خشناً وغريباً يتعالى من فوق أكتاف جلبة. تماماً خلف البطانية. تعلو فتسب وتصخب. . تثقب البطانية وتعود إليّ. وأنا أتنصت. . يتسمر وجهي في كفن الباب. . والصوت يبتعد قليلاً ثم يؤوب. وكان ما انفك يقذف ويسب، ثم كف فجأة كما لو كانت سكتة قلبية قد بغتته.

كان بصري ما زال يحط على كفني الداكن المسدل على باب الزنزانة، لا يهبط عنه. وثمة حركة متموجة على البطانية، تشير بوضوح إلى أن شخصاً ما يستند على هذه البطانية أو يعبث فيها بيديه. كانت اللعنات قد ماتت، وابتعدت الجلبة إلا أن البطانية مكثت ترجرج.

مثير للاهتمام! . . في هذا الجمود اللامتناهي يتطفل شيء تافه على وعيي الواجف المذعور. . شيء لم يحدث منذ سمعت النقرة تأتيني عبر الجدار الأيسر. وسمعت ترديد أنفاسي مصحوباً بإيقاع يضرب رأسي. . الصمت. . والارهاف داخل الصمت. والجلبة سكنت في الخارج وتوقف إطلاق اللعنات، بيد أن الحركة المتموجة العفوية في البطانية كانت تأتي في نوبات ليست منتظمة وتشدني قسراً نحو شيء في الخارج. . الباب!.

ثم تحرك شيء أكبر داخل هذا الصمت. وكنت أتوقع بالفعل أن يحدث أمر ما. مع ذلك فوجئت نصف مفاجأة. فلقد انزاح نصف البطانية عن نصف باب القضبان، بسذاجة. وكان رجل ممتلئ ربعة أسمر وفي منتصف العمر، ينتصب هناك. وكان بلباس مدني فاخر ويدخن سيجارة. وكان يرفعها إلى فمه فتتدلى من معصمه سلسلة ذهبية

تتوسطها ساعة، وخمنت أنه من كان يغرق رجال الشرطة بلعناته، وأنه قد كف عنها ليحملق بي.

وتركت ذاتي تسقط في بؤرة نظراته وسهمت. وانفلتت لحظات مطنبة بفضول متبادل أخرس. وعيونه تتفرس بي تستعرضني المرة تلو المرة، والوجه الأسمر يعلوه استغراب، ثم.. يدعوني إليه.

وأشرت إليه بأن يصمت، وتقدمت. وبادرني بصوته الخشن العالي:

ـ «أنت عراقي؟!.. وأنا أيضاً».

ـ «اخفض صوتك أرجوك».

طالعني في دهشة. لم يفهم.. لم يذعن أيضاً لرجائي.

ـ «خلاف بسيط مع أصحاب في المقهى.. جاءت الشرطة وأصرت على أن نوقف جميعاً.. أبناء المومس لماذا لا يتركون الأصحاب يختصمون ثم يصطلحون بدون تدخل؟!».

ـ «الأجدر أن تبتعد عني.. حديثك إليّ سيثير مشاكل لكلينا».

ـ «هل أنت من المغضوب عليهم؟!».

صمت عنه، فاستعرضني وأضاف:

ـ «قد قددوا لك لحمك فيما يبدو».

ـ «ولا أحد يعلم بمكاني!».

ـ «ماذا فعلت؟!».

ـ «لو أدري فقط ماذا فعلت؟!».

فأطلق مسبة ثم قال:

ـ «لعلهم يتهمونك بقتل الله».

وسمعت وقع أقدام مقتربة فتريثت.. وذعرت، فقال:

ـ «لا تخش.. كل الأوغاد موجودون في الخارج.. منشغلون الآن..».

واستطرد:

ـ «أقتلت الله حقاً؟!».

ـ «لو أن هذا كان صحيحاً، لكنت أزحت عن طريقهم أخطر منافس..».

ونفث دخانه، ثم نظر يميناً وشمالاً:

ـ «هذا صحيح.. أولاد القحبة.. كل منهم يحسب ذاته الله الواحد القهار».

وتناهى صوت مشبوه آخر، هرولت إلى زاويتي وطلبت منه أن يبتعد عني. وامتثل في المرة هذه، وأعاد إسدال البطانية. واقترب الصوت. وكان محمد يحمل لي طعام الظهر. وقال محمد:

ـ «جاءوا بموقوفين ويحققون معهم تباعاً. أحدهم كان هنا خارج الزنزانة وهو يتجول الآن قريباً منك».

وتأكدت. وخرج محمد ثم أغلق الباب. وتفحصت طعامي. كالعادة. كان مثل فريضة ممجوجة فارغة المضمون في الظاهر، وكنت أحشو به بطني في إكراه طوعي. في الآونة الأخيرة استبعدت تجديد الإضراب. كان ضعفي يمنعني عن تكرير ذلك. وأنا منغمس في أمعاء هذا الضعف محتاراً، ما زلت في بحث لا يفنى، عن أي بديل ينقذني من أحد الموتين. وشرعت أؤدي فريضة ملء المعدة، وكنت في الواقع آكل لحمي. وتناهى الصوت الحاد الأسمر من خلف القضبان يهمس:

ـ «هش!.. هش!».

ورفعت عيني. كان قد عاد. يطأ الحظر الملعون بحذائه اللامع، وانزاح الآن من البطانية ثلثاها.

ـ «هل في وسعك أن تتناول هذه الجيفة؟!».

فتركت الجيفة وقمت إليه.

ـ «هذا أهون ما في الأمر».

وتفكر لحظة، ثم تنهد:

ـ «وضعك هذا لا يعجبني».

ورمقته. وكان أمعائي فيه يتوزع بين أشياء كثيرة.. أولها خوفي من أن يداهمنا أحد منهم...

ـ «اسمع.. أتريد إبلاغ أهلك شيئاً؟!».

وتوقد عقلي فجأة:

ـ «ليس لديّ مشيئة أخرى.. لكن كيف؟!».

ـ «سأتولى الأمر بنفسي.. فقط، اكتب العنوان لي.. وما تريد قوله».

تماماً كأحلام اليقظة. كنت قبل لحظة أقلب الموتين بين يدي وأحتار. كانت أيضاً أضغاث أحلام وردية تكمن خلف جدران قلعة الموت هذه، وعلى عيني عصابة أكثر خبثاً من تلك الحاجبة لأبصار قريبي. الواقع كان فظاً.. منع حتى الأحلام العسلية من أن تنسل لرأسي. وهمست أتساءل:

ـ «أأنا في حلم أم في علم؟!».

قال:

ـ «إكتب الورقة في الحال. لا يوجد متسع من وقت. قد يفرج عني في كل لحظة».

يا للحسرة!.. وتذكرت أني لا أملك أوراقاً أو قلماً. غمغمت بحزن:

ـ «ليس لديّ قلم ولا ورقة».

وغضب الرجل المجهول:

ـ «السفلة!.. أفرغوا لي كل جيوبي قبل دخولي. إن قلمي الباركر الفاخر في حوزتهم الآن، قالوا إن حاجياتي ستُعاد إليّ عند الإفراج عني».

وتعذبت.

ـ «ماذا سنصنع الآن؟!».

أخرج من جيبه، علبة سجائر وقدمها لي.

ـ «يمكنك أن تكتب على ظهر العلبة».

ـ «لا يمكن أن نكتب من غير مداد».

فلعنهم وهو يقول:

ـ «والوقت يمر بسرعة».

ولمع في ذهني خاطر فقلت له:

ـ «محمد!.. أين محمد؟!.. في وسعه أن ينجدنا الآن».

ـ «أي محمد؟!».

فقلت مشيراً لطعامي:

ـ «من أحضر لي هذه الجيفة.. وهو لا بدّ يتجول في هذا الممر أو ذاك؟».

فقال:

ـ «سأبحث عنه».

مرة أخرى. وحدي. وقشة أمامي تلوح لأول مرة، هي فرصة العمر. كنت أعلم بأن القشة هذه يمكنها أن تستبدل موتي الآتي بحياة أضحت مثل هبة يضن عليّ بها قدري العابس.. ثم ها هوذا يقلع عن جهامته فجأة فيلوح لي بها، يسعر روحي ويحرك فيها رغبة قضت أجلها وأهيل عليها معي تراب الأيام. وتشططت. كنت أمد ذراعي نحو القشة.. لا أبلغها بعد. وكان بلوغها يتطلب شيئين.. أبخس وأغلى شيئين.. أوفر وأندر شيئين.. قلماً وورقة!..

وجاء محمد، وبحذر متوتر ناولني من بين القضبان ورقة مجعوقة، ثم همس:

ـ «ما أنكد حظك؟!.. قد أخفقت في إيجاد قلم لك».

وكأن قدري الذي كف عبوسه، ابتسم في رأسي على غرة، فالتمعت في ذهني فكرة أخرى.

ـ «اسمع؟!.. ألديك علبة ثقاب؟!».

وبحث في جيبه ثم ناولني العلبة. وكان فيها ثلاثة عيدان. وراودني فرج عارم وطلبت منه أن يذهب ثم أحكمت من تكفين الباب.

واستولى عليّ ما يشبه الرهبة. عدت إلى أقصى الزنزانة في حرص يتوخى أن يصمت ما في الزنزانة، ثم أوليت الباب ظهري وفتحت الورقة المجعوقة.

كانت الورقة عبارة عن صفحة كراسة مسطورة بخطوط خضراء يقطعها في الهامش خط عمودي أحمر. وكان عليها بقعة زيتية وقذارة.. يمكن أن محمداً قد جاء بها من المرحاض، أو التقطها من فضلات طعام مسجون كان قد مسح بها فمه بعد فراغه من أكله.. لا يختلف الأمران.. إلا أن هذا ليس مهماً الآن. فلقد كنت أستبق هذا الوقت الذي انحرف عن مساره وفي بغتة فذة غير عادته فانتابته حيوية طارئة وطفق يعدو حين أنا بأمس الحاجة إليه.

وحرقت عود ثقاب. وبفحم طرفه المحروق دونت نصف عنوان أمي. وحرقت عود ثقاب ثانٍ وكتبت به النصف الآخر. وانطفأ العود الثالث فور إشعاله فلم يكتب شيئاً. وأعملت فكري. كان لا بدّ وأن يوجد مداد من أي نوع كان، كي توجد الفرصة.. ونفخت.. وبحثت في أرجاء الزنزانة فهنا حياتي لا بدّ تتستر في ثقب ما. وكان ثمة قوتي أيضاً. الجيفة التي تدخل أحشائي لكي أبقى يوماً آخر بمجابهة الموت.. ورأيت هناك شوكة صدئة وكليلة الحد، إلا أن الخاطر عاد وشع في رأسي. وتناولت الشوكة ثم أغمضت عيوني. وترددت. برهة قصيرة وثمينة، ثم انغرزت الشوكة في إبهامي. وفتحت عيني بعد

اقتلاعي رأس الشوكة من اللحم. وتوقعت أن أجد حبراً أحمر بيد أن ظني خاب. كانت الإصبع تتقطع ألماً لكنها تبخل بالدمع. وعصرت الإبهام. هل جف دمي؟!.. واعتصرته أخرى.. قفز قلبي بهجة. فلقد انبثقت قطرة. وبذلت كل ما في وسعي كي لا تسقط تلك القطرة على الأرض فتتبدد. كانت هذه أغلى قطرة حبر أحظى بها طيلة عمري. وغمست العود الثالث بالدم وكتبت تحت العنوان: «إني أواجه خطر الموت».. والقطرة نفدت عند هذا فرجعت أعتصر الإصبع بجنون.. وحصلت على قطرة أخرى.. صغيرة وحمراء.. وغمست العود ثم دونت: «موجود في..» وانتهت القطرة الأخرى، فعصرت وعصرت. لا شيء بعد. استنفدت كل مدادي.. وثمة جمرة قانية تتوهج وتحز في أعلى الإبهام. وتألمت.. وسخطت. وسمعت طقات حذاء تتتابع خلفي. وأدرت رأسي. وكان الرجل الربعة الأسمر يدعوني بضرب خاتمه الذهبي بقضيب بني صدىء غامق من قضبان الزنزانة.. وهمس:

ـ «سيفرج عني الآن.. هل جهزت الورقة؟».

وفي نصف خطوة كنت عنده. وبسرعة الضوء انحشرت الورقة داخل كفه:

ـ «توجد كلمة ناقصة.. أكملها أنت أرجوك».

قال بفحيح:

ـ «لا تقلق.. سيكون كل شيء على ما يرام».

قلت معتذراً:

ـ «قد تجد بعض صعوبة بقراءتها.. فنصفها مكتوب برماد والنصف الآخر بالدم».

ـ «أستودعك الله!».

ـ «حاذر من أن يكتشفوا الورقة، فتكون الطامة الكبرى».

غمغم وهو ماض:

ـ «لا تهتم.. ستكون في موضع لن يهتدي إليه الشيطان بذاته».

ـ «أستودعك الله».

وثويت بمكاني. يقرع قلبي جدران صدري.. يقوضني خوف كاسح، ثم سكينة تنعشني وتعيد بنائي.. وعلى آماد وجودي همسة مبتهلة لا تتوقف..

يا رب!...

الفصل الثاني عشر

ماذا يحدث؟!..

في قوقعتي داخل الزنزانة عصفت بيقيني زوبعة أفكار تغيّر اتجاهها كل لحظة وتؤرجحني بين الضد والضد، فلا أتأكد من شيء أبداً. ينكمش الواقع ثم يتهاوى في ثغرات أنصاف أحلام وأنصاف هذيانات من شتى الألوان. فضية، وردية، وحمراء. ذهبية، شفافة، وسوداء. ويختلف الأمر في الخارج. فهناك الإنسان ينخرط في الدنيا، يسقط حتماً في دوامتها. خارج الجدران هذه توجد حياة ومضاتها تعمي عيون الأحلام والأوهام. تطحن هذا الإنسان وتذري فتاتاته في أرجاء الدنيا.

ويدوخ بحياته الإنسان، ينساق معها وفق مؤهلات جبلته الذاتية، فيبر بوعوده أو.. ينسى.

هنا تختلف الأشياء. بعد الظهر استفحل جهلي بما يحدث. قد زايلني خوف الظهر، إلا أني ألفيت نفسي مثل قلب بصلة. منطوياً كنت داخل عشرات محاراتها وقواقعها، ومحال أن أنزلق خارجها أو أنجو. وتشاغلت عن معميات الواقع بصراع مع الشبح الأسود. ولكن، ولسبب ما، واتتني قوة لا أملكها، فهزمته في جولة، وتراجع عني منقطع الأنفاس ليواري ذاته في جحر حشرات أخفقت في تحديد مكانه، بين شقوق وجحور وثقوب لا حصر لها تتواجد في هذه الزنزانة المصطبغة بشحوب يرقاني يطغى على حِدّة الرؤية ويصيبها بغشاوة.

وصحيح أني أخفقت في الإفلات من قلب البصلة، إلا أن المحارات المتوالية من حولي أضحت مثل زجاج بلوري شفاف، فرأيت بوضوح قشرتها الخارجية «البصلية» اللون، واصطبغت أحلامي بهذا اللون. كان يشبه وجنة الغولة الشاحبة يوم بصقت في وجهي. في تلك الساعة لم يخطر لي أن أتمعن في مرآة كي أتبين لون الطلعة المنغمسة في ماء النار، كان يبدو لي أن جمرة خبيثة كانت تتوهج تحت الأنف داخل هالة من كركم. قبلاتها كانت تترك ألواناً أخرى. آثار شفاه فاقعة ملتمعة تضرب نطاق حصار حول قطعة من بشرة مضغوطة حارقة تسبح أيضاً في لون حياء عذري. كانت تشبه العضة. أو كمواضع متخلفة عن كاسات هواء تسحب الدم وتجمعه في رقعة موضعها، تحت الجلد. اللثمة كانت في الغالب مصة. وهي تعرف الطعم أكثر مني. أبداً لم أسألها عنه، فلقد كنت ساعتها أغرق في إفحامة ذاهلة مضطربة. ولربما كان ثمة بعض ملوحة أو بعض لغوبة. ومصصت ذراعي كي أتأكد من طعمه. وكان تفلاً أو كطعم تراب وعفونة فيها مرارة حاذقة وقليلة الملح. ونسيت لون الثدي المشرع حذوي ليلة السرداب هناك. كانت الأضواء عتمة وتكاد تشابه اللون الذي يصبغ الزنزانة في ساعات الليل. ومما لا شك فيه، أن اليرقان كان يزيف حقيقة الألوان. فالثدي، يقيناً، كان ينازع لونه شحوب الأنوار. ولا بدّ أنه كان قمحياً أو في لون حليبه الناصع. وثمة ألوان أخرى طرية في العين، مشكوكة فيها لا يمكن أن تبهت وتحول. لون الشبح المتخفي الآن في ثقب حشرات، هو بالتأكيد داكن بسواد الليل. الهوة داخل حدقات كوبي سوداء أيضاً، لكنها ممتقعة ومعصفرة وأقرب إلى زغب غراب ملتاث بالوحل. ولون النمش المنتشر في طلعة محمد كلون أول أغلفة البصلة. وشعر من أطلق في وجهي وحشة ساعة في إصرار أعرضت عن شرب بولي، لونه آلهي محض، ويشبه لون بولي هذا الذي أرقته بعد أربعة أيام من صوم. أما

لون بشرة وجه الثور المعصوبة عيناه، ساعة ثار على ضعته وألقى عصابته عن أبصاره، فكان مزيجاً من دهن السمسم المطروق بالعسل الأسود. . ترى أي الألوان تحملها الفئران البشرية؟!. . واحترت في هذا كما لم أحتر حتى بمصيري المجهول. . وكنت أريد، في هذه الساعة أن أعرف. . ما لون الفئران البشرية؟!. . أهو بني غامق؟!. . أهو في لون الأرض؟!. . أغبر، أو طيني، أم هو في لون الموت؟!. . عبثاً. . وبموضع سؤالي والحيرة خلف جبيني، عاد والتصق بعيوني وشاح حداد المرأة المفجوعة وكان لونه قد حال من كثرة الاستعمال. وألححت عليها باستبداله بلون آخر. . زاه. وكنت أتساءل إن كانت ألوان ذيل الطاووس ستلائمها، أم أن ألوان حياة الناس خارج هذه الجدران الصفراء أكثر ملاءمة؟!. وتعالت فجأة أصوات وبدرت حركات. تنحت الألوان. فالمرء يمكن أن يستبدل ألوانه حين يشاء، إلا أن هذا يحتاج إلى حركة. عمل ما. . مثلاً، جسد الغولة يتلألأ ببياضه في هذا الموسم أكثر مما يتلألأ به في الصيف. ففي الصيف ستتعدد ألوانه رغم أن لون الثديين وما تحت منطقة الحوض سيظل كما كان. في الصيف تضحى السيقان في لون الزنجار. والوجه سيعاني من سمرة دخيلة محروقة. وكانت جولييت خ، تفضل أن يستر بدنها كل ثوب صارخ الألوان. . قاني الحمرة أو زعفراني الصفرة أو في زرقة النيل.

كانت جولييت كذلك، على استعداد لأن تكره رغم التحذيرات. انتقمت واحتقرت الأسباب. قطعت مئات الكيلومترات لتبول على نصب يستلهم منه الإنسان بعض عدوانه، إلا أن ذلك لم ينفعها بشيء بل وتفاقم عدوان الإنسان، فأدخل جولييت السجن من دون بينة أو تبرير. وغسل نايف أو نواف أو نوفل يديه آلاف المرات ولا جدوى. فهو حين يحدق بهما ما زال يرى على صفحتهما دم الضحية والجلاد وذاته. وفي رأس محسن وشم يخفي لونه ثم يمضي بلسان ثرثار يروي

قصته الممجوجة. وكان أديم جزر «واق الواق» لجينياً رخواً، وسماؤها لججاً من أبخرة خضراء. وقلت لأمي: «إني هنا.. فتعالي!». وطبعت قبلة محمومة على جسد الغولة، فتركت فيه أثراً وردياً لا يمحى، ومسحت بذلك طبعة البصقة المرسومة في وجهي. حركات. وكان ثمة حركات لا بدّ منها لكي تستبدل الألوان. ومع ذلك فهنالك ألوان لا تتبدل مهما فعلنا. ويئست من ثني عناد الألوان الثابتة هذه. وهي لازقة بكثير من إخواني الأبرار التعساء. وكانت ألواناً شفافة كألوان زجاج صاف معدنه طيب. وكانوا هم كزجاج هش الكسر ومع ذلك ما عتموا يقفون في وجه الأحجار. ولعبت مع روبين القصاب (دست) طاولة (محبوس)، ثم في لحظة استسلمت له. إذ كانت كل أحجاري محبوسة. وابتسم الرجل الطيب العملاق وقال:

ـ «سوف تحبسني في (الدست) القادم، وسأحبسك فيما بعده، والواقع نحن آلات الطاولة هذه.. نحن محبوسين من كل الأطراف».

وحين (حبسوه) وضربوه، استعطفهم في أن يتقوا في شيبته الله، فكان يستعطف أحجاراً صماء، إذ في هذا الموضع، لا توجد استثناءات. خالي، لم يحتمل أوضاع السجن فبكى كالطفل. حين انتزعوه من بيته كان يحتضن زوجه وينام.. كان هذا في أعماق الليل الموغل، والأطفال الستة منحشرين برمتهم فوق سرير بال. وانتهكت خصوصيات الإنسان وحياته، من أجل البحث عن أسرار ليست موجودة. كان رجلاً مبتلياً بالأطفال.. لا يعرف من «أولئك» غير روبين القصاب، فقديماً ابتاع اللحم منه كل صباح، ثم لاعبه «المحبوس».

وافتر على غير توقع ثغر عذب وتبسم. وقال الرجل الأسمر الربعة المجهول:

ـ «لقد أخرجت الورقة من تحت أنوفهم العفنة».

وسألته:

ـ «أين كنت تخبئها؟!».

ببشاشة قال:

ـ «سوف لن تصدقني لو أخبرتك.. كنت أضعها داخل قلبي.. أفهمت؟!».

واستغربت.

ـ «داخل قلبك؟!.. قل شيئاً معقولاً!».

فتمادى يضحك ضحكة المنتصر الغالب:

ـ «قلت إنك لن تصدقني.. لكني أقسم على أنني فعلت ذلك».

وتأملت قوله ساعة ثم صدقته. ثمة أشياء تبقى مغلقة داخل القلب.. يستحيل استخراجها منه. وقال إسحق شرفنطح حين الكل تأكد من أن الدائرة المغلقة غير قابلة للفصم:

ـ «فلنهرب!».

وكان إصراره لا يتزحزح عن نبرات صوته، إلا أن التصميم لم يخرج عن قاع القلب، في حين أن الكلمة ما عتمت تلبس لحماً وعظاماً في جوف عقول أنهكها الداء الإنساني، فحالفت الموت.

ومات الموت في هذه اللحظات. واتسعت رقعة هذا العالم. ومع الليل الهابط، كنت أخلع عني روحاً هرمة مضطربة، فتعم حناياي، ولأسباب مجهولة، سكينة جنين راقد في رحم أمه. سكينة عذبة وحنونة. يغرق الطفل من ثم في أحضان نوم ساذج وبريء. وترعرعت في باطن هذا النوم. وغدوت صبياً مرحاً يعدو بطلاقة في أنحاء جنة وارفة الظل. وتلد الأرض، أنثى متوردة الوجنة وعلى الخد الأيمن تنام أخت بغدادية في حجم الفلس. والأنثى، فجأة تصبح خلفي. وأراها تعدو في أثري. وسألت:

ـ «ألم تتزوجي الرجل الربعة الأسمر؟!».

وصفق فرح غامر داخل أحشائي.. «هي لي!.. هي لي!».. أخذت بيدي. والبستان يصبح بركة، قاعدتها عسجد.. هذا جسد الغولة.. هذا جسد من لم تتزوج الشيخ المهدوم الأعضاء.. والوجه منقوش بالأخت البغدادية كالفلس، لكن الشفتان تنكمشان والذقن يتكوز ثم يحتد. والجسد بض ربعة.. والجسد طويل ناهض.. ونحن نتجول بين أزقة ضيقة تتلوى في أحشاء مدينة. والغولة زوجة الشيخ، التي لم يتزوجها الشيخ.. الأخت البغدادية، لكن الجسد فارع.. والربعة المتوردة الوجه المرتعشة شفاهه الراجف ذقنه.. ضاعت مني فجأة. في خطوة عملاقة نفذت وحدي إلى حي قصور فخمة. وتسللت إلى داخل قصر. في واجهة القصر «طارمة» تسندها أعمدة في أعلاها أقواس ذات زخارف حجرية. لم أقرع الباب. لم أفتح البابين بل كنت أطوف بين حجرات أعرفها.. ووجدت هناك «ياسين».. صديقي من عهد طفولتنا. قابلني ببشاشة فسألته:

ـ «كيف جئت من بعقوبا؟!».

وكنت أعلم بأن هذا البيت، بيتي، أو بيته، أو بيت أناس غرباء.. لكن ياسين حذرني من الشرطة. أدركت في الحال أني اجتزت حواجز محظورة كي أصل بيتي في عهد طفولتي. وشعرت بأني مطارد.. تلاحقني أعين لا مرئية في كل مكان وذعرت.

رنت من ثم، أجراس البيت بصليل همجي مزعج.. وياسين قال:

ـ «لقد وصلوا، لكني سأخفيك عن الأنظار».

وكان الوقت ليلاً. والمطر يهطل في الخارج. وأنا هلع خائف.. أتساءل، كيف أمكنني أن أجتاز المحظورات وأصل في قفزة واحدة، بيتي؟!.. وتمسكت بثياب ياسين.. وسألته، وتكاد روحي تزهق من فرط الرهبة:

ـ «كيف سأعود.. للكوخ هناك؟!».

لكني كنت بغنى عن رد ياسين. إذ لم ألبث أن غيبت نفسي في سرعة خاطر. ورجعت لأهلي يسترني رداء الليل..

واحتدمت أضواء فجأة. وفتحت عيوني ورمشت. كانت تعميني الأضواء. تجتاحني رعدة جبارة طاحنة وتدمرني.. لم أستوعب مما يحدث إلا الرعب والرعدة.. يأتيني صوت جلبة من عالم آخر.. تبهرني الأنوار الكشافة.. تعميني. الأضواء في الزنزانة كثيرة وقوية.. ليست أبداً ما أعهد.. مصابيح تبعث وهجاً فتاكاً يحرق أبصاري، وأبصاري تهرب فترتطم بمصابيح أخرى في جهة أخرى.. وأنا أصبحت مجرد رعدة كتيارات كهرباء وأدك كياني بنفسي.

ـ «قم!.. قم!.. قم!».

متواترة في أسماعي.. جوقة كاملة من رجال الشرطة تأمرني بهذا في أصوات غاضبة وحشية. تركل بدني المتمدد، رؤوس أحذية غليظة وبساطيل:

ـ «قم!.. قم!.. قم!».

ثلاثة مصابيح فتاكة الأضواء مصوبة إلى عيني. والأحذية تركل جسدي. والصوت الآمر القاصف هذا أبداً لا يتوقف. أجفاني ما عتمت ترمش. أحاول أن أتغلب على رعشة كل كياني.. أتمالك خفقاتي ولهاثي. ونظرت فوقي.. وعميت تماماً. وازدادت رعشة روحي وبدني. وهبطت وسط ضباب النور المعشي إلى مستوى بدني المتمدد.. وأجلت أنظاري حول حلقة من سيقان زرقاء.. كانت السيقان تطوقني.. والأقدام تلكم أضلاعي.. والأصوات لا تنفك تصرخ بي:

ـ «قم!.. قم!.. قم!».

رغماً عني قمت.. ممتثلاً كما في الأحلام. من قاع وعيي شاهدت ثلة شرطة.. ورأيت وجوهاً عابسة كالحة كالليل.. والأنوار الكشافة..

ومشمّعات زرقاء تقطر ماءً. . وكنت ألهث. لا أدري ماذا يحدث. وكنت مسحوقاً في طاحونة رعب. ثم سمعت صوتاً خشناً يأمر:

ـ «أُخرج!».

امتثلت. كما في الأحلام كذلك. بأوامرهم اجتزت الدهليز. . اجتزت أيضاً المرحاض. . قذفت بعدئذٍ إلى الساحة المفتوحة في أقصى الموقف.

ـ «إنزع ثيابك!»:

كنت أتوغل داخل مجاهل الكابوس الآخر. ورأيت الليل والبرد القارص، برد ليل السرداب النافذ في كل خلايا الكون. . والمطر وهو يهطل بشراسة، وشخوصاً زرقاء اللون تقتحم المطر بمعاطفها الدافئة الواقية من البرد والماء. والرعدة وهي تسعى في حلبة تمتد بين شعري وأظافر قدمي. . ثم تنشطر قسمين فتغدو رعدة رهبة ورعدة البرد الظالم.

ـ «إخلع ثيابك!»:

قاومت كلتا الرعدتين وأنا أقلع عني ثيابي في ستر الليل، بين يدي غيث يتوالى بفضاء منجمد حالك. آلة في قبضة الكابوس. . بين مخالب واقع صيره «الإنسان» كابوساً. . أتحرك كيف يشاء أبطال هذا الكابوس. . أحيا بجوائح بعبع. . ماذا يريد هذا البعبع؟!. . في صمت أسأل. . وبصمت أتلقى أمر صوت أزرق متوحش:

ـ «اغسل جسدك النجس يا ابن الكلبة!».

لا تعتقني أيدي الشيطان وتؤرجحني كالسعفة. لا أقوى على استرجاع قوة نطق لساني المشلول، كي أتساءل: «لماذا في لحظة مجهولة من ليل أظلم تحت وابل مطر تتجلد فيه كل الأشياء، إلا رعبي وهمجية هذا الإنسان؟!» وهوى سطل صقيع فوق كياني، وهوت فوقه أيضاً الصاعقة الإنسانية:

ـ «أدلك رجسك يا ابن القحبة!».

آه لو تهدأ الزويعة الهابة بكياني.. لو أمسك بزمام الرعدة المجنونة.. لو أستجمع أشتات ذاتي المنتشرة في آماد الكابوس.. شططاً. كل كلمة كانت قدراً، وبيدي كشطة صابون تتذبذب وتماس أشياء أخرى تتذبذب. كان كل شيء غير ثابت.. يتحرك.. ينساب. يرقص، ثم، آلاف خلايا من رقصات همجية داخل بدني على وقع دقات دمامات في طقس تقريب إنسان لآلة شرير. في رأسي يصطرع الممكن واللامعقول.. عقلي يخر صريعاً.. يخبط في عشواء إدراك نصفي جافل لا يفهم.. يهرب في لا مهرب.. يتعثر في حقل رعبه الجبار، حتى يعثر في زلته الكبرى على طرف خيط واهٍ. عندئذٍ تتراكم حذو جنوني خيالات.. تتشابك أنصاف أحداث.. أنصاف أحلام.. أنصاف حقائق.. وجميعها يغلفه الهول الأعظم..

وانهار سطل ثلجي آخر فوق بدني المتشنج المصروع...

ـ «أدلك يا ابن المومس!».

ودلكت.. تلقائياً.. وتشبثت في طرف الخيط. كانت في عقلي قذارات تتراكم، عوض أن ينظف هذا العقل.. والرجس يتكون فيه، كالبقع المائية الزبدية الراسية فوق مستنقعات الغيث تحت أقدامي. كلا.. وهربت من الرجس، مرتداً على أعقابي. اليوم الأول في «الطرف الآخر». الليلة الأولى في نقطة جمرك. يوم أحد كان. وأبو فيصل مأمور النقطة يقضي إجازته الأسبوعية في عاصمة «الطرف الآخر».

وانهار سطل ثالث. قاومت التصاقة الفكين المرتجفين. العقل يتراقص رقصة ديك مذبوح. في نقطة الجمرك كلموا المأمور بالهاتف. جاء «أبو فيصل» في منتصف الليل. خرقة داخل فمي ميتة لا تنبس. روحي كانت تهرب مني وهي قطرات مثل قطرات هذا الغيث. حاولت

أن يتصلب لساني من أجل أن يسعفني في رفع شكواي المخنوقة الخرساء.. لا جدوى.

يوم أحد في منتصف الليل. وكنت بجوار قريبي نرقد في مكتب «أبي فيصل».. وانهار سطل فوق الجسد المهتز المنهار. وفقدت حتى لهاثي.. لكنني لم أفقد طرف الخيط. وفتحت عيوني في نور هادئ. وسمعت «أبا فيصل» يهمس لدركي من خفراء النقطة:

ـ «أتعشى الولدان؟!».

وانهار مع الغيث وتيارات الرعب، صوت كاسح:

ـ «لماذا توقفت؟!.. أدلك حتى ينزاح رجسك يا ابن الفئران».

وسمعت الدركي يجيب «أبا فيصل».

ـ «نعم سيدي. أكلا معنا ثم ناما».

وسمعت «أبا فيصل» يهمس وهو يتحسر:

ـ «يا للطفلين المسكينين.. ديارهما غير كافٍ. لا بدّ من أن ينعما بدفء البيت».

وفرغت من غسل جلدي. أنهيت غسل شطايا وجودي.. لم يكن ثم دفء البيت، ولا دفء الزنزانة. وتحاملت على الخرقة الراقدة خلف أسناني المصطكة. وفححت بصوت محتضر متقطع:

ـ «سأموت من البرد.. سأموت».

وقال أبو فيصل:

ـ «ضعوا فوقهما دثاراً آخر».

وقال الصوت الأزرق الظالم بضراوة:

ـ «لو مت، فستقيم الحشرات عليك أعظم مأتم».

وكان يضحك.. وأنا أموت. ووافقته. وأحسست بفروة شاة تسقط برفق فوق جسدينا. كان ثمة لمسة ودفء يصنعها إنسان ما.. وهوى سطل خامس كالموت تماماً. وتخدرت الرعدة في قبضة برد لا

يرحم.. في قبضة الإنسان. رعب مكتسح في برد مقتحم مع لمسة هلع مقرورة يصنعها إنسان آخر ما..

ـ «الرحمة.. لا أحتمل أكثر!».

ـ «إغسل الآن ثيابك!».

ـ «رحماكم.. دعوني أفعل هذا تحت أي سقف!».

وتلقيت صفعة.

ـ «لا تتكلم.. إفعل ما يطلب منك».

ـ «وماذا سألبس؟!».

ـ «إفعل ما يطلب منك».

ـ «بماذا سأنشف جسدي؟!».

ـ «إفعل ما يطلب منك يا ابن المومس».

لم تتعطل الآلة بعد.. لكن الإنسان عاد وتلاشى. آلياً نفذت ما طلب مني. كنت أتساءل حسب. أتوسل.. أبحث عن رحمة بين أشلاء عدالة ميتة متفسخة الجثة. ومرة أخرى يمثل شخص آخر في الذهن المتمزق الملفوح.. يدعى «أبو فيصل». دثرنا يوماً في نقطة جمرك «بالطرف الآخر» بفروة شاة كي ننعم بالدفء كباقي الأطفال..

في أعماق أعماق الكابوس غسلت ثيابي. بفضاء مفتوح تبكي السماء فيه على أشلاء الرحمة، فتهل عبراتها مدراراً. ويثور هلع داخل قالب ثلج لا يمتلك ذاته. يمتثل قالب الثلج المتحرك مرة أخرى، فيعتصر الثياب المغسولة بقوة ضغط غير مطاوع. ثم تجيء الرحمة فجأة يحملها صوت لا يعرف معنى الرحمة:

ـ «أخرج الآن».

تتحرك الآلة. ينقطع الغيث فجأة. كل شيء يخمد إلا الرعدة.. فهي تهيمن.. تتجبر.. تغدو سلطاناً يتربع على عرش العالم.

ـ «إلبس!».

ومع الامتثال الآخر هذا، عاد غيث الدنيا يهطل فوق نصف وعي رطب ومكفن بثياب مغسولة. واختلط البللان. اجتاحهما الرقص الهمجي المتواتر على إيقاعات الدمامات الضاربة في طقس تقريب الإنسان لرب ظالم. وحلمت بفروة شاة. كانت موجودة في «الطرف الآخر».. عند «الأعداء».. خلف حاجز من دم.. وتوارت في أعماق ضباب نوبة من نوبات صرع المنطق المجنونة.. لم أعثر إلا بالزنزانة. كنت فيها أقاسي وحدي عبث الكابوس الضارب بكل مقاييس العقل. وتجاذبني، مرة أخرى، أنصاف حقائق متداخلة في أنصاف أوهام. تتقاسمني أيضاً، جيوش خوف، مع جحافل رجفة.

ثم مع الفجر هدأت. وكنت ساخناً أتلفع بثياب رطبة. تصرخ في أعضائي أصوات معتوهة لآلام حادة تنهكني. وكان في أمعائي سكاكين، تفرم تلك الأمعاء وتقطعها إرباً. وكانت بي حاجة ملحاحة إلى المرحاض. وهناك تفتق من جوفي مزراب طفق ماء أصفر يهطل منه كأفواه سماء عابسة تتقيأ سوائلها على أرض الإنسان.

انفتحت من جوفي قرب كابوس الليل. وكانت أمعائي تتمزق. تتلاحق نوبات إسهالي المائي وتدمرني.. تأخذ آخر طاقاتي معها، ثم تلقيها في جوف المرحاض.

إني أخيراً، أجابه نتائج لعنة كابوسي الليلي.. في جسدي وبروحي أجدها. أما الكابوس نفسه فقد كان رهيباً حتى أني لم أقو على استعادة تفاصيله. كان مجرد التفكير بهذا يدك كياني.. ويقتل جسدي الواهن قتلاً لا ريب فيه.

ثم تساءلت عما يحدث؟!.. ولماذا يحدث؟!.. وأي شيء يبرر هذا الذي يحدث؟!.. وخرس العالم عن أسئلتي، فلم أتلق رداً. لكني وبيقين لا يتزعزع، أدركت أني لم أكن «الحالة» الوحيدة في هذه الدنيا. لقد كان ثمة «ملايين» من حالات تعسة تشبهني، منتشرة على وجه الكرة

الأرضية، وتمر بتجربتي الذاتية سراً أو علناً. . وتموت بمشيئة إنسان آخر، كي يرتفع بعض إنسانيات إلى عرش الله، أو لمجرد أن تشعر تلك الإنسانيات بالراحة.

ولأول مرة، تلبّسني مع خوفي وضعفي إحساس ما. غير محدد. وكان يحمل بغضاء غامضة غير محددة أيضاً. لا تقصد أشياء بالذات. . تبدو تماماً مثل ملابسات السقطة هذه، ولا منطقيتها الفذة الجبارة.

وفي قلب السقطة فقدت كل هوية. هوية الإنسان والحيوان. . وهوية الأحياء والموتى. . كل الأشياء الموجودة. كنت أذوب في جوف هذا الكابوس. أتوارى تماماً. ثم عاد إليّ ظله فغمرني بالشك. وشككت، أول ما شككت، بوجود دنيا الإنسان البشعة. وبدا لي في لحظات مكوثي مع الظل، أني قد اجتزت هذه الدنيا إلى أخرى بلغت فيها البشاعة ما لا يمكن أن يتصوره عقل مخلوق أرضي، لكني كنت وقعت في خطأ الأطفال الأغرار. خطأ لا يسقط فيه إلا من لا زال يؤمن بميزات «إنسانية» تملك أن تقيل عثرة «الإنسانية» الملعونة، وبخطئي هذا الأحمق، عدت أتمسك بوجودي. . أحظى بحياتي. . وأهاب الموت!.

يدفعني الحافز الغرير هذا. . يحفزني خطئي الأعظم. . فطلبت طبيباً. . وجابهت رمقة «كوبي» المحتقرة إياي، وسمعته يجزم:

ـ «أنت لست مريضاً. أنت فقط تحتال على الحظر المفروض عليك وتريد محادثة الناس».

ومضيت في إصراري المرهق الواهن:

ـ «إني مريض. وأريد طبيباً. ليعالجني».

ورويت لطبيب الموقف قصة الليل الماضي، والمغص المنهك الناجم عنها. وفحصني ثم ظل يرمقني في ريبة. لم ينطق حتى كلمة. . تركني أخيراً في جهلي المطبق. . والدهشة. مكث مرضي يذويني وسط

كتمان لا مكترث آثم. وبدا لي أني أمسيت بالفعل فأراً يسكن في غابة مكتظة بقطط وحشية، فيخشى حتى من إظهار رأسه. لكني، وبفعل خطئي الأعظم وملابستي، لم أتنازل عن التشبث بحياتي. وبآخر طاقاتي رحت أسائل الشرطي الأشقر، بهدوء وتوسل:

ـ «قد فحصني الطبيب، فأين الدواء؟!».

ورمقني الإله الأشقر بنظرة قادمة من ملكوته القابعة فوق الشمس:

ـ «أي دواء؟!».

ـ «إني ما زلت أعاني مغصاً وإسهالاً منذ يومين».

قهقه إلهي الأشقر يسخر مني ثم قال:

ـ «أنت واهم. وما تعاني منه لا ينفعه الدواء الذي تفكر به».

واستغربت.

ـ «ماذا إذن ينفع دائي؟!».

واكتسب وجه الله الأشقر، ظلاً شيطانياً داكن اللون، وقال بنبرات حقد أسود طاغ:

ـ «لقد شخص الطبيب داءك.. وليس له أية علاقة بما تشكو منه».

ـ «ماذا قال؟!».

فتصاعد صوته الإلهي الشيطاني بفظاظة:

ـ «أنت يا عزيزي مريض في نفسك.. وما تعانيه من أعراض في جسدك إنما يكشف عن جنون خبيث كامن في رأسك».

وجننت بالفعل.

ـ «إسهالي جنون؟!.. كيف تلغون حتى المنطق وأمامكم العلة والمعلول؟!».

ـ «عم تتحدث؟!».

ثيابي مبللة ما عتمت حتى الآن. أنسيتم الذي اقترفتموه قبل يومين؟!».

رمقني من خلف الشمس. وببرود متميع مبتذل غمغم:

ـ «أنت تهذي.. لكني لا أستغرب بالطبع هذيانك. إني واثق من تشخيص الطبيب الذي فحصك.. أنت مجنون يا صديقي.. وجنونك هذا خبيث ومستعصٍ».

روعت مما قاله. عقلي وقلبي سقطا مع كل طاقاتي في فوهة المرحاض. وهناك، بأمعاء تتمزق ذاوية محتضرة أدركت تعدد أصناف الميتات. وليس ضرورياً أبداً أن يهمد الجسد لكي يتحقق الموت. كان ثمة موت أبشع من ذلك الموت الجسدي. موت يحدث في الداخل، ويحيل الكائن المتحرك آلة بلهاء تمشي على الأرض من غير وجود ذاتي. وعلمت أن الجلادين قد وجدوا هذا النوع من الموت.. واختاروه لي... عندئذٍ، لم يبق أي خطأ يتستر في إصراري على حق حياتي. فما دام هناك أصناف ميتات وأصناف موتى، فلا بدّ أيضاً من أن ثمة أصناف أحياء.. وأصناف بشر. ومن أجل صنف البشر الآخر، قررت أن أتصدى مرة أخرى لهذا الصنف الباحث لي عن موتي، بأي وسيلة. وكان يجب أن أبدأ بمقاومة «مغصي» وعلاجه من غير دواء.

وقهرته.. رغماً عن هذا الصنف البشع الجوهر.. من هذا «الإنسان»؟...

الفصل الثالث عشر

وانتقضت الوتيرة في أحد الأيام.

جاء شرطي وانفتح باب الزنزانة. كان الوقت ضحى. يعن لهم تعذيبي في أي وقت. بيد أن الشرطي قال بصوت جاف:

ـ «لديك زيارة. أخرج!».

لا شك قد أخطأ. وأنا جففت في القالب الذي وضعوني فيه. اتخذت الشكل اللابشري.. شكل الفئران. لا تحظى بزيارات هذه الفئران اليابسة المحنوطة. وتفحصت الشرطي في ريبة. أضحى سوء النيّة جزءاً مني. إذن، لا يمكن أن توجد الأخطاء هنا، إلا عمداً. واستنفدت التعذيب الجسدي بشتى ألوانه.. عشرات ألوانه. ودشّنت على أيديهم أحدث إبداعات الإنسانية في محو ظلال البشرية. كنت حقل تجارب لاستنباطات وسائل إبادة الحشرات الضارة والأعشاب الضارة.. وجراثيم الطاعون. فهل جاء دور بث ألغام الأوهام في عقلي.. خلق سرابات لي، كنت قلمت أظافرها منذ أدركت حقيقة الأشياء؟!. وانتقضت الوتيرة في غرة من أمري. صاح الشرطي:

ـ «تحرك!.. ألست معنياً في رؤية أمك؟!».

قد جن شيء في هذا العالم، أو أنهم ماضون في درب تحطيم صوابي. منذ تلك الليلة تعلمت ألا أهرب. لا شيء أخطر من أن تغدو الأشياء الكائنة أنصاف حقائق أو أنصاف أوهام. كنت يقظاً يا أماه

ولست كتلك الليلة منتَشَلاً من قلب حلم وردي رغم ما فيه من رهبة. في تلك الليلة أودعوا في الحلم كل إراداتي ثم أخذوني. الآن أتشبث بزمامي.. أملك نفسي. أتمتع بالشك العارم بالأشياء. يمكنني إحباط الخدعة العظمى. وقادوني إلى غرفة «الاستقبال». لم أتشرف برؤية حقارة هذه الغرفة حتى الآن.. لم أتلق زيارة. فيها مصاطب وكراس خالية قذرة.. لكن الغرفة مملوءة بك، وبشخص آخر أحمر الشعر ويجلس بجوارك. شاهدتك. شاهدت حقيقة كنت وضعتها بعداد الأوهام. وضعفت. وفي لحظة كنت أُشَذِّب من عقلي. بمكاني، أو بمكان العقل، حلت فورة عاطفة جياشة ممهولة بمشاعر تتضارب. كيف الحزن والفرحة يتعانقان بوئام؟!.. ببساطة معقولة يحدث هذا. كنا مرتميين الواحد في أحضان الآخر. وكلانا يبكي. كنت أبكي من أجلك وأنت تبكين من أجلي، ولا أدري إن كان كل منا بكى لنفسه أيضاً، ففي تلك الساعة، العقل تولى وتفجر بركان. تولى أيضاً الرجل الأحمر الشعر. كان رزيناً محتفظاً برجاحة عقل. وبأدب انسحب إلى غرفة أخرى، حتى يعود عقل كلينا لرأسه. ورويت لي. حقاً. لم تهز أذناي. كنت تأتين. قاطعة مئات كيلومترات. أربع ساعات في سيارة باص.. أربع مرات. وتوسلت بهم.. كنت أسمعك من أعماق قبري في الزنزانة. مرة؟!.. اثنين في الواقع. وأنت حملت حزنك أربع مرات وقدمت، وأعادوك خاوية اليد والقلب، مخفقة مهزومة. وأعادوك، من غير يقين. وضربت قلب الطاولة الدكناء بقوة.. اللعنة!.

هي، كفكفت الدمع وقالت:

ـ «كنا نضرب في تيه. ثم فجأة وصلتنا رسالة. وحين قرأتها طار شعوري.. قررت أن أقيم الدنيا».

بل الأفضل لو نقعدها. أفلا يحدث ما يحدث إلا لأنا أقمناها كما زعموا؟!..

ـ «إذن برّ بوعده.. أرسلها».

وتمسح على وجهي، وتساءل:

ـ «أكان صديقك؟!».

ـ «أبداً. لم التق به، إلا لحظات. كان مجرد عابر سبيل».

وتأملت ما حدث ثم استطردت:

ـ «ورقة ملتقطة من مرحاض أو من صندوق قمامة.. تحوي بضع كلمات مكتوبة بدم ورماد».

ورمقتني بغرابة:

ـ «ماذا تقول؟!.. اسم الله على عقلك».

ـ «أبداً. لم أرضخ لمشيئتهم. ما زلت بكامل قواي العقلية».

كنت تشكين بهذا. وهناك سلة مطنبة بفواكه وسكاكر ومخبوزات. وسألتك محتجاً:

ـ «هل تعتقدين أني سآكل كل هذا؟!.. لماذا هذا التعب يا أماه؟!.. حسناً. سأقتسم السلة ومحمد».

كنت يوماً طلبت ثياباً له منكم. لكني قبل أن أستفسر عنها، امتدت يدك نحو السلة والتقطت منها خطاباً داخل مظروف. وبشوق اختطفته منك. باللهفة في رؤية أنفس مداد في العالم، من بعد أن أدى واجبه بكفاءة. حين استخرجت الورقة من داخل المظروف دهشت. هذه ليست ورقة المرحاض.. هي ناصعة بيضاء وكبيرة. وعليها رسالة طويلة ومكتوبة بعناية.. واستحضرت بمخيلتي ببعض رثاء عيدان ثقاب وقطرات نزرة من دم يجري بعروقي. ثم قرأت عن نفسي. كنت برسالته أعاني آخر نزع.. ودمائي تنزف وثيابي مزقاً قذرة وهلاهل.. إني هيكل عظمي تكفنه أسمال. إني إنسان مقذوف داخل صمت لا ينفد.. كنت مرسوماً من وجهة نظر عابر سبيل.. كنت برسالته موجوداً، ربما بموضوعية لم تتيسر حتى لي نفسي.. ربما ببراعة ضمير

حي هاله الموت المحدق بي.. أو ربما بشيء من مبالغة ضرورية لتحريك أشياء.. بل كافية لإقامة هذا العالم والهاب ضميره. وتركت الرسالة قبل الانتهاء منها وغمغمت باستغراب:

ـ «لقد كتب الرسالة بنفسه!».

كان ثمة سوء فهم، وانقشع الآن. واطمأننت على عقلي، وتنهدت وأنت تقولين:

ـ «إذن.. فالخير لم تفرغ منه الدنيا بعد».

الآن حان أوان استذكار أناس تعسين بررة. كان الرجل الفارع يقف في أول الصف. وكررت طلب الملابس الداخلية له.. أو أني أطلبها للمرة الأولى، ما دام طلبي الأول، لم يبلغكم أبداً. ثم سألت عن ذي الشعر الأحمر. فقالت ببعض عزاء:

ـ «إنه محاميك. وكتبنا أيضاً شكوى عاجلة لوزير الشرطة».

وقال محاميّ بدهشة لا تخفى:

ـ «غير معقول!.. لا يمكنني تصديق هذا!».

فتمسكت بروح دعابة كي أبعد عني خوفي الكامن.

ـ «هل أبدو في آخر نزع حقاً؟!».

اعترضت والدتي مستنجدة باسم الله، أما هو فتنهد ثم قال:

ـ «سأطلب مقابلة عاجلة مع حاكم المنطقة العسكري».

قلت له:

ـ «لكني استحممت وغسلت ثيابي بمياه الغيث الهاطل».

فأصر:

ـ «هو ذاك.. لا بدّ من إجراء مقابلة معه. هذا وضع لا يحتمل البتة».

وتهكمت على الدنيا:

ـ «هل سوف يصدقني وأنا في عرف معظم الدنيا مجنون؟!».

حدق بي، في استغراب، فأردفت:

ـ «هذا آخر إبداع من إبداعاتهم الفذة».

كنت أحدثه وهو صامت. ظل يهز رأسه، ويغضن طلعة أمست في لون شعره. وأخيراً عاد يقول:

ـ «سأبذل ما في وسعي لتتم المقابلة في الغد إن أمكن».

وكان سؤال ما زلت أطرحه على نفسي يزعجني، وكان ينفلت تلقائياً من حلقي ليعبئ أسماعه:

ـ «ولكن لماذا يفعلون كل هذا؟!».

وتماماً كما أفحمت نفسي والدنيا، أفحمت الرجل الأحمر الشعر بسؤالي. وكان من الواضح أني أثير معضلة فلسفية عويصة الحل؟ ولكن هذا الحل، كان في الغالب، يكشف لي عن أجزاء منه تباعاً وفي جرعات. ومحاميّ أفحم مستاءً أو مرتبكاً عند قاعدة جدار قانوني جاثم مثل حجر عثرة موضوع في درب تحليق العقل في بحثه عن أسباب ومبررات موغلة في البعد خارج حدود هذا الشيء المسمى عدلاً. فالعدل الكائن خارج قلعة الإنسانية هذه، سطحي وسمج وقاصر عن إدراك دوافع الإنسان، بيد أنه وعلى الرغم من هذا، ناجع حين تؤاتيه الفرصة لممارسة صلاحياته، وإثبات وجوده. وازداد الرجل الأحمر الشعر حماساً للتعجيل بمقابلة الحاكم العسكري، ممثل هذا العدل. وكان مضطرباً إلا أنه أفلح في إلقاء بعض كلمات تحمل سمة التشجيع، في أسماعي. وبأكثر من الحدس المطلق، كان يتبين لي أن الرجل قلق واجف. ولعلي في تلك الساعة كنت أشجع منه. لقد كان لقائي اللامتوقع بالمرأة الأرملة المتشحة بالسواد، يشحنني بطاقة غير محدودة، بأضعاف طاقاتي التي ألقيت بما أثر منها في المرحاض. مع إسهالي، حتى توهمت، أن ما ضاع مني، طاقاتي هذه لا يمكن تعويضه.

ورجعت إلى الزنزانة مخلوقاً آخر. خفيفاً، وترفرف في أعماقي فراشة فاتنة الألوان. وأنا محمول على أجنحتها الرقيقة مع إحساس طيب. وكنت أتمعن في كنه هذا الإحساس لأسميه، ثم علمت، وببساطة، أن هذا شيء ينتاب المخلوقات أحياناً ويسمى سعادة. وكان هذا الشيء غريباً عني ومنسياً. ثم فجأة، في غمرة أطول ليل، يبزغ هذا النور القادم من عالم آخر. والأمر غريباً كان. في الزنزانة الخاصة المتميزة هذه. حيث في السر تترعرع كوابيس وتعيش شياطين ويتخثر شبح الموت الأسود والقوقعة تنغلق على مخلوق لا مستقبل له، وتُمارس إنسانيات ربانية، والفأر يتمرغ ما زال، على أشبار الرقعة التربة العفنة الرطبة، لكنه يحيا مع ذلك كالإنسان مع فرح داهم وحقيقي، ثم لأول مرة تنفرج على مصراعيها بوابات الغد، والماضي يهبط للأغوار عبر خروم في غربال.. الماضي!.. ليس بأكثر من ساعة الآن. قريبة طرية وملتصقة في الفكر، يعجز الزمن عن إبعادها عني. ساعة تشع على المستقبل بضياء. تخلق فيه أحداثاً تبدو وكأنها كانت. والرجل الربعة الأسمر المجهول يلوح كملاك. قالت أمي وهي مرهفة متأثرة بفعلته اللابشرية:

ـ «لا شك كان ملاكاً جاءك في سمة إنسان!».

قلت لها:

ـ «كان إنساناً يحمل طينة لا إنسانية».

وقلت كذلك، إننا نشقى بطينتنا هذه اللاإنسانية.. وبالحب!.. ولما لم تفهم، عدت إلى المصطلحات المتبعة المفهومة. فصنفت لها تلك «الإنسانيات». كان لا بدّ من استعارة الكلمة التعسة هذه، ثم تقطيعها أجزاء كي يتحقق التصنيف وفق مفاهيم بشرية لا تتغير. إذ ليس ثمة في هذا إجماع. حاولت أن أشرح أيضاً كيف أني إلت إلى وضعي هذا بسبب إنسانيات مؤمنة بمبادئ «أخلاقية» تفرق بين بني الإنسان،

وتدين بولائها لطرف دون سواه مدفوعة بالإنسانية الصلبة التي لا يمكنها أن تساوم. وما دام هنالك أطراف وولاء للأطراف، فثمة أيضاً أنانيات محدودة ينبثق عنها كراهيات غير محدودة وبغضاء. ثم يوجد المارقون كذلك. النابذون للبغضاء بلا استثناءات، أو من بالوا على الحاجز الملعون أو اقتحموه ولو من دون قصد. أولئك، تلعنهم «الإنسانية»، تمسخهم جرذان وتسلبهم حق العيش.

وعجزت عن أن تفهم مرة أخرى، فقلت لها:

ـ «هذه أشياء قد لا تدرك إلا بالتجربة البحتة».

وكنت فرحاً. كان في الدنيا بشر ما زالوا غير منحشرين في فجوات المجاري العمودية. وكان فيها من لا زال يجشم نفسه عناء تسطير رسالة يشرح فيها ظروف شخص آخر لا يعرف عنه إلا أنه يحتضر داخل بوتقة الإنسانية المعروفة، فيحاول إنقاذه من براثنها بشكل ما. ووضعت هذا النبل بجوار حقارة تصرف قريبي بعد سنوات من حب غير مشوب بالغايات.. حب من أجل الحب، يقابله ضعف تعس لا متناه يخضع لأوامر بغضاء من غير أسباب.. بريق الزيف الإنساني القاتل.. أوهام طافحة معتوهة طامحة في تحقيق وجود إنسانيات «عادلة» عن طريق محق إنسانيات آثمة ضالة موصومة بخطيئة الحب. وأحبّت إحدى شقيقاته ثم بصقت في وجه الحب. ومرة أخرى لم أفهم هذا، بيد أن الفرحة ازدردت سوء الفهم. في معدة تلك الفرحة ضاعت كل ملابسات العالم.. الماضي نقي من رجسه والحاضر أمسى درباً للغد.. ثم يبزغ هذا الغد وهو متحرر من هلعه وغموضه.. يسرع من دون أكبال في قدميه.. واللحظات تغذ السير معه. سقطت من أيديهم. كفّت أيضاً عن أن تسقط في دن الحب. وهي ليست ملك أحدنا بعد. بل هي ملك الفرحة والدنيا. إذ مات السر. اندحر الشبح الأسود. وسخرت من هذه الأرض المومس الشمطاء. كانت لا أكثر من أرض من إسمنت صلب

بارد. متحجرة الرحم. ثاوية بجمود مسكين صامت. بائسة تخضع برضوخ لوطأة أقدامي.. عاجزة عن أن تغري شيخاً طاعن السن. ذاوية القدرة على اغتصابي بالإكراه.

إني هنا داخل الزنزانة، لكنني مخلوق آخر. وكان يبدو أن زيفاً يتخفى معي في داخلها. إذ لا شيء تغير في المظهر. العتمة، والنتن، وقذارة الأرض، والبطانية المنسدلة على باب القضبان، والكوة، وبراز الشياطين على السقف. وأنا وحدي تغيرت. وكان الزيف موجوداً في كل الأشياء وهو يمكر بالموجودات ويعبث. يخدع أبصاراً وعقولاً. وأنا فرح رغم الزيف. معتد بلحظات مرشّحة من ماضيّ وبأحداث تطل من يومي وغدي. وكان غدي يركض. قد قطع نصف طريقه في لحظات غيبوبة منعشة فكرية. وجاء الليل فجاء محمد بعشائي. وهنأني في حذر متيقظ. التفت يمنة ويسرى ثم همس:

ـ «الظاهر أنهم يئسوا منك».

ضحكت، لكنني آثرت إرجاء رواية القصة له.

ـ «دعنا نأمل في أن تتحرك الأشياء نحو الأحسن».

وقدمت لمحمد نصف محتويات السلة. فهش لذلك.. ثم تردد. وسألته:

ـ «ألم يزرك هنا أحد، إطلاقاً؟!».

قال بتعاسة:

ـ «إني هنا مقطوع من شجرة».

بتفاؤل قلت:

ـ «لوِ أخرج من هذا القبر سليماً، فتوقع زيارات أسبوعية منتظمة».

كان نزلاء قبو (حلبا) يمنون علينا بسخاء بعد كل زيارة. كنا كمحمد مقطوعين هناك من شجرة. ولعنت الحاجز:

ـ «خذ يا رجل!».

وكان موزعاً. ومكث يتردد في اقدامه.

ـ «هل تخشاهم؟!».

ـ «بل أخشى عليك منهم.. سيقولون..».

فقاطعته:

ـ «تغيرت الأوضاع. لست نكرة بعد. إني موجود. والعالم كله يعرف الآن مكان وجودي».

وبود حدق بي. كان بعض الخوف يستولي عليه. وكانت فرحة حذرة تغمرني. وأومأت إلى الفواكه والمخبوزات والحلويات، ورمقته بنظرة فيها رجاء واستعطاف. عندئذٍ أخفاها في عبه وجيوبه ثم غادرني مضطرباً كاللص السارق.

وبقيت وحدي مع الليل. وأحداثي ما عتمت خلفه. وهو يبدو كجدار أسلاك ينتصب في وجه الفرحة. في هذا الليل لم يزل المنفذ مفتوحاً في وجه شياطيني ولجلادين يتقنون صنع كوابيس حقيقية. وتركت الفرحة تهفت عمداً كي أتيقظ للمجهول الكامن في وحشة هذا الليل وظلامه.. اللعبة قائمة ما زالت. ولا شيء يبرر استسلامهم بسهولة لمجرد أن رائحة الجيفة قد فاحت في أرجاء الكون. وإذن، فلا تتوقع أشياء ليست متوقعة. وتساءلت: «هل سيغشون اللعبة الليلة مرة أخرى؟!.. أيعدون لي الضربة القاضية اللامشروعة؟!».. لم أستبعد هذا. ولم أكن غراً بعد. كنت أتسلح بالشك ضد كل الأشياء. وكنت عرّيت الثعلب الماكر من لبوس الحمل الوادع مذ مات الأب. ثم عاد وكشف عن وجهه في بستان التين. بعدئذٍ داهمني المرة تلو المرة، حتى أصبحت خبيراً بكل ألاعيبه. وتداركت ألغام الفرحة، كي لا أسقط في لحظة شرعت تنفض عني غبار السقطة.

أبداً. لن أصبح الليلة وليمة لشياطيني. مع ذلك عاودني وسواس

مقترن بنفاد صبر. وكنت أزجي في يقظة يائسة محترسة، هذا الحاجز الزمني. جدران ظلام كانت تفصل بيني وبين مصيري في الغد. ساعات، العالم فيها يهجع لكن الآلهة الشريرة تصحو. لا يغمض لها جفن لتدبر أمراً مع أشباح شيطانية. وترقبت هذا الأمر طوال الليل. وتباطأ هذا الليل وأضحى دهراً. إلا أن الأمر ذاك، ظل يجثم خلف الدهر. لم يأت. وتنفست الصعداء مع أنفاس الفجر الأولى. وتناهى لسمعي تغريد طيور وزقزقة عصافير. وكنت في حالة سكر. ووجدت النشوة تدب في الخدر الآخذ بحواسي، فغفوت مع الضوء الأول الذي قهر الليل ثم صحوت مع الأحداث. وكانت تسرع، أخرى، بعد تخطيها بسلام هذا الحاجز الآخر.

ها أنذا معها ثانية. في الزنزانة وهي تكشف عني كغطاء. ينفسح العالم. تبتعد الأرض القذرة المومس. ثم لا نتن يخنق الأنفاس. رغم العربة المسدودة، كان نسيم جبلي يضرب وجهي. ويدي اليسرى بمفردها رهن القيد، موصولة بيد شرطي لا أعرف اسمه. كلانا مربوطاً بالآخر. وفي الظاهر ندان متساويان. والعالم متسع حيث جبال تشحن رئتي بأنفاس غير ملوثة بالرجس. أتطهر في الأنفاس. أتطهر حتى من فكرة التصاقي بالشرطي ومن حقيقة هذا العائق الجسدي. إذ كنت رغم جلوسي أمضي. تبعدني اللحظات عن ذاك الحصن الآسنة في جوفه كراهيات لا تنفد. حصن الإنسانية الشاهق الأصفر. . مصيدة الفئران البشرية. ملكوت محققي البدين المترهل ومصاف العريف كوبي وسماء الشرطي الأشقر. مثوى الآلهة الزرقاء. . يبتعد عني. يفصلنا الآن جبال ووهاد وساعة زمنية ومشاهد أخرى. هذه بلدة أخرى. . فيها يطالعني رجل مجنون يخاطب نفسه. امرأة تتبذل وسط الشارع. . أكوام قمامات وبنايات متداعية ومقشرة الحيطان بين زحام ضاج مع فوضى. وكنت أحب هذا كله. ففي هذا كله يمكن تجفيف مستنقع البغضاء، وعلاج

المجنون وتقويم المومس وإزاحة القاذورات وترميم الحيطان المتداعية المقشورة. وبين هذا كله كان ينتظرني رجل ذو شعر أحمر. وامرأة متشحة بسواد أيضاً. كانا في باحة مبنى متواضع يوجد فيه شيء اسمه العدل. وكان هذا غريباً يصعب تصديقه. العدل. يتواجد في قلب حفرة قابعة بين قذارة ولا إنصاف. كان هذا عدلي الخاص المنشود. حلمي الشخصي، وليس أحلام مجانين وعواهر وخرابات، والفوضى والقاذورات. عندئذٍ ندخل. المرأة منتظرة في الخارج. ومحاميّ في الداخل. وأنا والشرطي ندان كتوأمين سياميين ملتحمين. إني شخصان منذ اجتزت الدهليز. شخص يبحث عن عدل بشري أرضي، والآخر يتطلع في الموجودات. يقرأ فيها شكوكاً تتضافر أو تتهامس أو تتقاتل بالقرب من تلك الفوضى المهملة في الخارج. يحتدم الحابل والنابل. وجنايات وبراءات وقوانين. ومجاري الإنسان العمودية تتجسد مزدحمة في هذا الدهليز العتم المتواضع. في آخره باب يفضي إلى غرفة. ندخل الغرفة. كالعادة، ثمة فيها مكتب. ووراء المكتب بزة كاكيّة ينبت في أعلاها رأس جعد الشعر، فيه عينان متخفيتان خلف نظارات. والوجه جاد ومقطب. «العدل» موجود داخل هذا الرأس العابس الطلعة!.

واجتمعت كل الأشياء معنا في هذا الرأس. رأس شاب لا يتعدى عمره آخر العقد الثالث. يلقي نظرة ثم يغضب. ويطالب بفك القيد عني في الحال.

ارتبك الشرطي. قال إنهم أمروه بذلك. هو غير مسؤول عنه البتة. ويدوي صوت العدل بصرامة:

ـ «احترم حرمة المحكمة وحرره من هذا القيد».

وأطاع ثم تنحى. وتفحصني الحاكم. واحمر وجه العدل المنصت بهدوء، ثم عاد وغضب.. وتلقت الطاولة لكمة. سقطت هذه اللكمة ورائي مع لكمات كانت تتلقاها طاولة أخرى بأعداد لا تحصى. هناك،

احتد جدار اللحم وانتفخت أوداجه. هنا، أيضاً يحتدم شيء ما. يتلقى الخشب البارد ضربة.. لكنه من أجلي.. يتوجع!.

وصرخ القاضي مرة أخرى:

ـ «ماذا يحدث؟!.. هذا استهتار بالعدل الإنساني!».

قال الشرطي بتلعثم:

ـ «نحن يا مولاي، نحاول الوصول إليه».

ورعد الحاكم:

ـ «كيف؟!.. قل لي كيف؟!».

ـ «أمامك يا مولاي.. مجرم خائن».

ـ «كيف عرفت؟!.. ألديك قرائن؟!».

ـ «هذا ما نحاول إيجاده يا مولاي».

ـ «وما دمتم لم تجدوه بعد، فكيف تسميه خائناً؟!.. أنت تهين العدالة والقانون».

كان الشرطي ممتقع الوجه.. والحاكم تطفح وجنته حمرة ساخطة فوارة.. كان العدل يغضب حقاً.. وأضاف:

ـ «أنت تعلم بأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته».

عاد الشرطي يقول:

ـ «وهذا ما نفعله بالضبط.. نحن نحاول إيجاد القرائن لإثبات جريمته يا مولاي».

بل أنتم تخلقونها من لا شيء.. أما الحاكم فقال:

ـ «لكني أرى العكس تماماً.. أنتم تعتبرونه مجرماً حتى تثبت براءته.. وفي كل الحالات، فأنتم بتصرفاتكم اللامشروعة تخرقون القانون».

صراع بين العدل وحماة القانون.. العدل يدين الشرطة.. يأمرها أن ترفع عني كل الإجراءات الاستثنائية.. أن تعطي الفرصة لي لأدافع

عن نفسي. أن أمنح الحق بمقابلة محاميّ بحرية.. ويتاح لي رؤية زواري..

كان وجه الشرطي يمتقع باستمرار. حماة القانون يدانون.. الآلهة الزرقاء تتراجع.

ثم لا تملك إلا الطاعة.

ـ «سمعاً يا مولاي!».

وكنت مبهوراً، أمام تهافت الآلهة البشرية هذه عند أقدام العدل.. هل حقاً تسقط صريعة قدامه كذباب؟!.. في تلك الساعة أحببت. وارتطم خيالي بشخص مجنون في الشارع.. وبعاهرة تتحلل على مرأى من فوضى بشرية.. وبقمامات. وكان أيضاً حواجز دموية كثيرة لا مرئية.. ما عتمت تشمخ في كل مكان رغم دوي صوت العدل. ورغم تفتق نبع الحب العرم الجارف، ما زالت تنتصب بعناد بين المخلوقات، ضاربة نبع الحب، والعدل المجلجل صوته، عرض الحائط.

الفصل الرابع عشر

لا شيء موصد بعد. وما دامت أبواب الغد والأحلام والحب مفتوحة، فهي ستفضي حتماً إلى خارج هذا الصرح الدنس الأصفر. انفتح أيضاً باب الزنزانة، وعثرت على وجودي داخل عيون صافية كالمرآة. ورأيت الدنيا تتربع في راحة كفي. تتجمع تحت انحناءة خط القلب. قال يوماً لي قارئ كف:

ـ «هذا الانحراف الحاد إلى أسفل في خط قلبك، يعكس ارهافاً حاداً مثله. أنت إنسان يعيش بقلبه».

ساعتها غمرتني سعادة فشكرت قارئ الكف، إلا أنه حدجني باستغراب، ثم تمتم:

ـ «من أسباب شقاء المرء، طيبة قلبه».

في قلب الزنزانة عدت أضحك من تلك الفكرة عن طيبة القلب. يهذي الحمقى، لكن هنا في أعماقي كأس أترع منها عصير فاكهة حرّمها الله على من لا قلب ينبض بين حناياه. وثملت. واصطبغ المستقبل بألوان الطيف. ستة دروب زاهية منحنية قدامي كخط قلبي. والدرب السابعة تعجز عن رؤيتها العين. وقلت لمحمد:

ـ «استأنف!».

فهرّش شعره النامي، وقال:

ـ «قد غيّرت رأيك كذا مرة، أفلا يستحسن أن أتريث حتى ترسو بقرار؟!».

فبسطت ذراعي أمامي. وكنت أرى ما لا يراه بعينيه:

ـ «العدل يا محمد.. العدل!.. أترى ما أروع العدل؟!».

وتنهد. كان سعيداً أبله. نظرته لا تتعدى ما بين الزنزانة والمرحاض، وبين هذا وذاك تقفز فوق الدنيا وترى الله.

ـ «قلت لك!.. رحمته الكبرى لن تتخلى عنك أبداً».

رجل طيب. لكنه في الغالب يجهل هذا.. لا يعرف نفسه، لا يعرف أيضاً أن رجلاً آخر طيب مجهول قد فعل ما يبدو الآن له أنه من منن الله. وقريبي يغزو في هذه الساعة الدنيا، ويعيش حياته مقابل أحقر فرية.. لكن محمداً ذاته ما زال بصعوبة يقطع هذه الأيام كي يقتحم جداراً زمنياً يفصله عن أهله.. وما زال ثمة خمسة أعوام أخرى لم تنقص إلا أسابيع تافهة وعسيرة، فأين منن الله ورحمته الكبرى؟ وفجأة سألته:

ـ «محمد. كم مرة في اليوم تفكر بزوجتك وبأولادك؟!».

سكت ملياً. صدأ، كفّن ملامح طلعته البرونزية. وكأن ثمة عظمة شائكة قد انغرزت في عقله.. أدركت، من ثم، أني اعتديت عليه. وقال بحزن:

ـ «أتريد الحق؟!.. مر زمن طويل على ذلك».

وتمتمت:

ـ «أجل.. فما الفائدة؟!».

وكان يغدو وبسرعة حكيماً وذكياً. إذ كان يملك دفاعه عن نفسه. بيده كان أبلغ حجة. وقال في هيمان وشرود:

ـ «إياك أن تحسبني من غير قلب. أبداً. لقد كنت في البدء أفكر

فيهم. وكانت الدقيقة تصبح ساعة والساعة يوماً واليوم سنة. وأمامي سنوات، يمكن في التفكير فيهم أن تصبح دهراً. وكدت أجن في أحد الأيام. وعلمت، أنني لا بدّ وأن أنسى كي أبقى حياً، ولكي أعود إليهم وعقلي في رأسي بعد خمس سنوات. ولم يكن الأمر سهلاً. قاومت نفسي كي أتعود. وكبحت جماح أفكاري في غمسها بقاذورات الإنسان. إني أنفق وقتي في تنظيف المرحاض وكنس الردهات. أضع أفكاري في هذا كي أنسى. وحين أفلحت في النسيان، أمسيت كالصرصار تماماً. أبداً لا يمكنني الاستغناء عن المرحاض. فبفضله أحيا، وأتجول حراً في الردهات وبدونه لا شك سأموت..».

وتمليته.. وكانت رغبة تطوقني في احتواء عجزه. كان هذا العجز يشبه عجز الطفل المدقع، يحيا بكفاف، يغمض عينيه عن لعب الأطفال وعن الحلوى، يتشطط دونهما، ثم على مضض يقنع بنفايات الدنيا.

ـ «وماذا عنهم هم؟!».

فقال وهو ساهم، كمعز نفسه:

ـ «لعلّي أضحيت لديهم بعداد الموتى، إني آمل هذا. فالميت ينسى بمرور الوقت..».

وتوقف. ولعلّه كان يريد القول أيضاً: «والأمل ظالم.. سيف ذو حدين.. حين الإنسان يتمادى فيه يغدو ذا حد واحد ثم يطعن صاحبه بضراوة». وانبلجت، وعلى حين غرة، تلك الدرب السابعة الممتنعة عن عيني. فرأيت فيها خدعة الألوان الأخرى وجابهت حقيقة أمل الإنسان الضال، مع منن الله المزعومة.. وقلت:

ـ «إذن فالخير ألا تستأنف!».

ضحك إذاك. وكان يريد أن يتملص. وخانته الجرأة. والطيبة الساذجة الغريرة منعته. وحياؤه وقف ضده. لقد كان محمد ضحية هذا كله. ثم واتته الفرصة..

ـ «الحق يقال، إن رأيك هذا أفضل ما دمت تقاسمني «زياراتك» وتأتيني والدتك بالفانيلات (والكلسونات)».

ـ «إياك أن تقول هذا ثانية..».

واستطردت:

ـ «لقد كنت يا محمد طرفاً في إنقاذ حياتي»..

وبتواضع مشحون بالدهشة، سأل:

ـ «أنا؟!.. هل أملك من أمر حياتي شيئاً كي أنقذ حياتك أنت؟!».

ـ «تصور ماذا كان سيحدث لو لم أحصل منك على الورقة وعيدان الكبريت».

وتلقى ضربة بلسانه فلم يستطع النطق. لا بدّ أنه لا يلقي أهمية للورقة والعيدان. إني إذن، أضخم الأمر وأبالغ.. هذا، شيء من قبيل اسعاف ظمئي بشربة ماء.. الله وحده يملك إحياء الموتى.. رحمته جلّ جلاله تغمر كالشلال العذب هذه الدنيا.. مع ذلك تتوقف عاجزة عند حواجز الدم اللامرئية.. تتلاشى في بوتقة البغضاء المتحدية إياه. ثمة، تتكالب حرب آلهة أخرى.. الكثرة تغلب.. وهو واحد ورؤوف ورحيم.. أما هم فيكفي أن سلاحهم البغضاء!.

كانت تأملاتي تمتزج بأفكار محمد، وتصبح سمجة. أشياء غير متجانسة تتزاوج مثل قران يعقد بين فيل وبعوضة. وتأملت بحيرة، ما يمكن أن ينتجه قران النعجة بالذئب، ثم على الفور همست:

ـ «يوسف لا يبدو أثر له!».

اخترقت أنظار محمد قضبان الزنزانة ووراءها حطّت. هناك، اعتاد هذا الشرطي أن يحجب بضخامة جسمه كل ما خلف القضبان، ثم حلت البطانية محله.. أتراه كان يمارس عدة أدوار رسمت له من قِبل آلهة هذا الموقف؟!.

ـ «هذا الرجل مسكين!».

قالها بمرارة وبصدق، فسألته:

ـ «يوسف مسكين؟!.. كم أنت سليم النية يا محمد!».

لا شك سأسمع الآن عن يوسف ما سوف يضعه في أقصى «الطرف الآخر» من أفكاري..

لكن محمداً لم يلبث أن قال:

ـ «أنت محق.. إذ لم تسمع بما حدث له».

ـ «وهل حدث شيء له؟!».

ـ «قد سقط ابن له في بئر، فكسر ساقاً وذراعاً وعدة أضلع».

ـ «متى حدث هذا؟!».

ـ «قبل أسبوعين.. ثلاثة».

ـ «ويوسف؟!.. ألم يأت منذ وقع الحادث؟».

فقال بأسف:

ـ «يقولون إنه لن يأتي بعده أبداً».

ـ «لماذا؟!».

ـ «يبدو أنه تشاءم. يوسف رجل طيب. لم يرض أبداً عما يجري في هذا الموقف».

ـ «لكنه ظل يعمل فيه».

ـ «لعله كان مضطراً لإعالة أهله.. أفلم أضطر أنا..».

فقاطعته:

ـ «ما أكثر من يحمل أمتعة الناس..».

بدوره قاطعني:

ـ «حملت أنا أمتعة الناس.. وها أنذا..».

ـ «وحمل يوسف، في ظنك، آلام الناس فسقط ابنه في البئر!».

ـ «قد لا يختلف الأمران».

ـ «لكن من سقط في البئر كان ابن يوسف وليس يوسف نفسه».

ـ «حكمة الله!».

ـ «وكوبي مثلاً لم يسقط في البئر وهو أولى بذلك».

ـ «حكمة الله».

ـ «حتى ابن كوبي لم يسقط فيها!».

فتململ في عجز فكري مطلق، فتساءلت:

ـ «منن الله.. أليس كذلك؟!».

فقال ببلاهة آلية:

ـ «بل حكمته.. جلّ جلاله».

الفصل الخامس عشر

التحقيق. . .

مر زمن. وكنت ألتقط أشلاء حياتي. وقنعت بما تيسر لي منها. إني أحياناً قنوع بما يتعلق بي. والشمس سخية. توزع رفدها على كل ما في الكون بعدالة. كانت تبتسم بسمة ممتقعة. والورد الأحمر يبادلها نفس البسمة. هل كان الورد يسخر؟!. .

أخيراً أصبحت «صديق» الشرطي الأشقر!. يأخذني أحياناً لأساعده في تشذيب أشجار هذا الورد!. . مهامه لم تقتصر على تدريب وحشوه وإطلاقها في وجه سجين أو موقوف يرفض أن يشرب بوله، فالعناية بالورد، كما اتضح لي، كانت أيضاً من بعض مهامه! وكانت من أقوى ميزاته الإلهية، إذ كان يمكنها أن تحرك في بشر مثلي، تلك الإصبع الأسطورية في رأسه، وتجعله ينسى، أو يغفر نصف غفران. كان النصف الآخر من هذا الغفران يكمن في قلب الورد الصامت، في أكمامه، وفي تجربة قريبي. . وفي غرفة التحقيق. . هذا النصف الآخر كان يتوزع في قسمة عادلة ليست ضيزى.

وقد مر زمن، فماذا حلّ بالنور الآخر الزائف الماكر؟!. .

النور الأول الطاهر كان ممتقعاً، لكنه لم يتجمد كالمرة الأولى. لاحقني إلى داخل الغرفة. انتفض فجأة وتأرجح. أمسكت به. . هدهدته. . وتطلعت في السحنات.

كانوا ثلاثة ضباط مع جبل اللحم. وشقوق في الطلعات ترسم في عيني أشياء ليست معهودة. كان وجه العدل عبوساً. كان جاداً ورصيناً. في هذه الغرفة، أينعت بسمات فجأة. وارتبت ثم عدت وتفحصت الأوجه. ورأيت أقنعة مهترئة تتمزق. ثم بزغ النور الماكر الآخر من خلف غمامة:

ـ «تفضل.. اجلس».

وترددت. وكان يجب أن أجلس. لكن ليس قبل أن تُحفر بيني وبينهم الهوة.. كان هذا الشك درع وقاية ضرورياً.. باهظ الحمل لكنه مع ذلك يجدر حمله.

وقال أحد الضباط مشيراً إلى خارطة منشورة:

ـ «هل تسمح في تحديد مكان إلقاء القبض عليكما؟!.. تمعن في الخارطة بعناية ثم أشر».

وأمعنت فيها نظري. بيد أني كنت في الواقع أبحث عن شيء آخر فوق طاولة المحقق.

ـ «لا أعلم».

نظر كل في وجه الآخر. الضابط الثاني قال:

ـ «في إحدى افاداتك ذكرت، أنكما توغلتما قرابة خمسين متراً حتى صادفكما القروي..».

ـ «هذا صحيح..».

عندئذٍ عاجلني الضابط الثالث:

ـ «قل إذن، كيف عرفت هذا؟!.. الخمسين متراً؟!».

كلا. لا تنفعل أرجوك! فأنا أخشى على آمالك من أن تصعقها صدمة الخيبة. صحيح أن بسمة الشمس ممتقعة في الخارج، لكنها صادقة رغم السقم. وقد جاء دور الزيف ليتجمد ويرتعد برداً. كنت

جاداً في بحثي عن هذا الشيء الآخر. لم أعرف أبداً أين أخفوه..
وقلت ببرود:

ـ «كان الأمر في غاية البساطة. لا تنس يا مولاي، أنهم هناك.. في «الطرف الآخر» أجروا معنا تحقيقاً أيضاً».

ـ «سألتك كيف عرفت أن إلقاء القبض عليكما، قد تم وراء الحاجز بحوالى خمسين، وليس بستين أو أربعين متراً مثلاً؟!».

ـ «وأنا أجبتك يا مولاي. أن من وضع الحاجز، لا شك يعرف مكانه بالتحديد. نحن لم نكن نعرف هذا.. في الطرف الآخر قالوه لنا.. في التحقيق هناك..».

كانت الحياة تهوي خلسة من نظراتهم المتبادلة في صمت. هذه المصيدة الأخرى المصنوعة من الوهم. وكنت حراً. مندفعاً في سيطرتي على لحظاتي. وكانت محاولة سحب هذه اللحظات واغتصابها مني، لم تتوقف بعد. أحبطتها قدر الإمكان. وبدت المجاذبة، وكأنها تنحاز إليّ.. وقال جدار اللحم:

ـ «حسناً. لننس هذه النقطة ولنركّز في أمر آخر».

وكان أمامه ملف منضغط وهزيل. بطنه منبعجة. وكان ملفي الذاتي الخاص. وكانوا يبغون إنقاذ هزاله.. ونفخ بطنه بحقنة تندس بكيان إنسان. ورغم هذا فرحت. إذ كان من الواضح أني أجهضت لهم الملف الآخر وخلصته من حلمه الشيطاني.. لقد كنت فتحت باب المصيدة المكتظة بالفئران، فسعت الفئران خارجها تعدو لحظيرتها البشرية الأصلية.. إن الفئران الآن أناس تبحث عن مكانها في دنيا الإنسان. وكنت أنا وحدي أستجمع أشلاء حياتي الذاتية، منفصلاً عن كل خيوط جريمة أولئك الوهمية. إني نجحت في خرم الحبكة الملعونة. بيد أن هنا توجد عناكب قد شرعت تفرز مادتها اللاصقة

وتغزلها من حولي خيوطاً شبكية أخرى. وكان يخيل لي، أن هذا يحدث بعد فوات الوقت.

عيناي هنا مع حذري. شكوكي مدايا تتهيأ لتمزق الشبكة الواهية من قبل أن تنسج. وأنت يا «مولاي» ما زلت مطعوناً بالفكرة. وهي في اضمحلال تلقائي، تنكمش في رأسك كالليمونة المعتصرة. أنت الآن تتواضع، وليس كعهدك يوم أومأت إلى كل الفئران وجريمتها «القذرة». فكيف إذن أنانياتك سوف تُروى وتشبع؟!.. حسناً. أنت ما زلت لم تفقد كل الأشياء بين يديك ما زال إنسان.. فأر واحد. ويكفي هذا لنقل الطاعون.. لكني حذرتك منه.. لا تنس الطاعون يا «مولاي»!.

أنت يا «مولاي»، تفتح الآن ملفي الناحل. وهم، أعوانك وسندك، انسحبوا بتلصص. ويقيناً لا يرضيك هذا. فأنت لا شك تستمع الآن لصفير معدة أنانيتك الفارغة إلا من الريح. صوت هذه الريح وهي تتزوبع في نفخة شهوتك الشرهة. وأنا أسمع نداء شكوكي، وتدوي في أذني أصداء صدمة خيبتهم. لقد فشلوا. أتذوق في أفواههم نكهة شاي الخروب التفلة. أُسقيه منكم كل صباح بالكوب الأسود الفواح برائحة صدئة. وتهامستم «لا يمكن» قلتم.. «هذا الغرير المأفون!» ثم صرختم: «إننا نحن القوة الإنسانية العظمى، لن يقهرنا فأر أفلت من مصيدته».. أسمعها.. ارتطامة تلك الخيبة.. لكنك يا «صديقي» لا تستسلم.. لقد كانوا حشوداً..

وقال مرة أخرى:

ـ «النركّز في أقوالك هناك في «الطرف الآخر»».

لم يبق منهم الاي.. أفيشبعك سرابي الباقي؟!..

ـ «سألوا أسئلة شخصية».

وهو الآن طليق يغزو بتفاهته العالم. أفتذكر يوم أخذوه.. في المحكمة العسكرية هناك؟!.. عشت وحدي أيام جحيم.. ورأيت

سياطاً من نار تنهال على روحي. . كنا واحداً. . والرهبة المجهولة فظيعة. . ثم جاء الاثنان الصلفان. . اختارا «الطرف الآخر» في خبث. كانا لا يختلفان عن أحد الطرفين. . أنتم بالنسبة لهما الآن «طرف آخر». بالنسبة لكثيرين أحرار طليقين وضعوا الحاجز اللامرئي داخل أنفسهم ثم عبدوه. نشب هذا الحاجز أيضاً في رأس قريبي. ونحن الآن طرفين. كثرت الأطراف الملعونة، فلا تدهش من أن تصبح القبلة بصقة. في غمرة الليل الداجي تنقلب أشياء تمسخ. حتى بيني وبين أبي ينتصب الآن الحاجز. الموت حليف الإنسان. . رابح الصفقة الخاسرة التعسة. . .

ـ «ماذا سألوك هناك؟!».

«يا بني»!. . كلمة ما عتمت توجد في كل الأطراف. من حسن الطالع، لا يخلو مكان منهم. مخلوقات تملك هذه الكلمة تزحف عبر كل الجدران. . وتقول (يا بني) للتعساء ممن قادتهم الأقدار من أطراف أخرى. آه لو كان محمد طفلاً؟!. . حسناً. لا بدّ أن بأنابيب الزمرة «الإنسانية» سحراً يخطف الأبصار. فأنت تمسك الآن بمضخة هواء ثم تنفخ. لا تقلق. فسأملأ لك بطن ملفي الخاص بقذارة هذا العالم. بالتين الممهول بالدم والبول. . وسيكتظ أيضاً بالأفكار المعبودة عوض الله. فالناس تعبد في الأحرى عزرائيل. وأنت تحاول الآن ألا تغضب. لكن في أعطافك ما زالت تقرع طبول وحشية. فهل أزفت ساعة تقريب القربان؟!. .

كلا. لا تغضب. رغم أن الغضب قدر تسعة أعشار الإنسانية. . إني ساعتها لم أغضب. قلقت وحسب. تلقيت لكمات ضميري. أنت بالطبع، لا تدري عمّا أتحدث. كنت وحيداً في موقف محكمتكم العسكرية. . هناك في «الطرف الآخر». أفلم أجتز الحاجز؟!. . أنتما إذن متفقان. وقريبي ليس بثور مدار بعد. من نكد حظينا أنه يكبرني

سنتين. وهذا حاجز لا يمكن تحطيمه.. فسيبقى كذلك مدى العمر. أخذوه. ارتجفت معي الدكة الإسمنتية في موقف محكمتهم العسكرية ساعة أخذوه.. وأكلت «المحشي» والموز، وتساءلت ماذا يأكل.. وتمددت على الدكة وعجبت.. أين ينام؟!..

قال: «في زنزانة خشبية تتداعى، داخل ثكنة من ثكنات الجيش». قدم جندي له، عنقود عنب.. لم أعلم بهذا.. إذ لا شك تعلمتم شتل حواجز النار على أرض هذا الكائن الغيبي.. الزمن.. المكان.. المجهول.. كنت نواة داخل ألف حاجز. مبتلعاً في أعماق سجون لا حصر لها. الزنزانات من حولي كقشور البصلة.. ليست شفافة، بل عازلة سوداء كثيفة. قبل أيام اخترقت أبصاري محارات البصلة. كانت بقدرة قادر شفافة، فنفذت من القلب إلى قشرتها الأولى «البصلية» اللون.

وتألقت الألوان جميعاً. ورأيت لون أنفك المختلج الآن. لكني يوم كانت الألوان غامقة عازلة سوداء كان قريبي في زنزانة داخل ثكنة يأكله فيها البق. وأنا يأكلني خوفي عليه، والمجهول. إني أصغر منه بعامين.. ولهذا نجوت من البق والزنزانة هناك. ولهذا لم يصفح عني قريبي. ومنذ ذلك الحين شرع الثور يصبح ثور مدار معصوب العين.. وشرعت أخرج من الهيئة البشرية لأدخل في صورة الجرذان.

ـ «ماذا سألوك عنا.. عن الجيش في «طرفنا»؟!».

حقاً.. الجيش!.. نسيت أن الحواجز لن تبقى بدونه.. ضرورة إنسانية قصوى.. في كل مكان من عالمنا الرائع!.. أفتريد أن تسمع عن مآثر القنبلة الذرية، إنجاز الإنسان الأكبر؟!.. حقاً.. في اللاوعي تستتر فكرة صائبة ستوجب هذا.. لا بدّ من أن نمحق البشرية الحالية، كي توجد الفرصة لتغيير وجه الدنيا!.. ما أدراك أن إنسان ما بعد خراب العالم، لن يلغي العهد المبرم مع الموت؟!.. لكن جدار

المجهول عليه اللعنة!.. حين ركبنا الباص إلى القرية السخية المعطاءة.. كان هذا الحاجز أيضاً. لم أقرأ ساعتها بكتاب الغيب.. الغيب كان وراء الحاجز. لم يعنني أن تتطاول إليه أبصاري.. لم أتنبأ.. أني ساعتها لست إلا الهارب من آثار جريمتين غادرتين إلى قرية نائية مجهولة. وإسحق شرفنطح، كذب من فرط التعذيب.. أرغم أن يكذب كي ينجو بجلده.. النمامون أيضاً كذبوا من فرط البغضاء.. وكذبت أفكارك وظنونك عليك يا مولاي ويا صنوي في الإنسانية.. عفواً!.. في لحظة كذب، يكذب حدسي أيضاً فيزين لي أننا حقاً صنوان.. لقد اعتدت على أن الإنسان إنسان.. فذاكرتي الملعونة تتورط في النسيان، وبهذه النقطة بالذات. مسألة الفئران.. ليست مسألة الفئران بدعة.. أليس كذلك؟!.. حسناً. أوشكت أن أتخلص من أمر موتي الخلسي. قد حررت الفئران الطيبة البشرية ودفعت من رعبي وعذابي كي يسقط ما في الرحم المنتفخ الكروي.. قد عادوا بشراً.. نبذتهم «جريمتهم» اللاإنسانية.. لكنك تسأل عن مسألة الجيش. في الواقع لم أتهيأ لهذا الدرس.. لم أتقنه.. شيئان كانا يملكان عليّ شعوري وعقلي. كنت أراه. جسداً يبلى تحت الأرض.. مثلي الأعلى تنخره الديدان. وأراها. في أحضان الهرم اللص، يأكلها في قلب الليل بشهية. يبدأ بالشفتين. تغدوان داخل فمه فاقعتي الحمرة.. الثديين.. وهي عارية حتى من غير أكفان.. والباص يسرع في سيره.. كنت أود لو تُطوى الأرض. ثدياها الآن تضاعف حجمهما. سيدران السائل الأبيض في عيني. في تلك الليلة تلهفت على رؤية قطرة كي أتأكد من أني لست ضحية أوهام تغزوني في اليقظة. الثدي كان بضاً ورقيقاً. وراحتها الضاغطة باردة، وتضغط في عنف. في الإصبع كان بعض خشونة. تلتمع الأوهام ثم تتلاشى. هم باقون.. أنتم باقون.. جاءوا في التو.. حسناً.. سأملأ لك الجعبة.. لكني لا أعرف شيئاً عما

تسأل.. في «الطرف الآخر» قلت الشيء ذاته. ويقيناً عرفوا أني لا أكذب. كان يكبرني عامين. فأخذوه مني بضعة أيام ونجوت من الزنزانة في الثكنة ومن البق. أقسم ألا ذنب لي في أني نجوت. فلو كنت أعرف أن هذا سيحدث لكنت قبلت أن أغدو كبش إسحق، وأفدي قريبي.

ـ «ماذا سألوك عن الجيش؟!».

ـ «سألوني إن كنت شاهدت حشوداً على طول الرحلة المشؤومة».

ـ «ورأيت حشوداً بالطبع؟».

ـ «أبداً. كنت في شغل شاغل عن هذا.. طالعت جريدة».

ـ «ماذا قلت إذن؟!»:

ـ «قلت ببساطة، إنني لم أر شيئاً».

اقتنعوا.. مهما يكن، امتنعوا عن الضغط. أنت تقتنع الآن كذلك.. عجباً!.. هذا يوم ربيع يبزغ فوق الطلعة المنجمدة. أفلسنا في آذار؟!.. هذا صحيح. المسحاح الكابوسي كان في ليلة كابوسية من ليالي شباط. حال الدنيا يتقلب. أفيمكن أن تدفع رأسك خارج أنابيبك لتستنشق هواءً طلقاً؟!.. هذا هو الشك الدبق المجرم.. أنت الآن، تساعدني على أن أتخلص منه. أنزعه عن إحساسي كالغل.. ماذا يجري؟!.. حدقت في عينيه. كان الشك يتراخى ثم ينزع ذاته.. الهوة ردمت. المستنقع جف؟!.. ليس ثمة من بق يبرز خراطيمه ليمتص دمي؟!.. النظرة قانعة تبدو ودودة.. وعلى الطاولة بقعة سمراء مستطيلة ليست مفلطحة أبداً. هذا ملفي الخاص.. لاصق جلده بالدقعاء.. يابس فوق عظامه.. جسدي!.. بإيعاز منك يا «مولاي» سرقوا لحمي مني.. ابتزوه ليل نهار.. كي يبقى الكرش الهائل لملف الإخوان الفئران.. الآن تتواضع الأشياء.. حتى أنت تتواضع.. وتعود مع الأشياء للحجم الطبيعي المنصف.

وقال:

ـ «وقِّع على ما قلت».

على ماذا؟!.. هي بضع كلمات لا تعني شيئاً. قلت لك.. تواضعت كثيراً يا مولاي.. تواضعتم.. فششتم كإطار عربة مثقوب. أمر لا يعقل ويحيرني.. إني لا أفهم هذا اللمعان المبتهج في حدقات عينيك.. أنت خسرت اللعبة بالتأكيد.. فلماذا تفرح عيناك؟!..

الشك. كان تزحزح.. يعدو أمامي كفراشة.. لاحقته.. استدرجني لحديقة أزهار. أثملني الضوع الفواح.. لم أفهم.. ورأيت وجهاً جاداً يغضب للحق.. يأمر بالعدل.. وانهار أمامي جبل اللحم.. صار في حجم هزيمة.. وفي قدر استسلامه.. لم أفهم، لكني أمسكت بالقلم.. ثم وقعت.

الفصل السادس عشر

إني ملك!.. إني قرد!..

وتوقفت القهقهة في بلعومي فلم أضحك. وغضبت. وشعور بحموضة لاسعة وكريهة يجعلني غثياناً حاداً كحياتي. إني محاط بحلقات أكاذيب. الناس جميعاً تحلم حين تنام، وأنا يصنعون أوهامي لي، في اليقظة. وتفحصت ما حولي فقلت لنفسي: «إني ملك!.. ملك حقاً»!.. ثم ارتطم إدراكي بباب المعدن الصدء الموصد. جدار مرئي محسوس وضعوني خلفه.. خلف الدنيا.. خلف حياتي. والمفتاح في أيديهم.. والثغرة أيضاً.. الثقب في أعلى الباب. في حجم عينين وأنف وشفتين. لا يوجد إلا حين يشاؤون، وعندئذ ترتسم العينان على الباب. ساخرتين متسليتين، ترقبانني برهة مع بسمة على الشفتين المتهكمتين. ثم حين تملآني، تمتلئ الثغرة ويتوارى الثقب.

.. إني قرد!.. أغضب. تلسعني أحماض كالسم.. في المعدة أو في الأمعاء؟!.. أبداً. فسوء الهضم يكمن في كرتي العظمية العليا. في هذه الجمجمة التعسة المنكودة. ثم في لحظة تهبط الأحماض إلى أسفل، وتعود تغلي في وسطي. وتفور، فتندلق نافورياً في الحلق. بالأمس وقّعت على أقوالي، وغفرت للعالم نصف غفران. كنت ممتلئاً بشرية. كبرت الفئران. في لمسة عادلة سحرية، عاد ووجد الإنصاف. زال السحر الأسود. البشر الممسوخون رجعوا بشراً. في قلب أوهامي

سقطت ألوهيات وتداعت. مكث الإنسان في حجمه العادي. قلت لمحققي: «إنك مسكين»!.. في السر قلت له هذا، ورثيت له. كانت الأطياف جميلة وبالألوان. وقناعات غير متوقعة لم أفهمها، شديدة وسريعة العدوى وتهاجمني في قلب شكوكي العظمى. اقتلعت العدوى كل شكوكي وجعلتني أقنع. أهب نصف صفحي للعالم، ثم أعود للزنزانة المفتوحة، بشراً مفتوحاً. ونفضت عني صدئي وغباري. كان الغبار يتراكم من حولي وفوق رفوف المستقبل. حتى خيوط عناكب مخيمة كانت في ردهات الغد المهجورة. وبجرأة فتحت الأبواب، وكنست أتربة المستقبل. نظّفت، ثارت عاصفة الأتربة قدامي. هبت في وجهي حبات الرمل. في اليقظة، أصبحت أعمى!..

وذرعت الغرفة بأقدامي. واسعة في الطول. فضفاضة في العرض. تضيّعني. وتضيع أفكاري. سريري وثير ومريح ونظيف. موضوع تحت نافذة يمكن أن يدخل منها العالم كله. أتسلق سريري كالقرد تماماً. وكالشمبانزي أمر عبر الشباك. جسدي في الغرفة الفضفاضة، وأنا أتجول بين زهور حديقة الموقف. هي خلفي الآن. إني تقدمت. كثيراً جداً. أصبحت على مقربة من باب هذه العمارة الدنسة الصفراء. لولا الباب الصدء العازل الأعمى، لكنت الآن أتسكع حراً في أرجاء الدنيا!..

أين الزنزانة؟!.. عدت إليها بعد أن وقّعت على أقوالي. كنت مسروراً. كنت مندفعاً بسروري. ببراءة رحت ألقي عن نفسي نفايات الماضي. برهة، انفصلت عني. في اليقظة أضحيت بلا هذا الماضي. والحاضر زنزانة مشحونة بأثواب قذرة أنضيتها عن بدني. ومحمد عاونني في التنظيف. عمل ساعات إضافية لكي تبقى الزنزانة من دون الماضي ذاك. وكنت فيها وحدي من غير الرجس. يقظاً أتنفس بطلاقة. ثم سقط الحاضر خلفي. ووجدت المستقبل. آنية فضية تلمع في وهج

أبيض. ورأيت كوة الزنزانة بعيني القرد الأبله. وبداخلها خلاء تام. وجدارها الخلفي متآكل، أسود فيه بقع بيضاء مثل جسد شقيقته في الصيف حين يعاني من لطعة شمس مضروبة بنفسها بعدد أيام القيظ. كنت أتحكك بالحائط الآخر. وكان رطباً كجدار البطن. ورأيت ظهره وحده وهو مغمور بنور الشمس ويبدو كالسوءة أو كالوجه المجذوم. وتجشأت. إنهار من جوفي شيء حامز، وامتلأ حلقومي به. قريب المغسل، وكذلك المرحاض. إنها معي.. بجواري. إني ملك القردة.. أقطن جناحاً خاصاً في فندق للحيوانات. أغتسل في داخله، وأغوط هنا وأبول. خسارة إنهم نسوا المرآة. كانت تتملكني أعتى رغبة في رؤية شكلي. في أن أشهد هذا الملك القرد. بيد أن الوضع صمم وفق أصول حديقة الحيوانات تماماً. كنت هنا، من أجل أن تتملاّني النظارة.. لتشاهدني بعيون غير عيوني. أحياناً تلقي إليّ، من ثغرة الباب، حين تمتلئ بعيون متسلية ساخرة، حبة فول سوداني. أسمع أيضاً أصواتاً اعتاد الإنسان إطلاقها حين يعابث قرداً. يستولي عليّ السخط الحيواني.. عيناي تزوغان في ثورة عاجزة مكتومة. أتململ داخل القفص الواسع المترهل.. إني في اليقظة أفقد ذاتي البشرية.. وصوابي.

اللعنة!.. حاولت أن أفهم ما يجري لي. عدت وطرقت أبواب الماضي، فأنست فيه وفي نفسي شجاعة. استجابة لا معهودة!.. كان عبدي الطيع المسخ الطلعة. طلعته هذه، افترت واضاءت فجأة. حاولت أن أدرك ما يحدث. في وجهه المسخ فتشت عن مفتاح جنوني.. كارثتي.. ألأنا ملك.. أم أني قرد؟!..

بالأمس كنت بشراً وخلعت رداء الجرذان. وضعت إمضائي تحت حقائق حدثت ببراءة صبيانية.. رُوِيَتْ أيضاً ببراءة الأطفال. تحت عينيه تماماً. وكان بين يديّ وعيونه فضاء شفاف. فراغ ساذج ونقي الصفحة.

وتفقدته بظلال شاحبة اللون أثرت من شكي المسفوح في قارورة العدوى. انزاح خرطوم البقة. سحب أذرعه الجبارة، أخطبوطه القاطن في نظرات العين. كل الأشياء كانت بلورية شفافة.. عجباً!.. كان الحاجز بلورياً أيضاً. واجتزنا أثيره. كنا خارج الأشياء مجتمعة.. وسبقناها، ثم لحقتنا الأشياء. وسمعنا دوي الصدمة العاتي خارج نطاق منطق تلك الأشياء.

ماذا يعني ذلك؟!.. لا شيء بالطبع!..

فبالأمس وقّعت ثم رجعت إلى الزنزانة. كنت أجتاز مرحلة ما بين الفأر والقرد.. هذا الفراغ البشري. الدهليز الغامض.. يجتازه إنسان فأر ليتوج من بعد ملكاً على كل القردة.

اللعنة!.. قتلتني الأحماض. لم أفهم، إلا أن في رأسي عتلة. استحلبت الفكر. قطراته سقطت بين الأمس والزنزانة. دهش محمد مما يحدث. اعتصر رأسه، فامتلأت الكأس الفارغة بعصارة ظل الله.

ـ «لا يخطو المرء خطوة، إلا بإيحاء منه جلّ جلاله».

فقلت لمحمد:

ـ «إني لا أفهم ماذا يحدث!».

تنهد ثم قال:

ـ «وأنا تورطت مقابل وريقات بخسة».

وحككت برأسي:

ـ «حكاية تورطك هذه معقولة. إنها مكتملة العلة والمعلول، ولا تنعدم الحلقة المنطقية فيها، إلا مذ صدر الحكم عليك. أما أنا، فلا تبرير لحكايتي منذ أول كلمة فيها».

محمد أطرق. كان ما انفك يعتصر مخه. وتفحصت وجهه، فخيل لي أنه يعتصر قشوراً وأليافاً معتصرة، لن يعثر فيها على قطرة، أبداً.

كنت تماماً مثله. وكنت أختلف عنه تماماً. إنه لا يحتمل الحيرة. سيجن لو أنه سمح لها أن تعبث في عقله. إلا أن ثمة تبريرات غيبية لا تلبث أن تحضر لإسعاف الإنسان، حين يعلن إدراكه، عن أنه قطع كل مجالاته دون جدوى، واستسلم.

وقال محمد ببساطة ما بعد الاستسلام:

ـ «لماذا ترهق أفكارك؟!.. إن ما يهمك هو أن يظهر الحق، وتخرج من هذا الكهف المشؤوم».

نقطة. لكن السؤال يتكرر في أعقاب النقطة.. كيف؟!.. كيف ولماذا؟!..

وتوقفت القصة من دون نهاية. كانت تواجه درباً مسدودة. ثم في الليل جاءوا. كانوا ودودين. فاضوا أدباً ليس فيهم. يتكلمون برقة. واقتادوني إلى هذه المعمية.. هذا اللغز.. الغرفة الفضفاضة بمرافقها الصحية والباب المغلق بالثغرة التي لا أحد يفتحها إلا هم. هذا البحر الطافح بالوهم.. وأطلت العينان من الثقب. وتمعنت في نظرتها. وغرقت في خبث لم أدرك فحواه.. وعاد صوابي الحيواني، وفر مني.

لا. لن يغضب الحيوان بهذا الشكل. لن يسأل عما يجري له، بهذا اللهف الإنساني المحروم من كل يقين. أفأفهم الآن ماذا يجري؟!.. وانقشعت عن عيني بعض غشاوة الوهم، فإذا بي ما زلت بشراً في قبضة «الإنسان» المتأله. اللعنة على تلك الصخرة!.. سأزحزح هذه الصخرة.. إني منفي في هذه الغرفة الفخمة.. مسلوخ عن كل وجود.. حتى عن عقلي. ورجعت أستنجد بطلعة الأمس المفترة.. أقرأها حرفاً حرفاً. والكلمات لم تعن شيئاً بعد. لكن السر، لا بدّ، متخفٍ بين سطور الصفحة.. وإذن، أسقطت ثانية في الفخ؟!.. كيف سقطت ثانية في الفخ؟!.. وأنا فيه منذ اجتزت وإياه الحاجز.. غر ساذج مسكين، ومارست التجربة الرجسة.. العبث

الشيطاني.. وتعلمت.. والضحكة قاسية، أقسى حتى من ضحكاتهم المسمومة المنطلقة في وجهي.. إني تعلمت فعلاً.. أن أُكثر من أسئلتي المفحمة الضالة.. كيف يحدث كل هذا ولماذا يحدث؟!.. وأنا لم أفعل ما يستوجب جعلي فأراً أو قرداً.. أن ينتقموا مني وكأني خطيئة الإنسان الأزلية.. أفلا يوجد في هذه الدنيا غيري؟!..

وشقيقته الكبرى تسعى لمسحي عن وجه الأرض، أفكنت وحدي وصمة البشرية جمعاء؟!.. والحب يبصق في وجهي.. يلسعني لسعة أفعى سامة.. فماذا جنيت؟!.. قد كنت وإياه معاً خطوة خطوة. عقدت مصيري بمصيره. مادت الدنيا بي، يوم أن أخذوه مني. أحسست ضياعاً في أعماق كياني. كنا نجذف في قارب واحد، ضالين في بحر يزفر موتاً. في غرة من أمري قلب القارب بي.. ألقاني في لجج الموت، ثم حلق بجناحي نكران إنساني رائع. أبداً. لم ينعتق لحظة من إغراء لمعان الزيف. حاولت أن أطفئ في عينيه رؤية البريق الملعون، لكنهم انتشلوه من تلك «اللاإنسانية».. وأنا خنت قيم الإنسان.. حقاً!.. إني أقترب بالفعل من مأساة شذوذي.. إني ملعون!.. أتنقل ما بين جحور الفئران وحظائر القردة.. وهو إنسان بار.. أبداً لم يمرق.. حتى يوم حاول أن يغتال الدركي الطيب.. أو ساعة امتدت يده الفاضلة بالشفرة الحادة إلى أسفل بطني.. لحظة صارت قبضته حبل مشنقة محكمة الطوق حول عنقي. أو تحت شجرة الأكلبتوس قبل الفجر، وهو ينقض على عورة زرقاء لأنثى بشرية.. في المقهى يغرق جوفه بشراب دموي.. حول طاولة الميسر.. وهناك في ظل عريشة الإنسانية.. داخل حظيرتها الملأى بمآثرها الفذة.. بالنبل.. بفضائل الإنسان المعدودة.. عاد لمكانه.. للبغضاء القديسة المعبودة!.

قد عاد بكل ذلك بشراً حراً.. أنت حر الآن.. عدت إليها.. إلى

حريتك تلك في ظل بريق الأضواء المتلألئة المعروفة.. اللعنة!.. أفلم تتخم منها بعد؟!.. أولم تشبع نزوات وحماقات؟!.. معذرة للإنسان!.. فأنا أتهور.. دعني أسترجع أقوالي مرة أخرى. تختلف بالطبع نزوات الفئران والقردة عن نزوات الإنسان.. نحن الحيوانات حمقى!.. لم نفهمكم بعد.. لن نفهمكم أبداً. ورأيت العينين الساخرتين البشريتين تصفعانني من خلف ثقب الباب. وغضبت أخرى. وصرخت «اللعنة». لماذا تغضب القردة؟!.. ولماذا تثور الحيوانات؟!.. أم أني حقاً إنسان شاذ ملعون منبوذ؟!.. لست إلا بمخايلهم الإنسانية الخلاقة الخصبة، فأراً أو قرداً؟!..

إني بشرا.. ملك المنبوذين المبصوق عليهم الحاظين بسخرية الإنسان السوي العادل. ولم يكن جديراً أن أبحث عن الأسباب.. ستتعب!.. وهي لا شك موجودة بحوزتهم. محفوظة داخل صندوق مغلق. ويقيناً إنها بوجاهة علة وجود الكون بذاته. إذ كيف، لو اختلف الأمر عما عليه الآن، كان سيتسلى وأجد هذا الكون؟!.. إني، وأنا الفأر والقرد، لو كنت مكانه، فسأحطم هذه الدنيا، لو كانت رتيبة ومملة، دون ترددا. ثبت قليلاً. بشراً منبوذاً في قمقم. تركله أقدام بشر بارين ومطيعين. متفانين في تسلية الخالق. وكنت مخدوعاً، إذ توهمت أني أصبحت خارج اللعبة. أني فقط خارج حظيرة الإنسان. وتبينت خطأ هذا كذلك. صحيح أن العالم انكمش من حولي وتربع داخل رقعة تحصرها عيناي، إلا أني كنت قلب هذا العالم، متورطاً بقضية الإنسان حتى أذنيّ. وكان خداعي الذاتي ينتشر في كل ما حولي من أشياء. كانت الشمس في هذا الموضع مخدوعة مثلي. فهي تشرق. تمتد أذرعها عبر نافذتي وتريق في أرض الغرفة بقعاً ضوئية، يبتسم محياها، وتزغرد في مأتم. ووزاء النافذة تتفتح أكمام الورد وتضحك من دون أسرار، مندفعة في تيار الخدعة القذرة. وانخدع العدل، من حيث توهم

أن قوله القول الفصل، فإذا هو يُنتهك في السر بوقاحة، وبتماد بالاستهتار به. وانخدعوا هم أيضاً حين مسخوني هذا القرد الملهاة كي يتسلوا بمشاهدتي من هذا الثقب الملعون. كل الأشياء خدعة. أحقر خدعة. مأساة الإنسان وملهاة الله. ويتملكني الغضب الكاسح مرة أخرى. غضب جبار ولا يملك أن يفعل شيئاً. متمكن يردي العقل، إلا أنه أعجز عن تبديد ذرة من هذا الوهم العملاق الجاثم فوق صدر كل كائن في الدنيا، يتنفس معه الخدعة البشعة ويحياها بكل طاقاته. لا فائدة!.. هي خدعة سمجة أخرى، هذا الحلم في أن أقدر على تحطيم شيء ما. كان القمقم من فولاذ صلب ماكن.. الجدران مرئية وليست مرئية. متساندة متراصة بأقوى ما يقدر «الإنسان» على صنعه. وأنا وحدي في قبضة الغضب المشهرة برحاب كياني.. أأحطم نفسي؟!.. عقلي؟!.. حياتي المسكينة؟!.. بل لا يمكن أن أتخاذل، مع ذلك فأين الجبن وأين الإقدام؟!.. أين الضلالة وأين الرشاد؟!.. احترقت دون جواب. في رأسي الشعلة المتقدة الحامية كجهنم. تلقائياً كنت أروح وأجيء. أحطم شيئاً آخر يشاطرني السكن في هذا القمقم.. عمري. يطأ الغضب الجارف لحظاتي بأقدامي المرتعدة المجنونة. أتخطى التاريخ. تاريخي هذا الذاتي المشطوبة سطوره بخطوط سوداء من حقد أهوج. وحتى لو أني سأحظى بالغد، فسيبقى هذا التاريخ بقعة مستغلقة على الفهم تشبه فقدان ذاكرة طارئ. إلا هاتان العينان المخدوعتان البجحتان المخترقتاني عبر ثقب في الباب. الثقب. ما عتموا يفتحونه ليهيلوا مزيداً من نار ساعرة في أعطافي. اللعنة!.. ثم ينفتح الباب على مصراعيه ليأتيني طعامي.. خلود غضبي.. بقاء شقائي.. استمرار حياتي من غير تاريخ مسطور. لم أعرف هذا الوجه الأسمر المفحم. هذا الشرطي. كنت أحدق في عينيه. وأنفه. شاهدت عيوناً وأنوف كثيرة. هاتان العينان في الأرجح ما كانتا داخل الثقب. مع

ذلك فالبزة زرقاء. الوجه ساقط. الصوت شحيح الكلمات. حذر متحفظ. يستر جبناً أو يكتم خبثاً. وأنا أحتقره. أتغاضى عن كل أسئلته المقتضبة. أكره كل البزز الزرقاء في هذا الموضع.. هذا المسلخ!.. تأسن هنا الخدعة الكبرى. «الإنسانية» مجتمعة بكثافة. يوسف كان جباناً وحقيراً. كان نتاج حمل نعجة من ذئب. بعد حادثة الابن، مر بعملية فرز نادرة كمعجزة.. تقيأ نفسه. هذا الآخر حل محله.. لا يمكن للمهزلة الإنسانية أن تتوقف لحظة.

وأظل أروح وأجيء فوق لحظاتي. ساعاتي. الليلة الأولى. اليوم الثاني. الصمت. الحيرة. غضبي. والثغرة في الباب. تبرز عينان. يتسلى إنسان. أصبح ملهاة لإله بشري وقح مخدوع. وكلانا ملهاة لإله لا بشري خادع.

يكفي. فأنا لا أحتمل هذه اللعنة، لا أقدر أن أطفئ هاتين العينين. أهرب من اللعنة والعينين. أتخفى داخل مرحاضي. أغلق خلفي بابه. أملأه بقذارات الأفكار. هناك، يتحول العسر الفكري إسهالاً. ينسكب في جوف البالوعة دون توقف. إسهال الجوف أرأف من هذا الإسهال. وجنون حقيقي يتهددني فيما لو لم يتوقف في الحال.

لاحظت على جدران المرحاض عبارات كثيرة منقوشة بأظافر. مختلفة في الحجم وفي الألفاظ، بيد أن المضمون كان يثير الشفقة. هذه، بصقات المبصوق عليهم، وغضبهم العاجز المردود. متوارية في حيطان المرحاض. ولم أكن على ثقة من أن أولئك المجهولين كانوا مثلي. فمن بصقاتهم فاحت رائحة «الأطراف».. نتن المجاري العمودية.. والبغضاء. كان ثمة في تلك الكلمات آثار حروب قذرة خاضتها آلهة قذرة مع آلهة أخرى قذرة. وتوقفت هناك عند الكلمات المسعورة في سرداب الأمن العام في «الطرف الآخر». الكلمات المنقوشة على حيطان الزنزانات هناك، كانت تشبه هذه الكلمات. لعنة

ممتدة إلى كل مكان. دخل محسن أيضاً نطاق الحلقة المفرغة رغماً عنه. وسموا عقله الساذج باللعنة. ورأيت يدي تمتد نحو الحائط تغرز فيه ظفراً ينبت في طرف إصبع. وخططت شيئاً، ثم روعت. كانت تلك، عدوى البغضاء تتسلل فجأة إلى رأسي متلفعة بدخان غضبي المتصاعد. حقاً روعت. فأنا لا أحتمل الحقد على تسعة أعشار العالم. لن أنجرف في تيار القاذورات الدنسة المنسابة داخل أنابيب المجاري العمودية. هذا الغضب الجائر الأحمق، بسبب أوهام الخدعة الممسكة بتلابيب الكون. تباً له!.. تباً للمخدوعين.. ولي أيضاً!.. ومحقت الكلمات. وأحسست براحة إذ قاومت التيار وغلبته. كنت ما زلت في قلب الدوامة أبحث عن حل سحري. استحضرت كل أولئك. من كانوا برهة، فئران موصومين بالعار. ها قد عادوا محسوبين على أبناء آدم. ما انفكوا في بحث دائب عن أعظم حب. استحضرت من صارت امرأة منداحة البطن.. والأخرى المتلونة الأوجه، استحضرتها في وجهها ذاك الفاتن العذب.. وقريبي وهو يندب طالعه المتخاذل مثله. والمرأة الشابة المشرعة الثدي في سرداب الأمن العام هناك. ورأيت أناساً في «الجانب الآخر» يغطوني بدثار دافئ في أعماق الليل القارس.. النائم. ومحمداً في حيرته الصبيانية الكبرى.. وأطفالاً ترضع تحميها أذرع أمومة في رفق متناه.. والمرأة المفجوعة ساعة سقط كل منا في أحضان الآخر يبكي. ومجانين وعراة وجياع، بيتهم الشارع. ونساء تفجر كي تطفئ غلة شهوة رجل جشع ضال. والرجل الربعة الأسمر، عابر سبيل ويكافح اللعنة البشرية بتواضع مغمور.. والعدل المطل من وجه عابس صارم.. وسخاء الشمس.. والورد الكاشف عن روعته رغم اللعنة.. رغم الموت.. رغم الإنسان حليف الموت.

أفليس في هذا الكون ما يمكن أن يشرح صدر الخالق؟!.. لو كنت مكانه لرفعت الخدعة عن هذا الكون. لقد كنت أحن إلى الوجه

الآخر العاقل في هذه الدنيا. الوجه الذي تضحى فيه «الإنسانية» لفظة نقية.. يعتد بها كل كائن، وبسماعها تغمر الراحة كل المخلوقات. وقذفت غضبي في المرحاض وخرجت. وسمعت في الخارج أصداء جلبة. وما من ثقب في أعلى الباب. وكانت الأصوات هناك لا تبدو مألوفة، إذ كان ثمة صوت امرأة يبكي ويتوسل، يعلو على تلك الأصوات. ثم زجر.. بفظاظة.. يعلو على صوت المرأة الباكي.. ويحاول طمسه. وتجمدت. برهة من غير غضب أو نشوة. ثم في فجأة عدت وروّعت. كنت تأكدت. فاض ما في المرحاض. تلقائياً ساح في مد جبار وأعاد إليّ غضبي المغموس في القاذورات. وجننت. أين الوجه العاقل في هذا الكون؟!.. كانت اللعبة القذرة ماضية لا تلوي.. وهي قريبة. أقرب مني من إحساسي.. لا يفصلنا إلا هذا الباب.. هذا الحاجز الصلب الملعون.

جنوني. حطمت به في الباب عظام يدي مع صوتي:

ـ «إني هنا. وقريب منك.. يا أماه!.. إني خلف هذا الباب وأسمع صوتك.. لست في أي مكان آخر مجهول. نحن لا يفصل بيننا إلا هذا الباب».

جنون مستشر لا يتوقف. يثقب قلب وأحشاء الخدعة. لا يهدأ ما لم يتحطم هذا الحاجز الضخم الأعمى. من غير رادع يتفانى.. يبحث عن بلسمه الشافي في الوجه العاقل للدنيا.. هذا الطيب. أقرب مني من حبل وريدي.. لا يفصلنا إلا هذا الباب.. هذا الحاجز الصلب الملعون...

ـ «إني هنا!.. إني هنا!.. ليس بيننا إلا هذا الباب الملعون».

يهدر الصوت، وكمطارق ينهال. والأوهام تتحطم. وتتفانى الرغبات والعقل جنوناً يتقمص. تتجمع الدنيا في بؤرة غضب آسن. تتكدس المأساة البشرية.. تتكاثف.. تتجمد.. تتصلب.. تنتصب

مزهوة على شكل حاجز. . تتناهى من طرفي الحاجز صرخات الإنسان. . غضبه. . ذلته. . عجزه. . وبكاؤه.

وأنا ماضٍ في تحطيمه. . وفي تحطيم يدي وصوتي عليه. . لم أتيقن مما كنت أحطم. كان ثمة يقين واحد فوق كل شك. الخدعة. وكنت أكشفها. . أهتكها. . أهشمها إرباً. . بالتأكيد.

ثم تخفت الأصوات وراء الحاجز. صوتي كان مسموعاً وحده. الصرخة الحيوانية المحتجة هذه، تنشب في قلب خيلاء الأصنام. آلهة اللعنة ترتبك في الخارج. وعويل المرأة يصمت لحظة، يتعلق في أذنيها المرهفتين، السمع. ها قد ذوت الخدعة الجبارة. خمدت في ذرات الصرخة، في غضبه الفأر. . القرد. الإنسان! . .

ثم انفتحت الثغرة وأطلت منها عينان. . فارغتان. . فزعتان. . خابيتان. . ساقطتان في شرك أصداء الصوت الهادر:

ـ «إهدأ!».

ـ «حتى ينفتح الباب!».

ـ «صوتك يسمع في كل أرجاء البلدة».

ـ «فليبلغ عرش الله. . حتى ينفتح الباب».

قال صاحب العينين، باستسلام:

ـ «حسناً. ستراها. لكن من دون كلام».

بصرير متحشرج انفتح الباب. كان يغص بصريره هذا. والغصة الأخرى الحقيقية تتماثل عند منصة الاستقبال في الخارج. هناك، وقفت المرأة. هناك، كان يقف مخلوق منكسر وذليل مهدور كيانه على عتبة الحاجز. وانفتح الباب، فمكث الحاجز اللامرئي وحده. وأحسست أنني أندحر أمام هذا الحاجز الآخر بالذات. وكانت المرأة تحمل سلة.

وإذ لمحتني قالت بتوسل:

ـ «لا ضير!. . لا ضير!. . سينتهي كل هذا قريباً. . سيضحى

مجرد ذكرى.. اصبر يا ولدي.. قد ولى الردح الأكبر. لم يبق إلا قليل».

وتألمت لها. وكان يبدو أن كلاً منا ينسى في الآخر ذاته. يتفانى من أجل أشياء تحدث في الطرف الآخر القريب كحبل وريد. ونسيت بالفعل، حقيقة كوني قرداً. وهتفت بالمرأة بلهجة مقتنعة وتحاول أن تبدو مقنعة أيضاً:

ـ «عودي أرجوك!.. فها أنذا موجود قدامك.. وترين أني أعامل مثل شخصية هامة!».

لم تسمعني، أو لم تعبأ بأقوالي. كانت ما عتمت تلوح بالسلة لحرّاس «الحاجز».. تتوسل. وعلمت أن رغبتها العظمى في تلك اللحظة اقتصرت على نقل محتويات السلة إليّ. لكن هذه الرغبة المتواضعة العظمى ظلت ترتطم بأذان الحراس الصماء.

ازددت جنوناً، إذ لم أملك تحقيق رغبتها المسكينة. ثم حدث شيء. جاء طعام الظهر يحمله الشرطي الأسمر. وكان شرطي آخر يصبو إلى إغلاق الباب في وجهي. وكنت أصبو إلى أن يبقى هذا الباب مفتوحاً لحظة أخرى.. وبالطبع، انهزمت رغبتي أمام رغبة الشرطي، فعاد الحاجز صلباً فولاذياً أعمى، وعندئذٍ توقفت وراءه أعاني نوبة ذهول حادة. كنت مرة أخرى مسروقاً من غير وجود. أضرب في آماد تيه ممتلئ بملابسة لم أفهمها. ضائع عن نفسي في ألم المرأة المحرومة من تحقيق أصغر رغبة. وكنت أتميز غيظاً في أعماق ضياعي. وتأملت الطعام الذي جاء به الشرطي الأسمر. هذه الجيفة، ستدخل جوفي في الحال. تلقائياً، سأتناولها من أجل أن أبقى قرداً، يوماً آخر. وتمثلت أيضاً، السلة بيد المرأة التعسة المسكينة. حملتها معها أربع ساعات، بعد أن أفنت في تحضير ما بداخلها الجهد. كانت تفني طاقتها كي أحظى أنا بالفرح اللحظي. لحظة تلتئم فيها الأطراف المنفصلة،

المشطورة بالحاجز. وكنت أتسكع في قفر المعمية من دون عقل. ثم حدثت الومضة.. كانت كشرارة برق. وبصقت.. وبإصرار تمتمت: «ليمضوا وطعامهم إلى الجحيم!.. لن أتناول الجيفة هذه بعد الآن!».

لكن لم تمض لحظات، حتى عاد وانفتح الباب. واجهني الشرطي الأسمر يحمل على ثغره بسمة، خيل لي أنه كان أعدها خصيصاً لي. وكان يحمل بإحدى يديه السلة، وبادرني إذ مرق عبر فتحة الباب النصفية:

ـ «خذ يا سيدي، واهدأ بالاً. لقد أرحت أمك وأحضرت السلة لك.. ذهبت وهي مسرورة، وجزائي أن تطعمني شيئاً مما جلبته لك».

استغربت، وهدأت في آن. لم يكن في وسعي إلا أن أهدأ من بعد أن تحققت رغبة المرأة، إلا أن الملابسة كانت أعمق مما يحدث بكثير. ووراء هدوئي، كان غضب عات ما انفك يتأجج. حدقت فيه ببرود لم يلبث أن تحول إلى ازدراء قهري. عجزت عندئذ عن شكره. لقد كان يذكرني بيوسف. ومثله يغمرني بسوء طوية وبغثيان. مع ذلك كان للخدعة الصبيانية هذه، وجه آخر. هذا الشرطي حقق للمرأة رغبتها من قبل أن يخدعني بسخافاته.. هكذا رجح هذا الوجه الآخر، وردعني عن أن أبصق في وجهه. وأشرت إلى السلة:

ـ «ما دامت المرأة قد ذهبت، فيمكنك أن تأخذ السلة بما فيها».

قال محتجاً:

ـ «حاشا أن أفعل!.. هذا شيء لك وحدك.. ولقد داعبتك..».

ازددت إصراراً وغضباً:

ـ «خذها!.. وأزح عني طعامكم الرجس هذا».

امتلأ دهشة. لم يفهم أو حاول ألا يفهم.

ـ «لماذا؟!.. ها قد فعلت من أجلك كل ما قدرت عليه».

ـ «أما أنا، فمضرب عن الطعام منذ هذه اللحظة».

ازداد وجهه الأسمر سمرة.. وكان مبتلعاً في شدق الدهشة.

ـ «لماذا؟!.. قل لي لماذا؟!».

ـ «قل لي أنت، ماذا فعلت لكم ولماذا أنا في هذا الوضع؟!».

واحتار. كانت حيرته تتطافح مع دهشته على وجهه وفي حركاته.

وبدا لي أنه يكتم سراً عني.. إذاك عدت وصرخت:

ـ «لماذا تسكت؟!.. قل لي!.. لماذا أصبح قرداً في هذا القفص الهائل؟!.. لماذا أنا ملهاة..».

وتوقفت. كانت يده تمتد إلى باطن السلة. وتناول كعكة ثم قال:

ـ «أنظر؟!.. سآكل الكعكة.. فلا تخيب ظني.. كل أنت طعامك.. أرجوك!».

وبآلية هتفت به:

ـ «اتركني!.. اتركني الآن!».

لا أدري لماذا أطاع. تراجع.. ثم تمتم:

ـ «حسناً. سأتركك الآن حتى تهدأ.. وإذاك، لا شك ستعدل عن فكرتك السخيفة هذه».

أدركت. ولا جدوى. أني في أرجوحة الأوهام ما زلت. قد وضعوني بداخلها.. سلبوني يقيني.. والأشياء الكائنة موجودة خلف الحاجز وحده. ثمة أشخاص يتعذبون، ويقاسون من أجل لا شيء ومن أجل كل الأشياء.. وأنا، رغماً عن أنفي، أمسيت حجر عثرة.. منبع ويلات البشرية.. وهي في هذه الساعة فئتان.. ولكل فئة موقف مني، لكني لست أخيراً إلا شوكة في قلب الفئتين.

وامتدت قهقهتي المجنونة إلى ما خلف الباب الموصد. جنوني هذا الآخر لا شك يبلغهم الآن. ومما لا ريب فيه، أنه يعنيهم أكثر من بشرى تزف إليهم عن نيل وسام بطولة. كان بين الآلهة والأبطال بون ليس من السهل أن تتخطاه مطامح تنتجها خدعتهم بغزارة. إلا أن

جنوني، سيسهل الأمر عليهم. إذ ليس مهماً أن يغدو القرد حشرة. فالمعضلة كانت كيف يفنى هذا القرد.. وكيف تزول الحشرة. والمعضلة أيضاً، كانت خارج هذا الصرح الأصفر تتخذ شكل نقيض. كيف يعود الإنسان القرد إلى أصله بشراً؟!.. كيف ينعتق من ربقة هذا العدم الروحي الجسدي؟!.. يحظى بكيانه.. ينفذ من أشداق الملابسة الأسطورة؟!...

وتعثرت. كنت أقاوم خيوط شبكة ملقاة داخل رأسي وحول قدمي.. أجهل ملقيها، لكني أتعثر فيها وأكبو. أقاوم عقبات كثيرة. العالم كان ممتلئاً بالجدران. في كل شبر حاجز.. وتعثرت وكبوت. لا جدوى.. إني ملقى في حقل مزروع ببذور جدران وحواجز.. وهي تنبت مثل ذرة.. وتنمو كذباب.. وتتكاثر مثل طفيليات. إلا هذا الحاجز الراسخ القائم بيني والبغضاء.. كان الآن هشاً مهزوزاً.. شاخ معي في أشهر.. وتداعى الآن وإياي في نفخة...

أخيراً أكره!.. بضراوة أكره.. بشراهة النار الآكلة في غابة أشواك جافة. لم يفزعني هذا. لم يبهجني أيضاً. لكني فتحت له أحضاني.. كنت أعطيه نفسي الغاضبة الضالة كي يتناولها بهناءة.. يأكلها بشهية لا حد لها.

مرحى!.. إني أخيراً أكره نفسي!.. ولست سخيف الأفكار كما حاول أن يقنعني هذا الشرطي الأسمر. إني أتحت للعالم إلقائي في أعماق الفخ.. ببساطة، أبحت له أن يقذفني خلف ألف جدار لا يمكن تحطيمه.. لست إذن فأراً أو قرداً أو إنساناً.. إني مجرد مجرم.. إني مجرد أحمق.. إني مجرد مخلوق متطفل في عالم لم يخلق له.. إني أخيراً أولى بمعاقبة ذاتي، من أن يقاصصني هذا العالم الذي تطفلت عليه.. فأنا لست جديراً بطعامه.. لست أهلاً لطعام كل الأطراف...

هذه «الجيفة»، طعام الفئة الأولى.. وما في السلة طعام الفئة

الأخرى. إني إذن، متجاذب من قطبي الخيط. وهذا القطب الأول، الشرس الجبار، الأقوى ويمثل تسعة أعشار البشرية. والقطب الثاني طيب عاجز لا يملك إلا مذلته ودموعه. واحترت. وتعجبت. كيف لم ترجح حتى الآن كفة الطرف الأقوى؟!.. ولماذا الطرف الأضعف ما انفك يجاذب، لا يستسلم؟!.. وعرفت. فأنا كنت جوهر اللعبة. انحاز بغبائي للطرف الأضعف وأعرقل في إصرار فوز الطرف الأقوى.. ثم فجأة يلمع في رأسي بريق إشعاع عاقل. أفحقاً أملك أن أفلت من قبضة الطرفين وأنهي بنفسي مشكلتي الذاتية؟!.. السلة.. وطعام الموقف. اللعبة القذرة بين «إنسانيات» مختلفة.. فلتسقط كل «الإنسانيات».. الأعشار!.. أتساع الأعشار!.. ومجار عمودية.. وأنابيب ملتوية.. وحقول حواجز.. والدم.. والسائل الدنس الأصفر.. والأطراف العمياء بأنانيات صغيرة. وأناس بررة منخدعون بخرافة حرية الإنسان.. وأشواك الصبار الناشبة بوجوه بشرية.. والفئران.. والقردة.. إلى أين يقود هذا كله؟!.. وتمعنت فيما حولي. الغرفة الفخمة بمرافقها الصحية والباب الصدء العازل الموصد. وتمعنت بي. بالشيء الدخيل المتطفل على كل تلك الأشياء.. وازددت إصراراً.. صار «الشيء»: كراهية محضة.. وتجمد وتصلب مثل حجر.. الآن، لا يمكن لكراهيته أن تتعداه إلى غيره. ودوت الضحكة القاصفة الرعدية.. وكانت تتحرش. إذ ماذا يمكن أن يحدث لو أن يداً بشرية التقطت هذا «الشيء» الحجري، ثم قذفته في وجه كل الأشياء؟!..

وقال الشرطي الأسمر، وهو يعاني بعض الدهشة:

ـ «أنت إذن، لم تأكل طعامك فعلاً!».

وكنت أتكوم فوق سريري.. أنحشر في أقصى أطرافه. هربت إلى هناك بمجرد أن تناهى إليّ صوت طقة مصدرها الباب. وكان هناك نفور

يقصيني عن الخارج.. يبقيني وحدي.. وأنا عيي لا أقوى أن أفعل شيئاً يمكن أن يخرجني من هذا الوضع.. وأغمضت عيني، فسمعته يستطرد:

ـ «لنفرض أنك تخاصم طعام (المركز) هذا، لكن ما ذنب الطعام الآخر؟!.. لقد صنعته أمك خصيصاً لك!؟».

كان يستفز سكوتي، وكنت أسكت على استفزازه. بيد أن أفكاراً اقتحمت جمجمتي عنوة وقالت لي: «إنه يعاملك معاملة الأطفال».. ثم أحسست بيده تحط على كتفي. وفتحت عيني. حدقت فيه ببرود.. ولم أنطق.

ـ «اسمع!.. أنت لا تؤذي إلا نفسك».

ـ «لماذا لا تتركني وشأني؟!».

ـ «لأني لا أرضى لك أن تؤذي بحماقاتك نفسك».

يتحرش بي. ومن السخف أن أبقى على إيماني فيّ إلا شيء قادر على إعادة وضعي في قلب العالم. ها بي أعود، بفجأة، وألتحم بذرات الأشياء، كالقطرة الساقطة في بحر مائج.. المحتدمة رغماً عنها في زوبعته العدوانية. لكني أخطأت. وللمرة الألف يحدث هذا. فأنا ما كنت أنزلق من باطن خدعة إلا لكي أدخل جوف خدعة أخرى أكثر خبثاً. إني لم أتطفل.. هم يحتكون بي.. يقتحمون وجودي.. ينسلّون إلى أقصى خلايا كياني. فماذا كنت أريد إذن من إضرابي.. ممن أنتقم في إيذائي لذاتي؟!.. كلا.. بل أتخذ من تعذيبي نفسي، موقف دفاع عنها منهم. أتخذ أيضاً هذا الموقف المقهور الجاهد بمعاقبة أسباب قهره المجهولة والمعلومة.. وفي ليلي الفكري الداجي، كنت أكتشف أنني ساقط في معضلة ميتافيزيقية. امتلأ رأسي من ثم، ببقايا أفكار وبأشتات من ذكرى وبأجزاء أحاسيس وبأوصال ألغاز وقطع استنتاجات. مزق داخل طاحونة تعمل بكل طاقتها. والأسئلة متجبجبة

طافية فوق سطح فوهة الطاحونة.. التكرار.. لماذا؟!.. وكيف؟!.. ومن غير استحقاق.. من دون رضى.. والأحداث تتدحرج.. تسقط في هذا الواقع الشيطاني.. الدرب البشع المسدود.. لم أختر شيئاً.. وعدت فجأة وسألته:

ـ «ماذا فعلت؟!.. لو قلت لي ماذا فعلت، فسأقلع عن إضرابي في الحال».

لا يدري.. أو يتظاهر بالجهل.. يقسم.. يلقي تبعة ما يحدث على رؤسائه.. إذن.. أجل.. يوسف!.. يوسف آخر لا ريب.. أم يتمادى في حقني بسموم الخدعة القذرة؟!..

ـ «قل لي.. ألديك أولاد؟!».

ـ «طبعاً..».

واستطرد:

ـ «لماذا تسأل!؟».

وضحكت، فعاد يتساءل.. باستغراب:

ـ «ولماذا تضحك؟!».

لا شك سيخيل له. أني أحاول أن أبتز عطفه من أرخص درب. هو لا يعلم بالطبع، أني أمقت كل اللعنات البشرية. ويقيناً لا يدري أن خيالي كان يتمادى في أوهام، قد تغدو لو أني رأفت به، الواقع ذاته، كي تنقذه من أوهامه الشخصية. من نفسه الخادعة والمخدوعة.. وغمغمت:

ـ «أبداً. كل ما في الأمر أني تذكرت أن لـ «كوبي» أطفالاً..».

امتقع وجهه. الطلعة السمراء شحبت. أكيد، لم يدرك أني غالطته.. فكوبي ليس بيوسف، في أي الأحوال. كوبي لا شك يمارس كلتا حياتيه عن اقتناع كامل، كوبي شخصان منفصلان، وما يحدث لأحدهما لا يؤثر في الأرجح على الشخصية الأخرى. وإذن..

فما معنى أن يشحب لون هذا «التابع» البائس؟!.. أفيعلم رد سؤالي ويتعمد إخفاءه؟!.

ـ «لم تجبني بعد. ماذا فعلت، ولماذا أنا في هذا الموضع؟!».

ـ «أتريد أن أقسم لك، بأولادي، على أني لا أعرف شيئاً؟!».

ـ «كلا. فقد تندم على ذلك فيما بعد».

باستغراب قال:

ـ «أنت بدأت تخلط بحديثك.. أرأيت مدى تأثير الصوم عليك؟!.. كل أرجوك.. إن عليك أن تصمد..».

ـ «أريد معرفة مصيري..»؟

ـ «ستعرفه فيما بعد.. لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً».

فقفزت من سريري.. وصحت به:

ـ «أنت إذن تخفي أشياء عني.. قل لي ماذا سيكون؟!.. قل لي أرجوك».

وتفحصني بهدوء. شفاهه مكثت مطبقة، ارتفع صدره ليلفظ تنهدة. ثم وهو يجتاز الباب الصدء، تمتم:

ـ «من الأفضل أن تأكل، ودع الأمور تأخذ مجراها..».

الفصل السابع عشر

اليوم الثالث من إضرابي، في فندق القردة.

شيء. حتفي في هذا الشيء. الشيء وحتفي يقتربان خلسة. مختبئين وراء جهلي المطلق. ليل جهلي المتواصل يمسي ليلين. وأضأت نور الغرفة الفضفاضة. لا شيء جديد!

حين الشرطي الأسمر جاء بطعامي، كنت أعدو خلف مصيري.. وأحاول الإمساك بذيله. اكتسحتني قنبلتهم المبيدة. بصوابي انفجرت.. تطاير عقلي فلذات وفتاتات. قال الشرطي الأسمر مستاء من حالي، لا يخفي أيضاً اشمئزازه من رائحة الصوم النتنة الفواحة بشدة في كل جنبات الغرفة:

ـ «ألم يحن الوقت بعد لتكف عن عنادك لنفسك؟!.. ها أن نتنك قد أصبح يغمر أرجاء الدنيا».

حقاً. بمشيئتكم صرت ظرباناً. أصبحت أشياء لا تحصى. وأخيراً، أحمل بيدي وثيقة إجرامي وقصاصي. قدري الأسود هذا. ويقيناً، ستصفق له، شقيقته الكبرى وتزغرد.. وسترقص أيضاً بالمنديل.

كنت أحمل بيدي: الورقة المغرضة الساخرة من كل عدالة يمكن أن توجد. ورقة الزور الذي ما زلت أصمد في وجهه. لكن الورقة

هذه، صنعت في غرة من أمري. وصلتني وأنا داخل هذا القمقم المسدود المختوم. الورقة الدنسة. تفتر فيها شفتا كتلة اللحم. بسمة مكر في غاية الخبث.. طُعم الصياد. الورقة المنتصرة. يخيل لي أحياناً أن نصرها هذا محض خداع آخر. هي تتظاهر به.. تخفي وراءه إفلاساً مفضوحاً ميؤوساً من إنقاذه. فوز الجلادين في اللعبة مجرد خدعة. أو دعوى يلازمها البطلان أو فرية هشة قد تتداعى أمام العدل في هبّة. لكن أين العدل وأين المنطق؟!.. إن الطريق من حولي محكم. انتشلوا مني زماني ومكاني.. ثم وضعوني أمام أفظع واقع شاؤوه بعد أن غرسوا أقدامي في أرض ثبات. حتى لساني قطعوه. كنت ضحية أبشع استغلال لسذاجة مخلوق لم يتقن بمروقه المزري وشذوذه الفاضح عن التيار، استقراء مكائد الإنسانية. أبداً. لم أتصور إمكان بلوغ الإنسانية هذه، ذروة رجس العالم.

في صحراء جزعي وذهولي أبحث عن فجوة منها قنوطي اللامتناهي. أين قشة الغارق في بحر كالح لا شطآن له؟! إني الآن أعلم لماذا أضافوني في هذا «الفندق» المسدود، مع كل مرافقه فيه. لماذا ملك القردة جعلوني.. ولماذا أعادوا تجديد حظر كلامي مع أي مخلوق.. إن العدل قال كلمته في هذا الحظر. لم يتحَدوا كلمة العدل هذه. لم يضربوا بغضب العدل عرض الحائط. خرجوا من ذلك كله بلبوس تبدو نقية ناصعة المظهر. هم أدهى من كل عدالة.. هم أنجع منها. في أفواههم الآن موجودة الكلمة السحرية. أرأيت؟!.. كنا محقين. أما أنت يا «عدل» فتعاني من زحمة خطرة. أنت لست «عدلاً» ما دمت تتيح الفرصة لمجرم أن يفلت من موته العادل.

أين القشة؟!.. هل في بحر الظلمات أثرت قشة تطفو؟!.. وتصلبت. لم يخطر في بالي أبداً استجداء العطف. يستجدي العطف الخاطئون. كنت هذا «الخاطئ» في نظر الشيطان وحده. أهبط في

قيعان جور الإنسانية. أبحث ثمة عن شيء يدعى الإنصاف. أنقب عن الحق.. وأفتش عن الحقيقة المطموسة.

ورأيت الرجل الأزرق. كان يتمعن بي في وجه ميت. من أي الأصناف هذا الكائن؟!.. وأنا في حاجة لإسعاف عاجل. والوقت سرقوه.. أمروه أن يسرقني. والزرقة الماثلة قدامي بغيضة، يتضح منها أطياف الزيف.. كان الزيف يتنفس في كل مكان. تستشري الخدعة. والرجل المجهول الأسمر مر بي يوماً بطريق الصدفة. كان عابر سبيل وتوقف. هتك الزور بالصدفة. ضرب الموت المتربص في أم رأسه. لكن الزيف لم يستسلم. كان طوال الوقت يستجمع قوته ويعدّ لغدره. إنه حاكم هذا الكون المطلق.

الزيف!.. الإسعاف!.. لم ينقذ يوسف إلا سقطة ابنه. هذا الشرطي الآخر متسمر.. مفحم.. يخفي جوهره وراء ثيابه.. أين مكمن الزيف منه؟!.. ماذا وراء الزرقة الملعونة هذه؟!.. وقفزت. وكأعصار واجهته. وكنت مجموعة أشياء. غضب، خوف، إحباط، يأس ومعاناة. في الواقع كنت تجسيداً لمحنة السقطة الإنسانية. وأنا ما زلت أبحث عن قشة.

ـ «أنظر ما فعلوا بي».

التقط الورقة. أخفى عني سيماءه. وسألته:

ـ «أأنا حقاً خائن؟!».

كان يمضي بقراءته الجادة. قلت:

ـ «ليس للبندين أي أساس من صحة».

ظل يقرأ.

ـ «وعذبت من أجل كلمة لم أنطقها، وها هي موجودة في لائحة الإتهام هذه. إني متهم بالتسلل إلى أرض معادية، والعقوبة القصوى على هذه التهمة خمس سنوات حبس».

دفن الورقة في وجهه. كان يخفي في إصرار خلجاته:

ـ «ليس مهماً هذا. أقرأت البند الثاني من التهمة؟!.. أقرأت أقذر كذبة؟!.. هم يتهمونني بإدلاء معلومات عسكرية «للأعداء».. من أين جاءوا بهذا؟!».

لم ينبس.. فعدت أقول:

ـ «أرأيت كيف يسعون لحبسي خمسة عشر عاماً مقابل فرية لئيمة قذرة؟!».

أعاد لي الورقة. أفحم. كان خرسه من نوع مستعص.

ـ «كل ما في الأمر أنني قلت لهم هناك.. (لم أر شيئاً).. أما التهمة فتقول: إني أخبرت «الأعداء» بعدم وجود حشود عسكرية على طول الطريق إلى الحدود».

أخيراً، غالب خرسه، قال بصوت ساقط:

ـ «هذا لا يعني شيئاً. ستبت المحكمة في الأمر، ولديك ثمان وأربعون ساعة».

ـ «أمي كانت هنا أول أمس.. لماذا لم يحطها أحد علماً بالأمر؟!».

ارتبك شيء ما.. حك الشرطي الأسمر رأسه:

ـ «لعل لائحة الإتهام لم تكن ناجزة بعد».

ـ «بل هي مكيدة. إنهم يحاولون تدميري بكل وسيلة».

فقال باستعطاف:

ـ «أنت بحاجة إلى طاقة. فكل أرجوك كي تتمكن من مجابهة الموقف».

ـ «كيف؟!.. وقد أعدوا كل الترتيبات لمباغتتي؟!».

ـ «سيوكلون محامياً للدفاع عنك».

يا للسخاء!.. هم سيوكلون محامياً للدفاع عني. أين أنت الآن يا

محمد كي تشهد؟!.. قد وكلوا محامياً لك أيضاً. وساومهم في سنوات من عمرك. الحاوي يضلل أعين العدل.. يضع الكلمات على لسانه. ثم تفلت اللفظة الكافرة المجحفة وفي لحظة حظ عاثر للعدل، من حنجرة هذا العدل. وصرخت:

ـ «لديّ محام وأنا أريده. لا بدّ من إبلاغه.. أنهم يعرفون أن ثمة محامياً يعمل من أجلي فلمَ لم يبلغوه بمكيدتهم؟!».

ـ «كل أرجوك ثم نتفاهم».

ـ «لا بدّ أن يعرف أهلي بالأمر حالاً».

ـ «كل. إنك خائر. لن تصمد في هذا الوضع أبداً».

ـ «أعجب كيف يجيزون لأنفسهم هذه اللعبة اللامشروعة. إن صوابي يكاد يطير من رأسي».

صمت مع آهة. كان محياه الأسمر أكثر دكنة، في لون بزته الزرقاء. أين الزيف في هذا الوجه؟!.. أين يتخفى؟!.. وعجزت عن كشفه عجزاً تاماً.

ـ «أنت صغير.. وتضخم المسألة.. لكن حقوقك لك.. ولا أحد يقدر على اغتصابها منك».

كيف تقول هذا وأنت تعلم ما إلت إليه؟!.. وصحت مرة أخرى:

ـ «أنت تخدعني.. لقد أفلحتم في إيقاعي في أعماق الحفرة.. أنتم معنيون ببقائي داخلها. تخشون خروجي منها وكأني عملاق مرهوب الجانب، في وسعه تعرية اللعنة البشرية، وإيقافها عند حدها؟!.. ثقوا أني لا أملك أن أفعل شيئاً. إني لا أكثر من طفل عاجز يتألم للعالم. لم أفعل شيئاً. لم يخطر لي أن أفعل شيئاً. لكني أريد الحظيان بحياتي.. حياتي التي اغتالتها لعنة «الأطراف».. المغروسة في طين معاهدة الإنسان مع حتفه».

ثم تهافتت سعرة الكلب المجذوم. مكث لهاث محتضر لا يعرف

حتى نفسه. ثور الحلبة خر مطعوناً. لم يجر من جرحه المفتوح، السائل الأحمر. كان هناك زبد مع عرق فيه غلظة. أبيض كدر متدفق. وضياع لا حد له.. يتخثران معاً، ينعقدان كالصلب.. وتتيه الأشياء برمتها متوارية خلف حاجز من آلاف وملايين حواجز. هذا المحسوس الملموس الآثم.. اللغز الأكبر.

ـ «أعدك».

ـ «وعدوني من قبلك وبروا بالوعد!».

هل أحسن اختيار ألفاظي؟!.. أهناك للكلمات دلالة؟!.. هل ثمة فرق بين أن يعد المرء أو يتوعد؟!.

فقاطعته:

ـ «هل أثق بما تتوعدني به؟!».

كان قوي الأعصاب. غياب أعصابي لم يثن هدوءه. أمسك بي في عنف، ثم تراجع:

ـ «أضحى فمك كالبالوعة، وأنت تخطرف.. ولا تدري ماذا تفعل..».

صدقته من غير تردد. قال شيئاً ليس بحاجة إلى برهان. وتأخر كثيراً حتى قاله. إذ كان ما قاله موجوداً قبل مجيئه. أفكان لا بدّ وأن أعرف ما أفعل حين لا يوجد ما مكن فعله؟!.. بل كان هنا ما يمكن فعله.. ما لا بدّ من فعله.. البحث عن القشة.. إيجاد القشة بكل ثمن مهما عز.. وقبل قليل كان يخيل لي أني أبحث في بحر الظلمات. ضعت الآن في لا جدوى البحث. وجهلت حقاً ما كنت أعرفه وأريده. ذكّرني. وها هو، في تذكيري، يمنحني فرصة لن أرفضها. هذه الرغبة في أن أميز بين الزائف والمحض. واستنجد بالقشة، مرة أخرى، أبحث عنها في حلكة البحر الزافر أبخرة حاجبة للرؤية. ثم من يدري ماذا سيحدث؟!.

ـ «بماذا تعدني؟!».

ـ «الآن سأبرق لأهلك. سأبلغهم.. شريطة أن تعقل وأن تأكل».

ـ «أنت كاذب».

فقال:

ـ «حسناً. عدني إذن بأن تقلع عن إضرابك بمجرد أن أبلغهم».

ـ «كيف أعرف أنك لا تخدعني؟!».

ـ «سأبرق لهم الآن. وسأحضر لك نص البرقية والإيصال».

في تلك الليلة أفطرت. وسهدت.

بين يدي كان شيئان. شيء يمسح عمري القادم بكلمات نجسة من تأليف الإنسان. الشيء الآخر كان القشة. أتفانى في إلقاء مصيري عليها. أتمدد من ثم على طول سؤال كمصيري المبهم.. أفحقاً أن القشة سوف تقصم ظهر العالم؟!....

الفصل الثامن عشر

العربة المكعبة السوداء المسدودة. عربة نقل الموتى!.. عربة نقل السجناء!. تمضي.

جميع أوراقي أحيلت إلى المحكمة العسكرية في منطقة الشمال. وأنا في سيارة نقل الموتى هذه، أمضي إليها شبه ميت. وبداخلها أيضاً أحياء ثلاثة زرق الألوان، والسائق. اليوم، مصيري يتقرر. وأقدامي مكبلة ويداي. والعربة تنهب ودياناً وجبالاً. لا يمكن رؤية ما في الخارج. والصمت عنيد داخل السيارة. والكل فيها ينطق بكلام متواصل لا يسمع منه حرف. كل يفهم الآخر. وهم المنتصرون الأحياء. وكنت أتحاشى النظر إليهم، فأنا المنهزم المحتضر المحبطة في أعماقه كل محتويات حياته. وبكل بساطة استسلمت لأمور ما زلت أبحث لها عن معنى أو تبرير. ولا يمكن بعد أن أطرح سؤالي: «كيف حدث كل هذا؟!»، إذ الماضي تلاشى حتى أرسو أنا في هذا القاع.

قبل أن يصعد حراسي العربة السوداء، أخذوا التعليمات من كوبي. لم أسمع شيئاً مما قال. الكل دار ويدور بعيداً عني في السر. كان كوبي يلوح في أوج أحلامه وتفاؤله ونشاطه. وكل ذلك كان يعديني بشكل معكوس وعلى نقيض تام. كان هذا ما أثر من ماضيّ الذاتي، ثم بسرعة يسحب معه هذا الحاضر الواجم. «ماذا سيحدث؟!» تنطلق من أعماق الخوف وتطل من أمعاء استسلامي، تبدو كآخر

أنفاسي الواهنة المقطوعة. والقاعة هناك. وسأدخلها برأس أحنوه لي حتى رغام الأرض. كيف سأواجه الضدين؟!.. الطرفين؟!.. البغضاء والحب؟!.. أحزان أمي؟!.. أتراح شقيقاتي؟!.. آلام أحبابي؟!.. فرحة أهله وتشفي أخته الكبرى؟!.. وسعادة جلادي وغريمي الأول كوبي؟!. إني سأجابه قاعة غاصة بالناس.. لا شك سيضللهم الزيف.. ستشير إليّ إصبع متهمة ويلعلع صوت ممتلئ واثق: «هذا هو الخائن المجرم»، وسيصدق بعض الناس.. وسيوافق معظمهم بهزة رأس ويثير لغطاً وهمسات، حتى من دون «لماذا وكيف؟!». أهون للإنسان ألا يسأل أبداً. وهو كيف سيواجهني لو جاء.. لا.. لا.. لن يجرؤ. هو أتفه من أن يمتلك هذه الجرأة. إنه مسكين.. ضحية كونه لا شخصية له. بعض الناس خلق ليكون آلة طيّعة تخدم كوبي وأضرابه.. أولاء البشر الزرق الألوان. ماذا ستصنع أخته الأخرى حين يهزم من كانت تتظاهر بعبادته في أحد الأيام؟!.. ليس هذا عسيراً. فأبداً يمكن تحويل القبلات إلى بصقات. أفهذه هي الخاتمة الحتمية للحب؟!.. أفلا يمكن أن يحدث العكس كذلك؟!.. لِمَ لا؟!.. أفليس الأهون أن تتحول البصقة إلى قبلة؟!. آه لو كانت البغضاء فقط تبقى المبصوق عليها في الدنيا هذه!..

كانت العربة تهبط في وادٍ. أنزلق معها في قنوات دكناء إلى نور الفكرة هذه. البصقة والقبلة. إني غريق في طوفان البصقة العظمى. أنتزع منها ذاتي. أستقبل القبلة الأعظم. أغسل برضاب عذب طاهر البصقة الرجسة. ورفعت الرأس. وتطلعت في أغوار الأعين الست الساخرة مني. المزدرية إياي. الواثقة من أني مهزوم ميت. من أنها حية منتصرة. وبعثت. كنت بمواجهة البغضاء. ورأيت البصقات تغرقها. وهي تتلاشى. لا يبقى أمامي غير القبلة. وانشحنت أعصابي قوة. رأسي شكيمة. يطفح بمرافعتي عن تلك القبلة. هنالك في القاعة.

طرفان. والميزان كذلك. وسترجح كفة!.. كفة سترجح!.. والبغضاء باهظة كالصخر.. والحب خفيف كأثير.. كرفيف أجنحة نورانية. البصقة ثقيلة كرصاص. القبلة بلسم لا وزن له. وبينهما زيف وحقيقة.. والطيش والحكمة.. والحمق والعقل. وتقلصت في هذا. حقاً. كان الزيف وكانت الخدعة. كان أيضاً العجز وكان الضعف. لكني لم أنهزم بعد. وإذن، هل سوف ترجح الكفة اليائس منها المنطق؟!.

وتوقفت السيارة. هو ذا الدهليز المفضي إلى القاعة. دق القلب بعنف. إن مصيري ومصير العالم يختبئان الآن هناك.. في القاعة. ونظرت حولي. لم أشهد المومس والمجنون في الشارع. وتساءلت عما إذا كان مصيرهما سوف يتحدد أيضاً في هذا اليوم. وكنت أجتاز الدهليز بخطوات مختالة.. وكانوا في هذه المرة، قد فكوا قيودي قبل أن نصل القاعة.

القاعة.. جلبة. دخلت أخيراً. ألقيت نظرة. تلاشت رهبة كامنة في أعماقي. ازددت عزيمة. كل ما في القاعة هذه متواضع ومشجع. والجمهور قليل. ويبدد ضيقي وظنوني. وكانت أمي وشقيقاتي وأصحاب بررة لم أرهم منذ أحقاب اللعنة. وفي أقصى القاعة صحفيان. وبقرب منصة الحاكم كان محاميّ يقف بجوار المدعي العسكري العام. يرتديان الروب الأسود الفضفاض ويتساران. ولا بدّ أن العدل سيخلص من بين أقوال لسانين.. وهذان لسانان يمثلان طرفي هذا العدل، وغريب حقاً أنهما لمرافعتهما عنه لم يختارا إلا هذا اللون الأسود!.

كان أيضاً أشياء أخرى لم أفهمها. فلقد كان الرجلان يتساران كصديقين. وليس في المحكمة شاهد واحد من خصومي. وقريبي، شاهدهم الأول لم يأت. وبدا هذا، لأول وهلة. معقولاً. لكن شقيقته

الكبرى، الصلف الأكبر.. الحقد الأكبر، ومن اغتلت لها كل رغبات الدنيا وأصبحت نقمتها الجبارة، هل يعقل حقاً أن تستغني عن متعتها هذه التي أثرت من بين جميع المتع الأخرى؟!.. الفرصة الذهبية في رؤية المعجزة البشعة تتحقق. كيف سينسحق المخلوق الأحقر في عالمها؟!.. كيف أعلل هذا؟!.. وقالت أمي:

ـ «لم يأت أحد منهم».

فقلت وقلبي يخفق بنبضات من خوف:

ـ «ما زال متسع من وقت.. ولو جاء أحدهم..».

قالت باطمئنان:

ـ «لن يأتي أحد منهم... ثق في هذا».

كنت أثق في شيء آخر وقلت لها:

ـ «مهما حدث فالزور جبان.. لا شك يخشون ظهورهم أو ظهور الحق».

فرفعت يديها متمتمة:

ـ «سوف يختفون وبعون الله سيظهر الحق».

تشجع!.. اندلقت الكلمة في زق كياني وغمرتني. أصبحت شجاعاً بالفعل. وحاولت أن أقول هذا للمرأة الثكلى. وكانت قد استبدلت الثوب الأسود بآخر زاهي الألوان. إلا أن محاميّ استدعاني في تلك الأثناء. وحدثني عن صفقة عقدها مع المدعي العام بشأني.. وأنه يطمع بموافقتي على تلك الصفقة. ونظرت بدهشة إلى الاثنين. وكان الآخر، من سيترافع ضدي، ودوداً وبشوش الطلعة.

ـ «اتفقت وزميلي على إسقاط التهمة الموجهة إليك بشأن إدلاء معلومات عسكرية «للأعداء»، مقابل أن تعترف بالتهمة الأولى».

وتساءلت بذهول:

ـ «ماذا يعني هذا؟!».

وكنت مصعوقاً. أشعر بأني ما زلت هدفاً للخدعة، وبأن محاميّ قد وضع يده بيد من سيطالب بتوقيع أقصى العقوبة بي. وأنهما يتواطآن على إسقاطي السقطة القاضية التي لا قومة منها أبداً. وغضبت. في حين تفانى الاثنان على إقناعي بصفقتهما، وأن الصفقة هذه لا تعني إلا نجاتي من المؤامرة الدنسة.

ـ «كلا».

ـ «أنت لا تفهم موقفنا، لأنك أضعت ثقتك في كل شيء».

هذا حق. ومحاولتهما عبث فارغ. ولقد تعلمت ألا أنخدع بسهولة وعرفت كيف أتسلح بالشك. ثم ما معنى أن يتفق «الطرفان» المتناقضان لمصلحتي؟!.. هل يعقل أن من سيشير إليّ بإصبع متهمة ويبغي قصاصي، يتوخى نجاتي بالذات؟!.. كان لا شك يحاول أن يفلح فيما عجز عنه غيره طوال شهور عانيت فيها أفظع أنواع التعذيب. وأفضيت له بهذا الخاطر. كنت عاقد العزم على ألا أخذل نفسي. وافتر ثغره، وهو يربت على كتفي قال:

ـ «إني أفهم مخاوفك، لكنك أصغر من أن تفهم الوضع والقانون».

وسألته محتجاً:

ـ «هل يتطلب القانون، افترائي على نفسي؟!».

فألقى في ساعته نظره ثم قال:

ـ «لدينا ربع ساعة حتى بدء الجلسة فدعني أوضح لك».

قاطعته:

ـ «كل شيء واضح. لكني مقتنع ببراءتي وسأدافع عن نفسي».

قال محاميّ بشبه توسل:

ـ «إهدأ واسمع أقواله. إني هنا لأدافع عنك، فهل تتوقع حقاً أن يخذلك محاميك؟!».

بإصرار قلت:

ـ «تحدث أشياء، تجعل كل ما في الدنيا معقولاً».

فقال المدعي بفروغ صبر:

ـ «الوقت يمضي، فدعنا نتفاهم».

ـ «قلت لك إن كل شيء واضح، ففيم نتفاهم؟!».

ـ «أنت، كما يبدو لي، لا تدرك ما تعنيه تهمة إفضاء المعلومات بالنسبة لمصيرك».

ـ «هي أحقر من أن تحمل مغزى، ما دامت باطلة ومختلفة».

ـ «بل هي أخطر مما تتصور.. أفلم تقل في التحقيق هناك: «إنك لم تشاهد شيئاً»؟!».

ـ «قلت لم أشهد شيئاً وكفى».

ـ «لكن أسئلتهم كانت تتوخى الجيش، وهذا يعني أن ردك اقتصر على ما جاء في السؤال المتعلق بهذا».

وصرخت:

ـ «كلا. لم أر شيئاً. يعني أني كنت منشغلاً بمطالعة جريدة.. لم أنظر من نافذة الباص..».

ـ «للقانون وجهة نظر أخرى، بالرغم من وثوقي من أن ما قلته قلته بسذاجة وبحسن نية».

وصمت مبتلعاً في أعماق كنه وجهة نظر القانون تلك، فاستطرد:

ـ «ولهذا وافقت على إسقاط التهمة عنك».

ورفعت إليه رأسي. كان الغموض يحيق به. رغم الشك، وسوء النية، لاح كصديق مخلص. لم أفهم. وتساءلت:

ـ «والتهمة الأخرى؟!».

فقال كمعتذر عن عجز يقاسي منه:

ـ «هذا ما لا يمكنني أن أفعل شيئاً به».

ـ «لكنها كذبة حقيرة أخرى».

ـ «اجتزت حدوداً. . تلك حقيقة لا تقبل الطعن».

ـ «من دون عمد أو إصرار».

ـ «وقد شهدوا فيها ضدك».

ـ «سأواجههم. لا أستطيع الافتراء على نفسي».

وتدخل محاميّ ليقول:

ـ «ومعنى ذلك تأجيل الجلسة ريثما يستدعى قريبك للإدلاء بشهادته ضدك».

ـ «لن يأتي. إني واثق من أنه لن يجرؤ أن يكذب مرة أخرى وعلى رؤوس الاشهاد».

فقال بحدة:

ـ «أنت تعرف بالطبع ماذا يعني تأجيل الجلسة. ولا أخفي عنك، أن وضعك في هذا الموقف من دون حسم، لا يعجبني».

وسكت. فأنا أيضاً لا يعجبني وضعي. وها قد جئت لتحسم أمرك. ولينكشف الحق. ولترافع للحب ضد البغضاء. وسئمت ملابسة الدهر هذه. . خدعة الإنسان. . رباه. . ماذا يمكنني أن أفعل؟!.

وتساءل باستعجال:

ـ «ماذا قررت؟!. . سيدخل القاضي بعد لحظات».

فأجبته بتخاذل:

ـ «حسناً. . مع ذلك سأدافع عن نفسي».

وجلس محاميّ على أقرب كرسي من منصة القاضي وجلست بجواره. وكان المدعي قريباً منا. ولم يكن ثمة قفص اتهام، ولا منصة ادعاء. كانت منصة للحاكم وحده. وفيما عدا ذلك اختلط كل شيء. ودخل الحاكم وكان بالبزة العسكرية ويبدو شاباً. أو أصغر من أن ينطق بكلمة العدل الفصل. انحشرت البزز الثلاث الزرقاء في زاوية القاعة.

ولم يعد ثمة شيء يثير الرهبة. حتى مصيري المجهول المتداول أمره في هذه القاعة، لم يبعث على القلق بعد.

لم يمهل الادعاء القاضي، وكأنه يروم إنهاء المسألة في أقصر فترة، فطالب بالإدلاء ببيان يتعلق بتصحيح لائحة الإتهام، وقال بعد الحصول على الإذن، إنه بعد مراجعة البند الثاني من اللائحة، والمتعلق بالإدلاء بمعلومات عسكرية للأعداء، فقد تبين له ضعف الدعوى وافتقارها إلى السند المنطقي، ولهذا يطلب شطب هذا البند.

وكانت استجابة الحاكم لطلبه فورية، وعندئذٍ بدأ يشرح، مقتضباً وبدون حماس، تفاصيل التهمة الأخرى. وقال إن المتهم (وأشار إليّ) قد دخل بتاريخ.... مع قريبه، شاهد الدولة، منطقة عسكرية مغلقة ومتاخمة للحدود، دون الحصول على تصريح.. وإنهما مكثا في هذه المنطقة ثلاثة أيام، ثم اجتازا الحدود إلى دولة «معادية» بطريق غير مشروعة.. فسأل الحاكم إن كان قريب المتهم شاهد الدولة موجوداً، فأجيب بالنفي.

وكنت أغيب مع «شاهد الدولة»، الابن البار لها. إن لنا ماضياً واحداً، ثم تشعبت بنا الطرقات. واختار لنفسه الغدر مقابل حياة تافهة لا معنى لها.. ولي اختار تجربة الأجيال، ودهوراً من عمر حافل بحقائق كانت مموهة أو مجهولة. إن لي أخيراً ماضيّ وحاضري، وقد يكون لي مستقبلي أيضاً.. وعدت وسحبت قريبي معي إلى ماضي ذاك. وقال الحاكم:

ـ «كان يجب الحرص على حضوره الجلسة».

فتقدم رجل من ذوي البزز الزرقاء، وكان مضطرباً خاضع الروح ومطأطئ الرأس وقال للحاكم:

ـ «قد وجهت الدعوة له لحضور الجلسة يا مولاي..

فقاطعه الحاكم بتهكم:

ـ «يبدو أن دعوتكم له قد فقدت في الطريق إليه».

ثم تساءل:

ـ «أهو أكبر الاثنين؟».

وتوالت أسئلة وردودها. وانداحت ضحكات داخل القاعة.. لكني كنت مع قريبي «شاهد الدولة» في ماضيّ وماضيه. قبل تسعة شهور تقريباً.. يومئذ دخلنا منطقة مغلقة ونحن نجهل ذلك. وكان ثمة أربعون أسرة تقطن البقعة المحرمة هذه من دون تصاريح.. ورجال القرية يجتازون يومياً حدوداً لا مرئية، وبصورة لا مشروعة، فيبولون داخل «الطرف الآخر» ويعودون. كانوا مع ذلك على علم بالحاجز الدموي، وما زال في مقدورهم الإشارة إليه بعيون مغمضة، معصوبة كعيون قريبي. نحن، كنا نجهل هذا، فسقطنا في الفخ. وبقوا أحراراً في نظر القانون.. هم حراسه دون شك. حراس حاجز الكارثة البشرية.. وعاد قريبي لأصله، يعبد وهج الزيف، والثور المغمض العين. الهارب أبداً من كل حقيقة. وقلت من المحال أن يأتي، إلا أن شرفنطح قد ينوب عنه لو استدعوه، كي ينقذ جلده مرة أخرى. شرفنطح هذا يحمل فعلاً بعض ميزات الجرذان وهو يعيش كذلك بروحين.. أما قريبي ففي جنبيه نصف روح هشة وكعجينة مطواعة.. لكن الأعجب من هذا، أن يستوعب في نصف الروح هذا طبع تسعة أعشار البشرية، ثم لا يبقى منه غير ظلال إهانات ذاتية، والذل. لقد كان الحاكم يسخر الآن منه. يلسع أيضاً بلذاعة لبقة، هذه المؤسسة المتميزة ببزها الزرقاء، ونبوغها في البحث عن العدل.. وكشفه.

ـ «وإذن، فقد وقع اختيار الشرطة على أصغر الاثنين، فهو لا شك الصيد الأهون».

وجوه رجال الشرطة تشوه. ضحكات تتعالى، عاجزة عن أن تحكم توقيراً للعدل. وأنا أقترب من فضح اللعبة. أنتعش بعزيمة تخرق

حواجز وجدران. . ملموسة وغير ملموسة. أنفذ للمستقبل وهو يبدو في متناول الفكر واليد. لكن في القاعة هذه ازدادت متناقضات أخذت تنشب في رأسي مثل عظام سمك شائكة حادة. كان القانون يعاني من تأثيرات المجاري العمودية. . والعدل أيضاً. ومع هذا كله يتصاعد استغرابي إلى قمة لم يبلغها بعد، حين الادعاء العام ماضٍ في مرافعته. ولقد كان يتحتم أن يترافع ضدي، إلا أنه قال:

ـ «إن المتهم الماثل أمامكم قد خرق البند (. .) من القانون (. .)، ومن حق الادعاء مطالبة المحكمة الموقرة بأن تطبق هذه العقوبة القصوى. . . إلا أننا بعد دراسة ملابسات القضية وبعد الأخذ بعين الاعتبار بجميع الظروف المحيطة بها، بما في ذلك كون المتهم قاصراً، وأنه قد عوقب في الجانب الآخر بالحبس لمدة ستة أشهر، ولما كان الادعاء حريصاً على أن يكون أرأف بالمتهم من «الأعداء» أنفسهم، فإنه يطالب المحكمة بحبس المتهم الماثل أمامها مدة خمسة أشهر».

تتهاوى أصرحة أوهام كثيرة. . تغدو أضرحة. وشقيقته الكبرى، كأنما قرأت الغيب، فلم تحضر. ووجوه البزز الزرقاء، تغدو زرقاء كبززها. وأنا رغم هذا امتعض في سخط. لا يمكن أن أستسلم. فالرحمة هنا، تتطاول فوق هامة العدل وتكفن المغالطة الحمقاء العاتية بكفن وردي اللون. . فهل حقاً أعلنت عن خنوعي وانتهى الأمر؟!. . وتململت. وكنت أحك برأسي. الضيق أعظم من أن أحتمله. في رأسي أطنان أحاديث كانت تتكدس فيه أيام الصمت الظالم. . ومرافعتي ضد البصقات. . وحواجز الإنسان المفتعلة. . ودفاعي عن القبلة. . عن مسكن البشرية الواحد في الكرة الأرضية. . القانون!. . ما انفك يستوحي كيانه ووجوده من أعماق المجاري العفنة. . الرحمة ستشوه الإنصاف. . كيف سأعبّر عن نفسي؟!. . وانشحذت السكين ثم طعنت أفكاري. . وكان الحاكم يطرح لي سؤاله:

ـ «هل تعترف بأنك بتاريخ.. اجتزت الحدود بصورة غير مشروعة؟!».

وارتحت إذ لم يطرق سمعي ما اعتاد طرقه في كل مكان.. «الأعداء».. إلا أن الكلمة الأخرى «الحدود»، أضحت في التو مزلاجاً انطبق داخل نفسي بعد أن شطرها نصفين.

وتحاملت على أفكاري المشبوبة:

ـ «ما دمت سجنت هناك، وأعدت من هناك، وأقف الآن هنا في موقف المتهم، فهذا يعني أني فعلاً كنت في الطرف الآخر، لكن..».

فقاطعني المدعي وهو يوجه كلامه للحاكم:

ـ «لقد اعترف بالتهمة الموجهة له.. وهذا يكفي».

وارتفع صوتي:

ـ «لكني لم أنه كلامي بعد».

انبراء ممتعض من جانب الطرفين.. محامي، ومن يترافع ضدي.. يحاولان إسكاتي.. إلا أن الحاكم قال:

ـ «لا ضير.. فليكمل ما يريد قوله».

وقليلاً تلكأت وتلعثمت. كان هناك خيوط مرتبكة لا يمكن الإمساك بطرفها بسهولة. وصحيح أني لم أسمع لفظة «سبق الإصرار» من الحاكم، لكن اللفظة هذه، كانت لا ريب موجودة ضمناً في أقواله. في أقوال المدعي العام ومحاميّ كذلك. ربما حتى في أقوالي. وكانت موجودة بالفعل ساعة بر لنا مضيفونا بالوعد فاجتازوا بنا حاجز الدم بذريعة البول، لأول مرة. لقد كان ثمة تحد للبغضاء.. ولم أكن أعلم بأن تحدي البغضاء أمر لا مشروع.. وقلت:

ـ «لعل جوهر المشكلة يكمن في طريقة فهم الأشياء، لقد أحببت الناس.. كل خط فاصل بين الإنسان، مفتعل من أصله.. في كل مكان وليس هناك فقط. بل حتى في أنفسنا يا مولاي.. ببساطة، لم أفهم أن

اختراق الحاجز هذا هو جريمة يعاقب عليها القانون، والناس أكثر من القانون نفسه. لا فرق بين من يفعل ذلك لنوايا شريرة أو بدافع حب، وسلامة نية».

فتساءل الحاكم باستهزاء.. أو لعلها استهانة:

ـ «وهل كنت تتصور أنك ذاهب للنزهة؟!».

أفحمت مرة أخرى. حتى في هذا لم أتمعن. حين ذهبنا لنبول، كنت فقط أتحدى الحاجز.. وأبول عليه.

ـ «لا أدري.. لكنا حين ألقي القبض علينا هناك، قلت لهم نحن أصدقاء ولسنا أعداء.. وسمعت الشيء ذاته منهم.. مرات عديدة. قالوا والصدق يطل من نظراتهم ونبرتهم إنهم لا يكنون لنا أي عداء.. لكنا رغم هذا حوكمنا وسجنا ستة أشهر، ثم حين أعدت إلى «طرفي» هذا، عانيت من الشرطة ما لا يتهيأ للمرء في أبشع كوابيسه.. قالوا لي إني خائن مجرم.. وأنا الآن أحاكم هنا تماماً كما حوكمت هناك».

كان لا شك يسخر من أقوالي.. لكنه، كالباقين تماماً، كان يعاملني كطفل لا يفهم حتى ما يتفوه به.. وكان لهذا يحاول تصحيح «خطئي».

ـ «توجد قوانين.. والقانون فوق الكل».

فصرخت بدون وعي:

ـ «هذا قانون مجحف!.. لا بدّ من تعديله من أجل مصلحة الإنسان».

غالب ضحكه، بيد أن ضحكات أخرى دوت في القاعة. وشعرت بأني غريب ووحيد. راجعت أقوالي. أبداً. هي ليست كحياة الإنسان، تلك النكتة السمجة.. هي ما يضفي على تلك النكتة وشاحاً جاداً، ويجعلها حكمة.. يمكن للعالم من ثم أن يحيا حياته بجدارة.. لكن العالم يضحك ويقهقه. هذا العالم يخذلني مرة أخرى.. والحاكم

يسخر. . ويقيناً لا يتجشم حتى عناء التفكير في طلبي. وعوضاً عن ذلك يطلب من محاميّ أن يتكلم. ومحاميّ يشكر الادعاء (وهو يسميه زميلي وصديقي). . على أنه أبدى تفهماً لملابسات الدعوة، ولأنه اقتنع، ومن دون حاجة لجدال، بإسقاط أخطر بنود لائحة الاتهام، لأنه لا يقوم على أساس. . وأضاف:

ـ «وثمة نقطة هامة ألفت نظر المحكمة الموقرة إليها. فموكلي ليس بأكثر من طفل، ومما لا شك فيه، أن حضرة الحاكم قد لاحظ ذلك ضمن أقوال موكلي الصبيانية. ولقد قاسى هذا الطفل الساذج (وأشار إليّ) من ظروف لا إنسانية ـ هكذا؟! ـ طوال فترة التحقيق، واحتمل تعذيباً جسدياً ونفسياً كان يمكن أن يشكل خطراً على حياته، كل ذلك من أجل رفضه النطق بكلمة لم يتردد عن قولها أمام محكمتكم الموقرة، بمحض الحرية والاختيار الكامل. وهذا كله يؤكد على عقلية موكلي الصبيانية. أجل. فأمامكم يا سيادة القاضي طفل، وأرجو أن تؤخذ أقوال الطفل هذا، ليس بعين الشك والارتياب، بل بقناعة وبيقين تام. إن موكلي قد قام بما قام به مدفوعاً بتفكيره هذا الصبياني الساذج، وآمل أن تصدر المحكمة قرارها بشأنه آخذة بنظر الاعتبار دوافعه الطفولية وسلامة نيته، التي لا أشك بها أبداً»،

وساد صمت. وكان ثمة فسحة من وقت يعقبها تقرير مصيري. وثمة أيضاً فضول عات يدفع عيني ويعلقها بفم الحاكم. لكني لم أنظر في وجهه. لقد كنت أسقط في أعماقي. أرسو بحضيض قاع بئر ممتلئة بسائل مر كالعلقم. أفحقاً كل العالم قد خذلني؟!. وهل أن ما قاله المحامي مناورة ترضي سكان الأنابيب العمودية النتنة الخرقاء؟!. . أو حقاً أن انتشال البشرية من ألغام حواجزها الدموية، فكرة صبيانية ليست أهلاً حتى لاستنفار الأسماع؟!. . والحب البشري فكرة متناهية بسذاجتها، وحمقي ما سيرجح كفة الرحمة على كفة العدل؟!. . حين

سيظل الزيف في موضعه الثابت يبهر الأنظار؟!.. وها أني راضخ لكني لست مهزوماً أبداً.. فبماذا سينطق الحاكم؟!.. أهي كلمة العدل الخالص من كل حوافز الإنسان؟!.. في هذه الساعة استحكمت المعميات. امتنعت أشياء كثيرة عن إدراكي.. كان الزيف، في الآونة الأخيرة يهيمن ويتجبر. تتهاوى اليوم منه أركان شتى.. تداعت لا ريب، إلا أن أساسه باقٍ ما زال، لا ريب فيه.

وتناهت فجأة طرقات على منصة الحاكم. أعقبها النطق بالحكم. وكان خالياً من المقدمات والحيثيات ومقتضباً. وكان شيء من افحام يبطن هذا الحكم المتفاني في ورعه ووفائه للقانون...

القانون!.. وضع الإنسان قانونه فهو يعود إليه.. لمجاريه العمودية.. وثلاثة أشهر من حبس تبدأ من يوم انفتح الحاجز بين الطرفين.. يوم تعانق «الطرف الآخر».. مع «الطرف هذا»..، ثم سلمه البضاعة البشرية المنكودة. وران في القاعة لغط، لم يلبث وتحول لصخب عال. وامتدت يد محاميّ إليّ. وكان على وجهه سيماء ظفر. وهلل بعض الموجودين.. وعانقني الأهل والأصحاب. وكان الصحفيان في مؤخرة القاعة الصغيرة يتجادلان داخل فوضى الأصوات.. وحراسي الثلاثة ممتقعي الأوجه.. وأنا ذاهل ومشتت الفكر. كنت منشغلاً مع عقلي في أمرين، أتفحصهما سراً، في غرة من أمر الجلبة.. أتساءل في حيرة.. في لا يقين:

هل كنت منتصراً حقاً.. أم أني هُزمت؟!..

الفصل التاسع عشر

عادت بي السيارة السوداء إلى الموقف. كان في داخلها ثلاثة موتى مع نصف حي والصمت. وأشياء لا أول بها ولا آخر تحتدم وسط هذا الصمت. وعلى عكس ليلة السرداب، كان المستقبل يومض قدامي في إغراء، لأول مرة. كان بثقة متمادية يعرض ذاته. وأحصيت الأيام. لم يبق بين ما يفصل بين الحرية وبيني غير أربعة أيام. في اليوم الخامس سوف تفتح الأبواب المغلقة في وجهي. . وسأحطم أخبث حاجز. وسأشرع في تحطيم حواجز قائمة أخرى. إلا أن جهامة حراسي، وهذا الشيء الغامض النافث فيهم هذا الحزن مذ نطقت العدالة كلمتها، كانا كالغصة في قلب أحلامي وخيالاتي. وكان حشد من البزز الزرقاء يتقدمه كوبي، ينتظرني في الموقف بفضول لا حد له. وكلح وجه كوبي سرعان ما سمع نص الحكم. فتعمدت أن أبقي في وجهي على ابتسامة خاصة له. لقد أردت بإخلاص أن أغفر له خطأه. فلقد انهار صرح ظنونه، وكان هذا يستدعي تبديد كراهيته التي ظل يجابهني بها بعناد. حاجز آخر لا بدّ أن يتلاشى، إلا أن كوبي مكث يشيح بوجهه عني. . كان ما زال يكرهني رغم سقوط كل أوهامه.

أقف أمامه. يجلس مغتاظاً ويتجاهلني. كان مرتجف القسمات يخفي وجهه في المكتب. في هذه المرة أخفقت في سبر أغوار عينيه. كيف حال الهوتين هناك؟! . . يوم التقينا لأول مرة كان يكابر بصراحة

يومئذ اصطفقت أجنحة البوم والغربان أمامي. كانت الآن طريحة. مكلومة مثخنة بالجرح. وهو يواري رأسه ويلعق جرحه.. في الأحرى يعيد لنفسه رباطة جأشه.. وبازدراء ممهول بالخيبة قال أخيراً:

ـ «ستقضي آخر أيامك معنا.. اذهب لردهة السجناء».

ـ «آخر أيامي»؟!..

اصطدمت مع أفكاري.. ارتطمت فيه. أفكان حقاً يقصد شيئاً، أم أن الإنسان في رأي كوبي، لا يملك من عمره إلا ما يقضيه في السجن؟!..

كلا. في الواقع إني كنت جوهر الأسئلة المطروحة. لقد خاب ظني فيه. وكان همي أن يفهم. أن يتنازل عن فكرته الثابتة عني. ووهبت الفرصة لكلينا. كنت ببساطة أطمع في أن يقصيني عن دائرة بغضائه، وببساطة أن أعطيه كل صفحي وغفراني. لكنه رفض هذا بإصرار. واستغربت رفضه إذ كنت أعجز عن تفسيره. مع ذلك فقد كففت عن أن أخشاه.

وتساءلت:

ـ «وددت لو أعلم فقط لماذا لا تنفك تكرهني؟!».

عندئذٍ، سلط في وجهي هوّة عينيه. ومرة أخرى حاول أن يشربني. ولم يفلح في ذلك، فراح يرشقني بسهام مثلومة من حقد أجوف، وهو يتمتم:

ـ «أنت مجرم. ولا يعنيني من ثم، كيف أفلحت بخداع المحكمة والحظيان فقط بثلاثة أشهر».

بمرارة عدت وسألته:

ـ «أوحقاً ما زلت تعتقد ذلك؟!».

فاصطكت أسنانه واحتقن وجهه.

ـ «لو كنت فقط بين هاتين يدي؟!».

ـ «ألأني في نظرك مجرم، تكرهني؟!».

قال يتشدق في فخر:

ـ «خلقت لمحاربة المجرمين من أمثالك حتى لا يبقى في العالم مجرم واحد».

وبدأت أفقد أعصابي.

ـ «أنت إنسان نبيل بالفعل.. لكن هل تعلم كم من مجرم يوجد في العالم؟!».

ـ «رغماً عن أنفك، سأحارب الإجرام ولو كان في البشرية جمعاء».

ـ «لن يكفيك سلاح العالم.. إلا إذا بدأت بنفسك أنت».

وهممت بأن أخرج، لكنني أحسست بهزة في ظهري، أعقبها رجة.. ثم توالت على رأسي صدمات.. لكمات فوق بدني.. وعوضاً عن أصل ردهة السجناء على أقدامي، كانت تحملني إليها سواعد فظة، ثم تلقيني بداخلها ككيس شعير. واندلقت من حولي قهقهات ذفرة. وفتحت عيوني. إني أعرف هذه البؤرة. والمستنقع يطفح مرة أخرى. ورأيت لحوماً عارية في البرد. جلوداً بشرية موسومة بالوشم. وشممت روائح زنخة. كنت جريمة رغماً عن أنفي، ومحاطة بوجوه تملؤها أشداق تماسيح منفرجة. أين هنا الظل البشري؟!.. التهمته بالتأكيد أعين كوبي، أو أشياء مجهولة لا تشبع أبداً. الألسن تلحس كل ما هو كائن. ويبقى جوع رهيب يتحلقني. إني مرة أخرى غريب ووحيد. والباقون كتلة. الباقون أحجار متراصة في بنيان معاص. لكنهم بالرغم من هذا أشرف مني. وهم أكثر عدالة في عالم يرفع فيه كوبي رايته الخفاقة. لقد قتلوا وسرقوا وزنوا.. لكنهم حتماً ليسوا من أولئك الذين يدخلهم كوبي داخل أقواس لعنته الجبارة وحربه الشعواء المعلنة على إجرام العالم.

كنت عيياً ألهث. كنت أقيل نفسي بصعوبة من سقطتي وسقطتهم. وثمة ركن منزو لا بدّ وأن يحميني. وزحفت إليه. ثم على غير توقع انقطع دربي. كانوا يقفون في وجهي، جدران من لحم كالمرة الأولى.. وكالمرة الأولى، رأيت هياكل عظمية وبطوناً منتفخة. وكالمرة الأولى سمعت الكلمات الحادة كالأنصال المسمومة.. أتذكر تلك المرة الأولى.. في هذا الموضع. في غيره أيضاً كان سجناء وسجانون. بيد أني أبداً لم أشهد مثله. إنه بالتأكيد يعكس سحنة كوبي المشؤومة وتعاليمه. كان هنا الإنسان «الكوباوي» المستحوذ حتى داخل سجنه، الصلف حتى بهوانه ومذلته ورضوخه. وأنا شاذ مجرم وحقير.

ـ «إنزع ثيابك هذه».

ـ «كلا».

ـ «بل إنزعها في الحال».

ـ «لم أتعود.. والبرد شديد».

ـ «سوف تتعود».

بدأوا يعرونني بالقوة. قاومت. تلقيت شتائم.. ركلات.. ضحكوا مني. في باب القضبان وقف خدام كوبي. وتذكرت يوسف. يوماً كان يسد هذه الثغرات بجسمه. قال لي: «دافع عن نفسك». خدام كوبي ليسوا مجرد نظارة. كانوا يديرون اللعبة القذرة.. وليس سراً بعد، بل في وضح النور.

دافع عن نفسك!.. دافعت. قميصي تمزق بي أيديهم، بيد أني لم أتعر.. كنت أقاوم وكنت أكره. وحاولت إطلاق قيئي المتحشرج في كل كياني، عليهم.. كل بغضائي العارمة الطوفانية.. بغضاء كوبي للبشرية جمعاء.. وأخفقت أخرى. وكنت أبصق في وجهي. بل لا. أبداً لا يمكن أن أستسلم، فلقد قضي الأمر. وكوبي لن ينجح في تغيير

مصيري. . لم يبق إلاّ أربعة أيام. . وتشجعت. . وقاومت في جولة أخرى. . كان عزمي ليس مفهوماً «للأعوان». . كانت الدهشة بأعينهم تسطو عليّ. . أحسست في نظراتهم الملتهبة بشراسة الإنسان. . مع ذلك فشلوا في تعريتي. . حتى انطلق فجأة صوت خشن همجي متهتك:

ـ «دعوني له!. . دعوني له!».

امتثلوا. انفلق البحر الهائج. انتصبت الأمواج جداراً من كل جانب. وأنا في قاع البؤرة المفتوحة. في أعماق الجرح الإنساني. في قلب ميدان بـ «روما» الوثنية. روما الأجيال. . روما كل الأزمان. يتهيأ العبد الأبق لمصارعة الوحش المتضور الكاسر. كان سيماؤه سيماء إنسان. . بطين وشحيم. عار كحقيقته الأزلية. . وبيده شيء من جسده، يقترب مني به، كمدية. والميدان يضج بتهليل الإنسانية البارة المستنكرة إجرام العبد الآبق في روما الوثنية.

وكان الإنسان بمديته البشرية المشهرة يتقدم بخطوات وانية لكنها متحفزة ملأى بالشهوة والإصرار. وتراجعت ورائي. ومعي رفضي القاطع، وأنا أسمع عواءً محتجاً يغمرني. . ومن حولي حفيف أنفاس مبهورة. وأمامي أصداء زحف شريعة الغاب. ثم انطلقت ضحكة مرتجة من خلف القضبان. ثم كانت تتضاعف، في التو، داخل الردهة. . تغدو ألف ضحكة قاصفة داكة، مثل تفجر أطنان من مواد قاتلة ومبيدة. وبدون وعي، أصبحت فجأة سهماً ومرقت إلى باب القضبان مخترقاً حصار وجودي. . أنبح كالكلب المسعور:

ـ «أريد الزنزانة. . أريد الزنزانة!».

أحتج. . أطلب. . رغم ضحكات الرجس الممجوجة. . رغم غثيان الدنيا. . أنبح. . أعوي.

ـ «الزنزانة. . الزنزانة».

ورأيت كوبي أمامي. وللثانية تذكرت يوسف. . «دافع عن نفسك». . وبلعت القيء. . لم أقذفه في وجه أحد. وقال:

ـ «ما دام يريد الزنزانة. . فأعيدوه إليها. . إلى ذلك القبر».

وصرخت في كوبي:

ـ «إني أكرهك. . أكرهك أيها الإنسان النبيل».

كان يحدق بي وكأني حشرة. لا شك أنه كان أيضاً يحتفظ بكل حقده وبغضائه. وكانا باردين على وجهه كالموت. . وقبل أن يذهب قال:

ـ «يمكن للأصفار أن تكره. . إلا أن الأقوى وحده يملك أن يجعل للكراهية مضموناً».

وبعد بعد غد سأكون أنا الأقوى. . وساعتها لن يضطرني كوبي على هذه الكراهية، التي يفاخر بأنها ملكه وحده. إني سأمسحك من أفكاري كأية لطخة حبر أسود، لأرى الدنيا بصفاء ولكي أحتضن المستقبل.

وقال محمد بعد أن هنأني، وهو يتنهد:

ـ «لقد أفسدوا فرحتنا الكبرى بك».

وهدأت، فأجزمت في وعد قاطع:

ـ «لن يتوقف الزمن بمشيئتهم. إنها أربعة أيام. وسأزورك كل أسبوع».

وتأملت قليلاً ما قلته، ثم سألت:

ـ «ترى كيف ستكون الدنيا بعد أربعة أيام؟!».

وحدجني ببلاهته المعهودة، الطيبة الحلوة.

ـ «ستكون بين أهلك وأحبائك».

ثم استطرد جذلاً وكأنه اصطاد حقيقة باهرة الضوء.

ـ «وأهم ما في الأمر أنك ستخرج من هذا المرحاض».

هذا المرحاض!.. وأنت تنظف المرحاض كل يوم، لكنه باقٍ. أنت وجدت لكي تكتم أنفاسه العفنة داخل هذا المجزر. إنك أطيب المقهورين. وهنالك مع هذا، شرطي وضع لقاعدة كوبي استثناء، وأضاف للبشرية صنفاً آخر. إلا أن محمداً لم يلبث أن قال:

ـ «هذا الشرطي الجديد؟!.. نقلوه على ما يبدو لمكان آخر.. لا أدري لماذا لا يمكث هنا إنسان طيب».

حقاً، تزداد أصناف البشرية. إلا أن كوبي وأعوانه هم الباقون هنا. وأضاف محمد:

ـ «وما هي إلا غمضة عين حتى تذهب أنت كذلك.. والعقبى لنا».

من منا يتقيأ الآخر؟!.. وفي الطرف الآخر، على ساحل البحر، نبع ماء عذب متصل بأجاج اليم، لكن الماءين لا يمتزجان. وساعة حدثنا الدركي الطيب عن هذا وقاسمنا شطيرة الجبنة، خطرت لقريبي أفكار شيطانية.. وتوزعت فجأة وعدت أتساءل:

ـ «أجل. كيف سيكون حال الدنيا بعد خروجي؟!».

لا ينفك يرمقني وهو يعجز عن فهم شيء ما.. وتراوده الظاهرة المعتادة للتعبير عن جهله فيحك رأسه.. ويهرشه باستمرار.. ثم يتمتم في حسرة:

ـ «لكأنك أصبحت تخشى الدنيا».

وسهمت، فلم يسمع صوتي.. أنت تعلم كم أني متلهف لخلاصي من هذا الرجس. إني أحصي اللحظات، كما كان يحصيها قريبي الثور المعصوب العين.. وهناك أهلي وأحبائي والحرية.. هذا صحيح، إلا أن أشياء كثيرة اندست في الوجدان أو انسلخت عنه. إني لا ريب سأخرج إنساناً آخر. وكان قريبي صديقي الأوحد رغم عبادته وهج الزيف. وانقلب فينا القارب، وتحطمت الأجسر. والقبلة

بصقة.. وتمنوا موتي.. وتعاهد ضدي تسعة أعشار العالم من أجل شيء سأنقب عنه طوال حياتي وفي الغالب لن أعثر به. كنت أهرب في ليلي الديجوري إلى هذا الضوء الخافت الشاحب في سقف الزنزانة، المبقوع ببراز سماري الشياطين.. والعاهرة الشمطاء القذرة تقبع من تحتي.. ويوماً كان الموت قوّاداً يستدرجني لغلمتها المشبوهة.. إلى أعماق رحمها البارد المترهل.. من منا سوف يتقيأ الآخر؟!.. وحاولت أن أنجو من فخ سؤالي.. وعلمت بأني أحاول هذا كي تفلح محاولتي الأخرى في إقناع نفسي بأمور لست في حاجة إلى التأكد منها. كان من الواضح أن وراء الأيام الأربعة القادمة دنيا فاتحة الأحضان لاستقبالي. وهناك مهام كثيرة انقطعت يوماً كشريط روائي عند نقطة مشوقة ومثيرة. ونجحت في الإفلات من مصيدة الحزن والحيرة كما أفلت من مصيدة الفئران والقردة.. كيف سيواجهني ذاك التافه؟!.. كيف ستواجهني الغولة؟!.. كيف سيكون حال الدنيا بعد سقوط ألف من أقنعتها الزاهية الوردية؟!.. أأدور إذن حول حلقة سحرية؟!.. كلا.

ـ «سأجاهد من أجلك يا محمد.. سأحاول تحطيم الحاجز بين أهلك وبينك».

وتحسر:

ـ «ليتك تقدر».

واستدرك:

ـ «إنك تحملني من الآمال ما لا أقدر على حمله.. إني أعلم بأن الأمل المضمون لتحطيم هذا الحاجز، يكمن في الأيام.. لم يبق إلا أربعة أعوام ونصف العام تقريباً».

ما أهون ما ينطقها؟!.. إلا أن أبهظ منها، تلك الحواجز اللامرئية التي تشيدها هذه الأعوام في نفس الإنسان.

ـ «محمد. هل تدري ما أروع أن تحيا البشرية في عالم مفتوح تنطلق فيه من دون حواجز؟!».

قال بسذاجة عنيدة لا يمكن أن ترضخ:

ـ «افرح. فستخرج إلى هذا العالم بعد أربعة أيام».

محال أن يفهمني. وقلت له:

ـ «لو كان فقط يمكنني تنحية العقبات؟!».

وظل على جهله، فعاد يحك شعره النامي. وتركني أمضي إلى جزر واق الواق.. اللجج الفضية.. اللالعنة.. وكنت أتأرجح بين عالم أسطوري ومبارك، وبين آخر يقيني ملعون وفي هذا الآخر كانت تتكدس كميات متفاوتة من نكبة الإنسان. تارة تتكاثف، وتارة تخف وطأتها فتتضاءل. واللحظات جادة في رفع بعض الأعباء عن كتفي. سأقوم.. لن أبقى ملتصقاً بالدقعاء من هول هذا الحمل. وسأمشي مع رزمة أعباء أخرى. وتساءلت إن كان يمكنني حقاً أن أفعل شيئاً يقدر على تفتيت الصخر الجاثم على حلق هذا العالم. وكانت الأشياء غير مفهومة لي. وظلال إحباط قارس يختبئ في ركن قاسٍ من أركان ذاتي. ولجأت إلى النوم كي أقتل في أحضانه ساعات مما تبقى. آخر أيامي في بؤرة كوبي وأعوان كوبي. آخرها في قبضة أعتى مستويات اللعنة.. وتوغلت في نفق الأحلام.. ثم توقفت وفتحت عيوني.

كان ثمة صعقات تشبه عواءً مسعوراً تتلاحق في أذني قادمة من خلف جدار الزنزانة، وهي تصدمني مثل شحنات كهرباء تجتاح على نوبات متقطعة بدني وتهزه، فأرفّ رفيف مصروع لا يملك سلطاناً على حركات جسده القهرية. وتساقط نومي عني كتساقط أوراق خريف ميتة، فمكث من بعده هلع قابض من نوع لم أعرفه قبل الآن. وتمالكت وجودي وقذفته في زاوية الزنزانة، ثم بتوجس أنصت. كنت اندفع في إرهاف آلي نحو مصدر الصيحات المروعة الغريبة، وهي بجواري تماماً

تنصب في أذني مثل عويل الويل. صرخات تبدو وكأنها تستنجد من شيطان متجسد تراه رؤية العين.. أهوج.. لا عقل فيه.. لا ضابط.. يتطاول.. يعلو.. يتكسر.. يهبط.. يئن.. يتوجع.. ثم يعلو فجأة.. وفجأة يتوقف. وسمعت لهاثي. وكان وحده في أعقاب الصرخة المعتوهة.. في لحظة من لحظات الليل. من هذا؟!.. ولماذا لا يسمعه غيري؟!.. لو كانوا سمعوه لكانوا جاءوا وكتموه.. وتملكني رعب من نفسي.. كانت أصداء الصرخات ما انفكت تتأرجح بخواء كياني وتقتلني. وأنا وحدي معها والليل ثالثنا الصامت المتكتم يرقبنا في مكر واستهزاء. ثم غضت وأنا مفتوح العينين. وحين لاحت أولى خيوط النور بعد دهور، تنفست الصعداء.

لم يدر محمد ما كنه تلك الصرخات الغامضة المجهولة، إلا أنه أكد على سماعه شيئاً منها كالأصداء، وكان ساعتها بين النوم واليقظة ولما كان محمد يرقد بعيداً عن الزنزانة، فقد أيقنت بأن الصرخات كانت حقيقة، وليست وليدة هذيان أوهامي، وأن مخلوقاً لا بدّ موجود في الزنزانة المجاورة، بالرغم من أنها كانت شاغرة ساعة أويت للنوم. وتملكني فضول لمشاهدة هذا المخلوق، فخرجت من الزنزانة (وكان بابها الآن مفتوحاً ليل نهار) وألقيت على الزنزانة الأخرى نظرة. أجل صدق ظني. والرجل هناك وسيم ببذلة فاخرة وبرباط عنق. ودهشت. كيف جاء؟!.. ولماذا يطلق في الليل صرخاته المعتوهة؟!..

وقال محمد في الظهر:

ـ «جاءوا به قرابة منتصف الليل.. ويقال إنه رجل مجنون.. أو تنتابه نوبات هستيرية».

وأوجست خيفة قاصمة تغمرني:

ـ «ماذا سأصنع الليلة؟!.. إني لا أحتمل صرخاته.. هي كجنون معدٍ بالضبط».

ازداد خوفي فهمست:

ـ «إنك لا تعلم أية صرخات يطلق.. يمكن أن يفقد الإنسان منها صوابه.. خصوصاً في الليل».

ـ «إذن، عد لغرفة السجناء».

ـ «لا يمكن. فهناك جنون من نوع آخر».

ـ «في الحالة هذه لم يبق إلا أن تطلب إغلاق الباب في الليل ثم تسد أذنيك بقطنة وتنام».

ـ «لماذا يعتقلون رجلاً مجنوناً في زنزانة موقف.. ويضعونه بجواري؟!».

مط شفاهه. لم يعرف. كما لم يعرف لماذا كتب عليه أن يقضي أكثر من أربعة أعوام أخرى في هذا الموقف بالذات. ولماذا سجنت أنا.. ولماذا عذبت.. ولماذا الجدران ما عتمت منتصبة في كل شبر من كرتنا الأرضية؟!.. وقلت لنفسي: «قد يأتون لأخذ المجنون قبل حلول الليل» واستغربت أن يهدأ جنونه نهاراً حتى يغدو في صمت الموت.. فهل كان النور يعيد صوابه له، والليل يسلبه من رأسه؟!.. ثم عدلت عن الاستغراق في أسئلتي، إذ كانت مذ ألفيت نفسي داخل القضبان تلقى في عالم مصمت. وخشيت أن تبقى كذلك بعد أن سأواجه الدنيا، فذلك سوف يبدد عمري وسيجعل منه مجموعة أسئلة جبارة مضنية كعبء غير مطاق. وعملت بنصيحة محمد، فطلبت من الخفير الليلي أن يغلق خلفي باب الزنزانة، وحشوت أذني بثيابي ثم حاولت أن أهجع:

الليلة، وليلة غد، ثم من بعدهما الدنيا!..

وتقلبت فوق حشية القش اليابس القذرة التربة، انهدل وجهي منزلقاً نحو أرض الزنزانة. لامسها. برد وتراب وعفونة على الأرض المومس الشمطاء. نزعت وجهي عنها. أنفها راغم وأنف كوبي أيضاً.

وتراءى المجنون فجأة، لي في الصمت. فانطلقت في رأسي أصداء صرخاته المعتوهة، ولذت إلى ذراعي ودفنت هذا الرأس المطنون بينهما. وبقوة أطبقت ساعدي على كلتا أذنيّ. وعدت أحلم بوجوه باشة تبسم لي. وكان دمع الفرحة يبللها ويعدي عيني. وترطب وجهي بعبرات حقيقية لم تكن مجرد عبرات الفرحة. بل عصارة ما مر وما سوف يأتي.. الحزن والألم والخوف، والبهجة والطمأنينة والغلبة.. ببساطة كل الأشياء. لقد كانت الفرحة مشوبة ما فتأت بعكارات حزن يكمن ظله في أعماقي، وكان ما عتم يغرف من أمواج فرحي بمصيري، فيبددها فوق أرض جدباء متهالكة للماء، فتضيع عليها في غرة من أمري. ثم انهار كل ما مر بي، في دفعة ظالمة، فتكوم قدامي، تلاً يحجب عني المستقبل القادم بالفرحة، ويجعلني أجهش كالطفل. كان كياني مليئاً بأطنان سموم من صنع ماضي هذا النكد الذارف الآن آخر أنفاسه على قاع الزنزانة هذه. وكانت جثته المحتضرة في جوفي قاسية الحمل، محسوسة بعنف وتنغص صفوي، إلا أني بعد أن أغرقت مرتبة القش اليابس بدموعي سرى عني. وكانت الآن رائحة العطن الرطبة تندس بمناخيري كأجراس موقظة من نوم لم أعثر بعد عليه. وأرقت. وتقلبت المرة تلو المرة. كانت ضلوعي ترتطم بنتوءات صلبة في المرتبة الجافة فتطقطق وتنبعث منها آلام خرساء. وتضايقت. واشتقت لمحمد، وأردته ليواسي سهادي وليلجم بحديثه الطيب صوت الوسواس المتعالي ثانية في صدع ذاتي. بيد أن محمداً كان لا ريب الآن يغط في نوم أطفال تحرسها ملائكة بيضاء. كيف يمكنني أن أنفذ داخل عالمه الخالي من تعقيدات الفكر وجرائمه؟!. إن في عالمه، رغم مأساته، سهولاً منبسطة من غير وهاد وهضاب. وهو يخترق الصخر الطارئ قدامه ببساطة أسطورية، فكيف يفلح في هذا؟!.. وتضخم إعجابي به، من دون أن أفلح في الكشف عن سر صموده، رغم تنقيبي عن هذا السر

عبثاً، بين طيبة هذا الرجل وسذاجته المتناهية البالغة أحياناً حد الحمق. وغبطته لكنني لم ألبث أن عدت ورثيت له. ورثيت لأمي ولكل من عانى من أجلي. وحضرني طيف الجدة. لقد فاضت روحها وهي تبحث عني في جنبات الغيب، ولم أدرِ إن كانت روحها قد اكتشفتني من بعد، في هذا الثقب الدنس المعزول عن كل العالم. مع ذلك كنت آنس بسكينة تحت رفيف أجنحة هذا الروح الطاهر، وعندئذٍ يكف طنين كل الأجراس، وتغيب الأفكار فتلاشيني رويداً معها في ذرات النوم المنشود.

ثم في تلك الليلة وقع الزلزال.

كان أقوى زلزال يدهم الكون. في جبروته يتواقع كل منتصب قائم في العالم. لكن أحداً غيري في هذا العالم لم يشعر به. كان زلزالي وحدي. في أعماق الليل ينسل إليّ بفظاظة. أيقظني من نومي. راح يهز أعطافي كأرجوحة. وسمعت في البدء صوته المجتاح. الصرخة العاوية المنبعثة من لا عقل الإنسان. وفتحت عيوني مرتجفاً كالسعفة. ورأيته. كان ينتصب فوقي. وعيونه في ضوء الزنزانة الأصفر كعيون الرعب تماماً. يشرب عقلي.. يأكل صوابي. وخلاياي تتراقص كالطير المذبوح. تصطفق بي أحشائي وأعضائي وأمعائي. يتفتت كياني. وهو يحملق بي. ويداه مفتوحتين وتنخفضان نحو عنقي مثل طرفي كماشة. وعاد وصرخ. خرجت روحي مع لهثاتي. حاولت مجاراته بالصوت. تكسر صوتي في حلقي مع كل أطرافي.. ويداه تقتربان وعيناه.. يسحقني الخوف.. تشربني العينان.. تطمسني الرعدة.. «أصرخ!.. أستنجد!..».. ودفعت الصوت الميت. لا جدوى.. «انهض!.» خرقة ملقاة تحت أقدام الإعصار الكاسح.. لا تملك أن تهرب منه.. لا تملك إيقافه.. «تلك حياتك ستضيع».. فوقي ألف هوة مفتوحة الحلق.. تتقدم نحوي.. تطبق ثم تطبق أكثر.. وتحاملت أخرى على

أشلائي. وتململت.. الصرخة انطلقت من تحت أنقاضي وركامي.. وتململت أخرى تحت الأنقاض.. وعندئذٍ تراجعت الأشداق المفتوحة من حولي. الرجل المجنون تراجع، وبطرفة عين غاب.

عدت في الزنزانة وحدي. غالبت الزوبعة والزلزال. كان يفريني الرعب.. تبعثرني الرجفة. أسمع وقع رنين تداعي روحي.. أنصت لتلاطم أسناني. والباب مفتوح غير مغلق.. يفضي إلى لا شيء.. إلا الخوف والرجفة الطوفانية.

كلا!.. وكان يتجاذبني رعبان. رعب من كل الأشياء، والرعب في أن أفقد كل تلك الأشياء. إني ما زلت أستجدي حياتي من جيب الزوبعة والزلزال. كيف أوقف هذه الدوامة المحتدمة الهوجاء؟!.. كيف تهدأ الهزة المنفلتة من كل ضابط؟!.. وهي تذبذبني بضراوة وبعنفوان تتدحرج بعيداً عني كل مقاومة بي. مرة أخرى حاولت أن أستنجد. والباب المفتوح مسدود في وجهي.. هل سيعود المجنون؟!.. وضغطت بتهالك على فتات وجودي المنساب مع أمواج بحر فوار. الباب!.. ليس ثمة قضبان فيه.. والشر هناك، وراء الفتحة المتربصة بي. كل الشر.. العالم كله.. والزوبعة تأتي. من ثم، جاء الزلزال.. والرجل المعتوه.. وكوبي.. والأعوان.. وحواجز الدم....

الباب!.. كيف أقتحم هذا الحاجز المنهار، ووراءه تكمن مأساتي؟!.. رعبي.. حطام حياتي.. آمالي المشنوقة.. وجه العالم البعبع المسخ؟!..

الباب!.. كيف فتحوه وهو مغلق؟!.. وأدوخ في أحضان الزلزال.. هذا الموت البشع كيف أهرب منه؟! وتذكرت محمداً.. وكان بيني وبينه آلاف فراسخ مبثوث فيها كل ألغام العالم.. بيني وبينه، حتفي هذا ومصيري التعس البائس. هل أتحدى موتي؟!.. الرحمة!..

ومحمد يهجع كالطفل، وأنا بين أنياب الطاحونة وهي تدور. والباب مفتوح، وشرير ومجرم. وحصار من حولي مصنوع من ألف حاجز؟!.. كيف أتخطى الألف حاجز؟!..

كنت أتهالك. أطلب الأشياء الساقطة من بين يدي. في أعماق أعماق حطامي كانت تتمرغ الرغبة المسكينة. رفض ضياع كل الأشياء، وتكاشفني في الظل.. يتجبر فيَّ الرعب الآخر.. أفقد عقلي.

كلا. أخيراً غامرت. بإرادة جازفت بآخر أنفاس حياتي، وبظل من رغبة غريزية لا تستسلم. ومع الزلزال مرقت إلى خارج الزنزانة. ويميناً أسرعت بالزوبعة المسعورة.. ثم يساراً قرب المرحاض.. كان محمد يرقد كالأطفال.. تماماً كالأطفال:

ـ «محمد!».

كانت متفتتة أيضاً. ألف شظية. كررت ندائي. استيقظ مذعوراً:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم!».

هو أيضاً كالمجنون.. هبّ. أمسك بي. الرعدة لفرائصه انتقلت. ظل يضغطني. كانت الرعدة أقوى من سواعده المفتولة:

ـ «اهدأ».

حاولت. تبلعت ريقي. ريقي ضائع ولساني خرقة. وفكوكي تصفق دون هوادة:

ـ «ماذا دهاك؟!».

ـ «إني خائف.. ليس بي إلا الخوف».

ـ «اقعد!».

دثرني بالبطانية حين جلست.

ـ «سأجلب لك ماءً».

وجمعت أشتات كلماتي:

ـ «جد لي سيجارة. هذه الرعدة الملعونة تدمرني».

ـ «اهدأ. سأجد لك كل شيء.. اللعنة!».

شربت الماء. غص الماء في حلقي. الكأس اهتزت بين يدي. ودخنت السيجارة. وشهقت مرات. كانت تلك أول مرة. بأي ثمن كنت أريد التخلص من هذا الزلزال.

ـ «تبدو أحسن حالاً.. الرعدة زالت.. نم بجواري».

لم أنطق. الرعدة خفت فعلاً.. أو هبطت للأعماق.

ـ «هل أنت بخير الآن؟!».

حاولت أن أعرف لأجيبه. ابتعد الزلزال والعاصفة مرت، لكنهما قذفاني إلى مكان آخر مجهول. كنت في غير هذا العالم.. منعزلاً حتى عن هذا الرجل الطيب وهو يحميني بيديه وبعينيه وبروحه وبوجدانه. ما من أشياء أبداً. مفقودة كل الأشياء وتروعني.. وأنا غريب.. والكائنات غريبة وزجاجية لا تنفذ في إدراكي.. ينفر منها إحساسي. موت كان هناك. بشعوري أو في الموجودات.. يفصلنا حاجز شفاف لكنه بلوري عازل. ودعوت أمسي فلم يحضر.. واستدعيت غدي فأبى أن يأتي.. وأردت أن أحتضن حبي لهذا الإنسان.. أن أبعث هذا الحب لأمي.. إخواني.. الأشياء الطيبة المنتشرة على سطح الأرض.. إلا أني لم أعثر على هذا الحب.. وأردت أن أكره.. كوبي.. لعنة الإنسان الأحمق.. تسعة أعشار البشرية.. أخفقت كذلك.. وتفانيت في البحث.. عن أمسي.. وغدي.. عن حبي.. عن بغضائي.. عن غضبي.. عن آمالي.. عن كل الأشياء.. وكانت برمتها ضالة.. مفقودة.. إلا هذا الشيء الملتهم الشره الأعمى المجنون.. الرعب!.

الخاتمة

قام. اغتسل. تجول. حدق في وهج الشمس. فكر في الأمس. في المستقبل. في الأصحاب. في نفسه. في كل الأشياء لا جدوى. إحساساته جامدة في أعطافه، راقدة رقدة أموات. أبداً لا شيء يثيره. وكان يتعذب ويخاف. جدار من بلور عازل ومتين يفصل بينه وبين قوة الأشياء. هذا الصد الشامخ حذو شعوره. وجفل:

ـ «إني لا أنفعل بأي شيء.. فقدت الحس.. فقدت الحس!».

ورمقه محمد برثاء، وابتلعته النظرة.

ـ «هذا من أثر الصدمة ليلة أمس. المجنون أفزعك عليه اللعنة. كل هذا سيزول بمجرد أن تترك هذا المكان المأفون.. عانيت كثيراً. لكنك ستنسى.. أقسم لك».

هذا القسم الجزاف!.. حتى هو لم يلق صدى في نفسه. أين حماسه؟!.. فرحته بالحرية الزاحفة نحوه بثبات؟!.. الحب العارم الصادئ منطفئ في أعماقه.. الغضب أيضاً مات. لا شيء هناك.. إلا الحاجز.. هذا الحائط البلوري العازل.

ـ «شعوري مات.. فقدت الإحساس بالأشياء».

كان كوبي يتفحصه في خبث وتشف. استدعاه ليقول له شيئاً، لكنه بادر كوبي بشكواه.. استنجد به. فحين يفقد المرء إحساساته تتساوى عنده كل الأشياء حتى أصناف البشرية.

قال كوبي:

ـ «ولهذا سأفرج عنك اليوم».

رغم حاجز البلور ارتبك. وظِل رعب الأمس تذبذب وارتطم بجداره.. تمتم بتوسل:

ـ «غداً سيأتون لأخذي».

وفي عيني كوبي انفغرت الهوتان المظلمتان:

ـ «أنت ما زلت تكرهني.. أليس كذلك؟!».

حاول أن يغضب. لقد برّ كوبي بوعده لنفسه. كوبي حقق فيه مآربه. «آخر أيامك».. وهو يريد أن يكره.. أن يصرخ.. والرعدة في أعماقه تصطدم بحاجزه الجديد.. تظل حبيسة.. لا تنفذ.. تنعقد ضيقاً.. تغدو في ذاته حزناً مردوداً مكبوتاً.. مكتوماً لا يفصح. عيناه تغرورقان. بفتور يهمس:

ـ «إني أخافك.. وأخاف الدنيا!».

ضحكة تطن في أذنيه، ولا تتعداهما.

ـ «حسناً. سأطلق هذه الدنيا في وجهك.. أنت حر!».

ـ «أنت أطلقت المجنون في وجهي ليلة أمس».

ـ «إنك أنت المجنون وتخرف.. إذهب فأنت طليق!».

وسلمه الساعة ودراهمه وثيابه. يوم واحد قبل الموعد. يوم واحد. مقابل إحساسه ومقابل حبه ومقابل الدنيا. وقال: «ستفاجأ أمي» وتوقع أن تجتاح كيانه هزة بهجة.. أن ترقص كل أعطافه، لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وعيناه أهملتا.. لماذا يحدث هذا؟!.. لماذا كوبي يصنعه صخرة.. ويجمد إحساسه.. ويغرس في نفسه أفظع الجدران البشرية؟!.. في الخارج كانت الزحمة. وكان الناس.. وكانت الأصوات. الألوان أيضاً كانت وبكثرة.. وروائح من كل الأصناف.. وهو كالنائم يمشي. وحده. في صحراء جرداء موحشة. حتى ولا

حشرة تزحف فوق الأرض. والوقت ظهيرة. والساعة في معصمه جديدة. وثيابه ثياب بشرية. وهذا الباص سوف يقصيه عن بؤرة الرجس وسيدنيه من أمه.. ومن البشرية «البارة». أحبابه. ومَنْ مِن أجله عانى.. ومَن أفلح في أن يعتقه، بعذابه وكوابيسه، من مصيدة الجرذان. «ألفاظ».. «كلمات».. كلمات فقدت معناها. ليست متمكنة من نفسه بعد. غير قابلة لأن تفعل فيه فعل هذه المخلوقات.. «إني فقدت إحساسي.. لا أشعر أبداً».. آلة وتسير على الأرض. والباص يمضي جنوباً.. جبال من طرفيه ووديان.. وقدامه جبل يبتلع الكون.. والصفحة الزرقاء ممتدة على مرمى العين.. بقع وتراب وحفر. القفر. واللطخة السماوية اللون، سراب. دم أزرق محجوم من شريانه مبصوق هنا بالقرب من الحصن الأصفر. ولون القيء الأصفر المتميع الرغوي هناك. في جذر التينة. معسكر تجميد أرواح يديره «إنسان» يدعى كوبي. وهو يهرب. باستمرار يهرب. والباص بجنون يعدو.. ويقصيه. تبتعد عنه هناك، جريمته الفذة، الصفراء. وهنا في أعماقه جريمة.. من بلور.. من ماس.. صلبة بيضاء متوهجة.. جدار شامخ. وقال كوبي ونفذ.. زرع الحاجز فيك.. حاجز الموت، قبل أن «يطلقك» في وجه حواجز الموت الأخرى.. وتفاقم فيه ضيق ضال. كانت إحساساته تختنق داخل نفسه. يبحث عن نسمة.. عن نفحة دفء. شرارة نور. الساعة تلو الساعة. وسهول ومروج خضراء.. الزيف!.. زيف الدنيا.. زيف الأحياء.. الأحمر المطلي بالأخضر.. الأسود مطلي بالأخضر.. الموت يتبختر بقناع حياة زاخرة بالفرحة. وأنا ميت.. أيضاً صبغوني بالزيف.. بالحرية.. أبدو حياً يرزق بين الأحياء والأموات.

وصل الباص. هبط. ركب باصاً آخر. بعد قليل!.. بعد قليل سينجاب النور. كوخ خشبي متواضع سيزغرد له. وستضحك مآقٍ

مضمخة بالعبرات. ستعود سعادة مفقودة. «وأنا وحدي.. دمية مطاطية جامدة فارغة الجوف.. لكنها مع ذلك تبكي من غير إحساس» نزل من الباص الآخر. سيعبر الترعة. سيتخطى حقل الشوك اليانع، ثم يصبح في الكوخ. كان يمشي. يسمع دقات قلبه في رأسه تنهمر مثل قطرات تتساقط فوق بساط تنكي. حين القلب يخفق خفقاته المرهفة هذه، فيقينا أن إحساساً ما يوجد معها. أدرك أن هذا الإحساس كائن، لكنه خلف الحاجز البلوري. بدخيلته امتدت قبضة روحانية. راحت تضرب جدار الحاجز.. فليتحطم!.. والقبضة خارت وتهاوت. وبعسر انتزع من صدره صخرة، ثم جاست عيناه وتوقف. تلك هي!.. «الغولة».. أول من يلقاه هنا، بعد خروجه إلى «الدنيا». بينهما الترعة. بالصدفة رآها وتوقف. متسمرة كانت خلف الترعة وتضحك له. شاهد فيها ما كان يراه قبل حلول اللعنة.. هي تضحك له. لا تخدعه عيناه. لو اقترب منها فستمسح عن وجهه بصقتها.. خلف الترعة تتكوز شفتاها كالسابق. كالماضي تماماً. وكأحلامه في الزنزانة. وتوقف. ساقط الوجه وتهمّ إجهاشة أن تقتحم عينيه.. قهر الاجهاشة بعناد. فلماذا إذن يخفق في قهر حاجزه البلوري الشفاف!؟ اللعنة!؟.. تلقائياً انحرف عنها. لا شك يهرب.. أفكان يكرهها؟!.. هل في نفسه ما زال شيء لها.. عليها؟! سامحها؟!.. لم يغفر لها؟!.. كيف يعلم.. وهو ما انفك يردد «لا أشعر.. إني فقدت الإحساس بالأشياء».. وكان يهرب.. ويواصل هربه.. منها.. إلى كوخ أهله.. عبر رحلة متعثرة.. وعرة.. موحلة.. وطويلة.. لم يبق منها غير كوبي والحاجز البلوري. وكان يخاف من هذا كله لكنه لا يشعر أبداً بهذا الخوف..

نهاية الرواية

هذا الكتاب

الصمت.. الظلام.. العاصفة.. والبرد.. أما النور فكان موضع شك عميق.. منذ أن دفعونا إلى هذا السرداب العتم، فرضت هذه الأشياء وجودها. إن المرء يمكن أن يضيع في دهاليز هذا السرداب. متاهة.. متاهة حقيقية. سجن ولا سجن. والضوء الشاحب المطل برأسه من السقف لا يمكن أن يخلق نوراً حقيقياً. كل ما يمكن أن يصنعه هذا الضوء، هو تحويل تلك الموجودات الخامدة إلى أشباح شبه مخيفة.

